إميلي برونتي

مرتفعات وذرنج



مكتبة علي بن صالح الرقمية

إميلي برونتي



مرتفعات وذرنج

رواية

تَرجَمة: رفعِتِ نسيم

1847

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 1 -

عدت تواً من زيارة مالك الدار التي استأجرتها، وهو الجار الوحيد الذي يمكن أن الجأ إليه في عزلتي التي جئت أنشدها في هذه المنطقة. وفي يقيني أنني لم أكن لأستطيع أن أهتدي إلى مكان يعدل هذا المكان هدوءاً من سائر أنحاء انجلترا.. فهو بعيد عن صخب الحياة وضجيج الناس والمجتمعات.

وقد امتطيت ظهر جوادي في ذلك اليوم، وانطلقت صوب القصر على أمل لقاء هذا الجار. وعندما دنوت من بوابة القصر، رأيت رجلاً طويل القامة، أسمر البشرة. فلم يكد يراني مقبلاً عليه حتى لمحت في نظرة عينيه مزيجاً من الحذر والنفور والارتياب. وأردت أن أتأكد من شخصيته، فقلت وأنا أترجل عن جوادي:

- مستر هيثكليف؟

فاكتفى بإيماءة من رأسه تعني الإيجاب.

أما أنا فقد استطردت قائلاً:

- إنني مستر لوكوود.. المستأجر الجديد يا سيدي. وقد حرصت على أن أتشرف بزيارتك عقب وصولي مباشرة..

فقاطعني قائلاً:

أدخل.

وقد نطق بهذه الكلمة من بين أسنانه المطبقة، وكأنه يعني بها التعبير عن رغبته في أن «اذهب إلى الشيطان» إ..

وتقدمني في الطريق إلى الممر المرتفع. ولم نكد نبلغ الفناء حتى صاح منادياً:

- جوزيف.. خذ حصان مستر لوكوود. واحضر لنا بعض النبيذ.

و«جوزيف» هو الخادم. وقد كان نحيلاً، طاعنًا في السن، كريه السحنة، وإن كان يبدو عليه أنه لا يزال محتفظًا بكامل صحته وقواه البدنية.

و«مرتفعات وذرنج» هو اسم الدار التي يقطنها مستر هيثكليف. وكلمة (وذرنج) هي اصطلاح إقليمي ذو دلالة خاصة، يقصد بها وصف جلبة الرياح التي يتعرض لها موقع الدار أثناء العواصف.

وقبل أن أجتاز عتبة القصر، لمحت نفوشًا فوق المدخل الرئيسي، وتبينت تاريخًا محفورًا هو «1500» واسمًا هو «هيرتون ايرنشو».

ولم نكد نقطع بضع خطوات حتى كنا في غرفة الجلوس العائلية، وهم يطلقون عليها اسم «البيت». ولم يكن ذلك البيت وهذا الأثاث يبدوان على شيء من الغرابة، لو أنهما كانا لريفي بسيط من أهل الشمال. أما بالنسبة لمستر هيثكليف، فقد بدأ التباين بينه وبين مسكنه وطراز حياته.

وقد كان مضيفي شديد السمرة أشبه بالغجر، بينما كان مظهره ومسلكه ينمان عن سيد مهذب. وقد وجدته شديد الذكاء، بارع الحديث في جميع الموضوعات التي تطرق إليها حديثنا. وقبل أن أعود إلى بيتي، كنت قد قررت أن أعيد الكرة، فأزور جاري في الغد، رغم ما بدا عليه من عدم ترحيب بزيارتي.. ولكنني سوف أذهب لزيارته، فالشيء الذي يبعث على الدهشة حقًا أنني أشعر بنفسي رجلاً اجتماعيًا يحب الاختلاط.. بالمقارنة بيني وبينه.

- 2 -

كان عصر الأمس شديد البرودة، مثقلاً بالغيوم، حتى لقد راودتني الرغبة في قضاء الأمسية في مكتبي إلى جوار المدفأة، وأن أعدل عن تلك الزيارة في هذا الوقت الذي يصبح فيه الطريق إلى مرتفعات وذرنج شديدة الوعورة بسبب الأوحال.

ولكنني رغم ذلك، تناولت قبعتي، وقطعت أربعة الأميال التي تفصل بين بيتي وباب حديقة مستر هيثكليف. وقد وصلت في اللحظة المناسبة، بعد أن بدأ ندف الثلج تتساقط وتفرش الأرض كأنها ريش يتطاير. وقد شعرت عند قمة التل، أن الهواء القارس ينفذ إلى عظامي، وأن كل أطرافي ترتعد من شدة البرد. وطرقت الباب طويلاً، ثم حاولت معالجة القيد الحديدي للبوابة، فوجدت صعوبة في ذلك. ثم أخيراً أطل «جوزيف» بوجهه الكريه من طاقة في مخزن الغلال، وصاح بي قائلاً:

- ماذا تريد؟.. أن السيد هناك في الحقل!

- ألا يوجد أحد في البيت ليفتح لي الباب؟

- ليس هناك غير سيدتي، وهي لن تفتح لك!

- لماذا؟ ألا يمكن أن تخبرها من أكون يا جوزيف؟

- محال أن أفعل ذلك.. ولا شأن لي بهذا الموضوع.

.. ثم اختفى الكهل العابس من أمامي.

وبدأ الثلج يتساقط بعنف وغزارة. وحاولت مرة أخرى أن أعالج الباب، وفي تلك اللحظة ظهر في الفناء رجل في مقتبل العمر، وقد أشار إلى أن أتبعه.

وبعد أن درنا حول البيت، وصلنا أخيراً إلى القاعة الفسيحة الدافئة التي استقبلت فيها أثناء زيارتي السابقة. وكان وهج النار يشع من المدفأة. وشد ما سررت عندما لمحت إلى جوار المائدة –التي كانت معدة لعشاء دسم- تلك السيدة التي لم يخطر ببالي من قبل أن تكون موجودة في هذا المكان. وقد انحنيت أمامها محييًا، وانتظرت أن تدعوني للجلوس، ولكنها نظرت إلي وهي صامتة ساكنة. وأردت أن أقطع هذا الصمت، فقلت:

- الجو فظيع يا مسز هيثكليف!

ولكنها لم تفتح فمها بكلمة واحدة، وإن كانت قد ظلت تحملق فيّ بنظرات باردة خالية من الاكتراث أو الاهتمام، حتى لقد شعرت بالضيق والحرج. وهنا قال الشاب:

- اجلس.. إنه سيحضر بعد قليل.

فاستجبت لدعوته. واقتربت بمقعدي من النار، وعدت أكرر التعليق على سوء الأحوال الجوية في تلك الأمسية. فقالت:

- ما كان ينبغي أن تغادر بيتك!...

ثم نهضت وسارت إلى رف المدفأة، وتناولت من فوقه علبتين صغيرتين من المعدن. كانت نحيلة القوام، لا يكاد يبدو أنها قد جاوزت مرحلة المراهقة وهي ذات وجه فتان، لعله أجمل وجه وقع عليه بصري. أما عيناها، فهما ساحرتان.. وسحرها لا يقاوم فيما لو لانت نظراتهما.. وكان التغيير الوحيد الذي لمحته فيهما مزيجًا من الاحتقار واليأس!.. ولقد كانت العلب بعيدة إلى حد ما عن تناول يدها. وعندما بدرت مني حركة تدل على رغبتي في معاونتها، استدارت نحوي في وحشية وهي تقول:

- لست في حاجة إلى معونتك.. ففي مقدوري أن أصل إليها بنفسي! فأسرعت قائلاً لها: أرجو المعذرة.

ثم أمسكت بملعقة مليئة بأوراق الشاي كانت تهم بوضعها في الإبريق، عندما توقفت لتسألني.

- هل دعيت لتناول الشاي؟

فقلت لها: يسعدني أن أتناول قدحًا منه.

فعادت تسأل: ولكن.. هل دعيت؟

وأجبت وأنا أحاول الابتسام: كلا.. فأنت الشخص الذي من حقه أن يدعوني!

وعندئذ ألقت بالشاي والمعلقة في العلبة ثانية، وعادت إلى مقعدها، وقد اختجلت شفتها السفلى كأنها طفل على وشك البكاء!

وفي نفس الوقت، أخذ الشاب يحدجني بنظرات غريبة كأن بيننا ثأرًا قديمًا. وأخذت أتساءل فيما بيني وبين نفسي.. هل هذا الشاب من خدم الدار، أو أنه من أقاربها؟ لقد كان ثوبه وحديثه يعبران عن جفاف الحياة، كما أن مظهره كان خاليًا من مظاهر الفخامة والعظمة التي تبدو على مستر ومسز هيثكليف. وكانت يداه سمراوين خشنتين أشبه بأيدي الأجراء. ومع ذلك فقد كان سلوكه يتسم بطابع الحرية والانطلاق. إن لم يكن معبرًا عن الشموخ والكبرياء، فقد كان لا ينم عن أي درجة من الاحترام الذي يبديه الخدم نحو سيدة البيت وبعد خمس دقائق أقبل مستر هيثكليف، فقلت له:

- لقد حضرت يا سيدي وفاء بوعدي.. وأخشى أن يرغمني الجو على البقاء هنا مدة نصف ساعة. فأرجو أن تتكرم باستضافتي هذه الفترة.

فأجاب وهو ينفض الثلج عن ثيابه:

- نصف ساعة؟ أنني في دهشة أن تفكر في العودة إلى بيتك في ذروة العاصفة الثلجية!.. هل تعلم أنك تعرض نفسك للضياع وسط المستنقعات؟.. أن أهل المنطقة الذين ألفوا هذه البراري، كثيرًا ما يضلون الطريق في مثل هذه الليلة، وفي وسعي أن أؤكد لك أن الجو لن يتغير في وقت قريب.

وفي تلك اللحظة، رفع الشاب نظراته الضاربة عني ليسأل السيدة الشابة: ألا ترغبين في إعداد الشاي؟

فالتفت إلى هيثكليف لتسأله عن قائلة:

- هل سيتناول «هو» الشاي؟

وهنا صاح بها «هيثكليف» بلهجة أفزعتني:

- أعديه بسرعة!..

كانت لهجته تنم عن طباع حادة. وقد صاح بي أنا الآخر قائلاً:

- والآن.. أدنو بمقعدك!

واقتربنا جميعاً بمقاعدنا من المائدة، بما في ذلك الشاب الفظ. وأخذنا نتناول الطعام وقد خيم علينا صمت كئيب. وخيل إليّ أن من واجبي أن أبدد تلك السحابة القاتمة التي ظننت أنني مسئول عنها، فليس من المعقول أنهم يجلسون كل يوم على تلك الحال من العبوس والصمت الرهيب.. فقلت:

- ما أغرب تأثير العادات على أذواقنا وأفكارنا.. إن الكثيرين لا يتصورون مكان وجود السعادة في حياة بعيدة عن العالم مثل تلك الحياة التي نعيشها يا مستر هيثكليف.. ومع ذلك فإنني أعتقد أنك تعيش في سعادة تامة وقد أحاطت بك أسرتك، وإلى جانبك زوجتك الحبيبة كالملاك الحارس على بيتك وقلبك..

فقاطعني وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة شيطانية ساخرة، ليقول:

- زوجتي الحبيبة؟ أين هي.. زوجتي الحبيبة؟

- أعني مسز هيثكليف... زوجتك!

- حسن.. نعم.. آن!.. لعلك تعني أن روحها تحمي مصائر «مرتفعات وذرنج».. حتى بعد أن فني جسمها.. هل هذا هو ما تعنيه؟

وأدركت أنني قد ارتكبت خطأ جسيماً، فحاولت إصلاحه.. وقد كان ينبغي على أن أدرك ذلك الفارق الكبير في العمر بينهما، بما لا يجعلهما خليقين بأن يكونا زوجين.. فقد كان هو في نحو الأربعين، بينما كانت هي تبدو في السابعة عشرة!

وعندئذ ومض خاطر في ذهني، فقلت لنفسي: لعل زوجها هو هذا الزميل الذي يجلس عند مرفقي، ويشرب نصيبه من الشاي، ويأكل خبزه دون أن يغسل يديه. أن «هيثكليف» الصغير بلا شك. وتلك عاقبة من تدفن نفسها

حية، فقد ألقت بنفسها بين يديه.. لمجرد أنها تجهل وجود أشخاص يفضلونه كثيراً.. يا رحمة السماء!

وأثناء ذلك، كان «هيثكليف» قد استطرد قائلاً:

- أن مسز هيثكليف هي زوج ابني.

قال ذلك وهو ينظر إليها.. ورأيت في نظرته كل معاني الحقد والكراهية.

وهنا أدركت أن الشاب هو ابنه. فالتفت إليه قائلاً:

- آه.. طبعاً! لقد فهمت الآن.. إنك المالك المحظوظ لهذه الحورية الفاتنة.

ويبدو أن هذه السقطة كانت أسوأ من سابقتها.. فقد رأيت وجه الشاب محتقناً، وقبضته مضمومة كأنه يهم بالانقضاض على. ولكنه لم يلبث أن كظم غيظه واستعاد سيطرته على انفعالاته. بينما قال مضيفي:

- لقد خانك التوفيق في ظنونك!.. فإن أحداً منا لم يكن له حظ امتلاك هذه الحورية. لقد مات زوجها.. وقد قلت لك مسبقاً أنها زوج ابني.. وهذا يعني أنها قد تزوجت من ابني..

- وهذا الشاب؟

- قطعاً.. ليس ابني!..

وزمجر الشاب قائلاً:

- اسمي «هيرتون ايرنشو». وأنصحك.. أن تحترمه!

وبدأت أوقن أن هذا المكان يضيق بي في محيط هذه العائلة. ولما كنا قد فرغنا من تناول الطعام، دون أن ينبس أحد ببنت شفة في أي حديث من تلك الأحاديث التي يتبادلها الناس عادة في مثل هذه الاجتماعات، فقد اقتربت من النافذة لأقف على حالة الجو. ولكن ما أسوأ ما رأيت.. كان الليل قد أرخى سدوله قبل الأوان، واختلطت معالم السماء والتلال في دوامة واحدة من الرياح والثلوج. وإزاء ذلك، لم أتمالك أن هتفت: لا أظن أنني أستطيع

العودة إلى منزلي الآن دون وجود دليل.. فقد اختفت معالم الطريق تحت الثلوج.

وقال هيكليف للشاب: هيرتون.. عليك أن تسوق الاثنتي عشرة شاه إلى مخزن الغلال.

فاستطردت قائلًا وقد زاد انفعالي: ماذا أفعل الآن؟

ولكن أحدًا لم يجب على سؤالي. وعندما تلفت حولي، وجدت الغرفة خالية، ولم يكن هناك غير مسز هيكليف، فقلت لها في لهفة:

- أرجو أن تغفري لي إزعاجك يا مسز هيثكليف.. إنني على يقين من أن لك قلبًا طيبًا في مثل روعة وجهك الملائكي.. فأرجو أن ترشديني إلى معالم الطريق التي تمكنني من الوصول إلى بيتي!.. إنني ليست لدي فكرة عن الطريق الآن، تمامًا كفكرتك عن طريق الوصول إلى لندن.

فأجابت: أسلك الطريق الذي أتيت منه.. هذه نصيحة موجزة، ولكنها النصيحة الوحيدة المجدية التي يمكن أن أسديها إليك.

- وإذا سمعت أنني قد وجدت ميتًا في بركة ماء أو حفرة من الجليد، ألا يعتب عليك ضميرك باعتبارك مسئولة عما حدث إلى حد ما؟

- وكيف يكون ذلك؟ أنه ليس في وسعي أن أصحبك بنفسي.. وهم لن يسمحوا لي بالخروج حتى نهاية سور الحديقة..

وصحت قائلاً؟ أنت أ.. إنني لم أطلب إليك أن تغادري عتبة هذه الغرفة، وإنما أردت فقط أن تصفي لي الطريق لا أن ترشديني إليه.. أو على الأقل أن تقنعي مستر هيثكليف بأن يرسل معي دليلاً.

- ومن عساه أن يكون هذا الدليل؟ ليس هنا غيره وغير ايرنشو، أم أنك تريده «زيلا» أو «جوزيف» أو أنا ؟ أينا تريد أن يكون الدليل؟

- ألا يوجد غلمان في المزرعة؟

- كلا.. فهذه هي كل مجموعتنا.

- إذن، فإنني مضطر إلى البقاء هنا.

- هذا موضوع يمكن أن نتفق عليه مع مضيفك.. أما أنا فلا شأن لي به.

وعندئذ تناهى إلى هيثكليف من المطبخ وهو يصيح قائلاً: عسى أن يكون هذا عبرة لك، فلا تقدم على مثل تلك الرحلات الطائشة بين هذه التلال.. وأما فيما يتعلق ببقائك هنا الليلة، فليس لدي معدات لأيواء الضيوف، ولذلك يتعين عليك أن تشارك «هيرتون» أو «جوزيف» فراشه.

- يمكنني أن أنام على مقعد في هذه الغرفة.

فأجابني بفظاظة: كلا.. كلا.. فالغريب غريب سواء كان غنيًا أم فقيراً. ولا يليق بي أن أبيح لغريب الإقامة في مسكني عندما أكون غافلاً عنه!

ونفذ صبري لهذه الاهانة، فنحيته عن طريقي مندفعًا في اتجاه الفناء، وكان إن اصطدمت بايرنشو حيث كان الظلام حالكًا، ولم أتبين طريق الخروج.

وبينما كنت أتخبط في الظلام، سمعت الشاب يقول:

- سأذهب معه حتى المنتزه.

فصاح هيثكليف: ستذهب معه إلى الجحيم.. ولكن من الذي سوف يعني بالجياد؟

وغمغمت مسز هيثكليف في رقة كانت أكثر مما أتوقع:

- إن حياة رجل أعظم شأنًا من إهمال الجياد ليلة واحدة.. ولابد أن يذهب معه أي شخص.

فصاح هيرتون: أنني لست رهن أمرك!

فأجابته في حدة: إذن أرجو أن يؤرق شبحه لياليك، كما أرجو ألا يجد مستر هيثكليف مستأجراً آخر حتى تصبح «الجرانج» خراباً..

وعندئذ غمغم جوزيف قائلاً: اسمعوا.. اسمعوا.. إنها تصب اللعنات عليهم.

وكان في هذا الوقت جالسًا يحلب الإبقار على ضوء فانوس إلى جواره فاختطفت الفانوس واندفعت نحو الباب، وأنا أهتف بهم أنني سوف أعيده في

الغد، ولكن الرجل العجوز انطلق صائحاً: سيدي.. سيدي.. لقد سرق الفانوس.. هيا «جناشي» هيا «وولف» امسكا به.

وفي مثل لمح البرق، كان الوحشان اللذان يتميزان بشعر كثيف قد انقضا على عنقي، وألقيا بي أرضاً فانطفأ المصباح.. وانفجر «هيثكليف» و «هيرتون» ضاحكين معاً، مما أثار في نفسي مشاعر الغضب والهوان، واضطررت أن أظل راقداً في مكاني، وأنا أنتفض غيظاً وحنقاً حتى أحالوا بين الكلاب وبيني.. واستبد بي الانفعال حتى سال الدم غزيراً من أنفي. وكنت منطلقاً في تأنيبهم بينما استمر هيثكليف في الضحك. ولست أدري كيف كان يمكن أن ينتهي هذا المشهد، لولا تدخل «زيللا» مديرة المنزل.

لقد صاحت قائلة: حسن يا مستر آيرنشو.. هل تريد ارتكاب جريمة على عتبة بيتنا؟.. أنظر إلى الفتى المسكين.. أنه يوشك أن يصاب بالاختناق.. ادخل حتى أضمد لك جراحك.

وجذبتني إلى المطبخ، وهي تردد العبارة الأخيرة. وكان قد بلغ بي التعب والإنهاك أقصى الدرجات، فاضطررت إلى قبول البقاء تحت سقف بيت مستر «هيثكليف» الذي أمر «زيللا» بأن تقدم لي كأساً من البراندي، ثم ما لبث أن اختفى في الحجرات الداخلية، ولبت هي أوامر سيدها، ثم ساعدتني في الوصول إلى الفراش.

- 3 -

كانت «زيللا» تتقدمني وهي تصعد الدرج، وقد أوصتني بأن أخفي ضوء الشمعة وألا أحدث صوتًا، لأن سيدها له رأي غريب في الغرفة التي سوف أنزل فيها، وهو لذلك لا يدع إنسانًا يقطنها. ولما سألتها عن هذا السبب، قالت إنها لا تعرفه، وإنها قد عاشت في هذا البيت عامًا أو عامين، رأت خلالهما أعمالاً غريبة متتابعة، فلم تستطع ملاحقتها إلا بدافع حب الاستطلاع.

وأغلقت الباب خلفي، ثم أخذت أتلفت حولي بحثًا عن الفراش، وكان أثاث الغرفة مكونًا من مقعد، وصوان للملابس، وخزانة كبيرة من خشب البلوط، في أعلاها مربعات أشبه بنوافذ العربات. وقد اقتربت من هذه الخزانة، وألقيت نظرة على ما في داخلها، فوجدت نوعًا فريدًا من المضاجع العتيقة.. كان في الحقيقة مخدعًا صغيرًا، بينما كانت حافة النافذة الملاصقة له تصلح كمنضدة. ودفعت مزلاج الباب، ثم دخلت إلى تلك المقصورة على الشمعة المضيئة. وعندما أغلقت باب الخزانة خلفي، شعرت بالطمأنينة بعد أن أصبحت بعيدًا عن رقابة «هيثكليف» أو أي إنسان آخر!

وعلى أحد أركان النافذة، حيث وضعت الشمعة، رأيت مجموعة من الكتب القديمة البالية. وكانت هناك كتابات محفورة على طلاء منافذه، وكانت عبارة عن اسم واحد يتكرر نقشه بمختلف الحروف الكبيرة والصغيرة. وهذا الاسم هو «كاترين ايرنشو» في بعض المواضع، وفي مواضع أخرى يتغير إلى «كاترين هيثكليف» أو «كاترين لينتون».

أما الكتب، فكان بينها نسخة من الإنجيل عليها هذه العبارة: هذا كتاب «كاترين إيرنشو».. ثم تاريخ يعود إلى ربع قرن مضى وطويت الكتاب، ثم تناولت الكتب الأخرى واحدًا بعد الآخر حتى فحصتها جميعًا. وقد تبينت أن «كاترين» كانت تجيد استعمال كتبها، وأن هذا الاستعمال لم يكن مقصورًا على القراءة وحدها، ولكنها استغلت كل فراغ تركته المطبعة في تسجيل ما يشبه مذكرات يومية منتظمة. وقد سررت عندما رأيت في أعلى إحدى

الصفحات رسماً كاريكاتورياً لصاحبنا «جوزف» الخادم العجوز ذي الوجه الكريه. وشعرت باهتمام بالغ نحو «كاترين المجهولة»، ودفعني ذلك إلى محاولة فك رموز خطتها الهيروغليفي الباهت. وكانت الفقرة تبدأ هكذا:

«يا له من يوم أحد فظيع! ولكني أتمنى أن يعود أبي ثانية! إن «هندلي» ينوب عنه بصورة بغيضة. فإن معاملته لهيثكليف رهيبة. ولذلك قررت أنا وهيثكليف أن نعلن التمرد والعصيان. واتخذنا الخطوة الأولى لتنفيذ القرار هذا المساء.

كان المطر ينهمر غزيراً طوال النهار، ولذلك لم نستطع التوجه إلى الكنيسة، وكان لابد لجوزيف أن يجمعنا –أنا وهيثكليف- في الطابق العلوي للصلاة التي استغرقت ثلاث ساعات ونحن نئن ونرتجف من البرد هذا، بينماكان «هندلي» وزوجته يستمتعان بالجلوس أمام نار المدفأة في الطابق الأسفل.. وكنا قد اعتدنا أن نقضي أمسيات الآحاد في اللعب، على شريط ألا نحدث جلبة أو ضوضاء.. أما الآن..

ويقول أخي: هل نسيتما أن لكما سيداً.. سأعاقب أول شخص يخرجني عن طوري.. إنني مصمم على الهدوء الشامل والسكون التام.

وقد دبرنا لأنفسنا جلسة مريحة في ركن قصي.. وعندئذ أقبل «جوزيف» علينا قائلاً: أن السيد لم تجف دماؤه في قبره بعد، ولم ينقض يوم الأحد، ومع ذلك تجسران على اللعب!.. العار لكما.. اجلسا في سكون أيها الطفلان الفاسدان. أن لديكما كتب طيبة للقراءة هنا.. اجلسا، وفكرا في إصلاح روحيكما الشريرتين!

ولم أستطع أن احتمل الكتاب الذي قدمه إليّ، فطوحت به إلى الركن، مقسمة إنني أمقت الكتب الطيبة. أما «هيثكليف» فقد ألقى بكتابه في نفس المكان، ولكن بركلة من قدمه. وكانت هذه هي الطامة الكبرى، فقد صاح: مستر هندلي.. تعالى هنا حالاً.

وقفز «هندلي» من فردوسه إلى جانب المدفأة، وأمسك بأحدنا من قفاه والآخر من ذراعه، ثم ألقى بناف ي المطبخ الخلفي. وقطعت نحو عشرين دقيقة في الكتابة في هذا الكتاب.. أما رفيقي فقد نفد صبره، واقترح أن نهرب

إلى البراري.. إنه اقتراح لطيف، إذ أننا لن نشعر بمزيد من البرد تحت المطر أكثر مما نحن عليه هنا.

.. وأحسب أن «كاترين» قد نفذت مشروعها، ذلك أن العبارة التي تلت ذلك طرقت موضوعاً آخر..

لم أكن أتخيل أن هندلي سوف يجعلني أبكي بمثل هذه الحرقة يوماً. إنني أشعر بألم شديد في رأسي حتى أنني لا أستطيع أن أضعه فوق الوسادة يا هيثكليف المسكين! أن هندلي يصفه بالمتشرد، ويأبى عليه أن يجلس أو يأكل معنا. ويقول أيضاً أنه لا يحب أن نلعبا معاً. وهو ينذر بطرده إذا عصينا أوامره. بل أكثر من ذلك أنه تجاسر على توجيه اللوم إلى والدنا (كيف يجرو على ذلك؟) لأنه أحسن معاملة «هيثكليف» ثم أقسم أن يعيده إلى الوضع اللائق به.

ويبدو أن النعاس بدأ يداعب جفني، فقد حومت فوق صفحة الكتاب الممتعة، وبدأت الأحلام تداعبني. حتى قبل أن استغرق في النوم.. وكانت الأحلام تثير الرعب والفزع. وكانت مدوية صاخبة، بحيث أدت في النهاية إلى استيقاظي.. وماذا كان ذلك الشيء الذي أوحى بهذه الضجة الهائلة؟ إنه لم يكن إلا غصن شجرة كان يرتطم بالنافذة كلما هبت الريح، فترتطم الثمار الجافة بزجاج النافذة. وقد رحت أصغي لحظة، وأنا بين الشك واليقين، حتى وقفت على سبب إزعاجي، فاستدرت في الفراش، وأغفيت من جديد. ولم ألبث أن بدأت أحلم من جديد، ولكنه كان حلماً أكثر سوءاً من سابقه..

في هذه المرة رأيتني أرقد في خزانة البلوط، واسمع في وضوح زفيف الرياح، وهطول الأمطار، وكذلك غصن الشجرة وهو يكرر لطماته لزجاج النافذة. وكان ذلك سبباً في ثورتي إلى درجة أنني صممت على إسكاته ما وسعني إلى ذلك سبيلاً. ويخيل إلي أنني نهضت من فراشي، وحاولت رفع مزلاج النافذة، ولكنني وجدته محكماً. وغمغمت قائلاً: لابد من إسكاته.. ودفعت النافذة بقبضة يدي دفعة قوية اخترقت الزجاج. ومددت ذراعي إلى الخارج لأمسك الغصن، فإذا بأصابعي تطبق بدلاً من الغصن على أصابع يد رقيقة باردة كالثلج. وأصابني هذا الكابوس بفزع رهيب، وحاولت جهدي أن

أجذب ذراعي إلى الداخل ولكن اليد تعلقت بي. ثم إذا بصوت يمتزج فيه فيض الحزن والأنين يقول: دعني أدخل.. دعني أدخل!

وسألت وأنا أناضل لخلاص يدي: من أنت؟

فأجاب ذلك الصوت بنبرات متهدجة: كاترين لينتون..

[ولست أدري لماذا فكرت في اسم «لينتون»، مع أنني قرأت اسم «إيرنشو» أكثر من «لينتون» عشرين مرة].

واستطرد الصوت الحزين قائلا: ها أنذا أعود إلى منزلي.. بعد أن كنت قد ضللت طريقي بين البراري.

وبينما كان الصوت ينطق بذلك، تبينت وجه طفلة صغيرة، غير واضح المعالم تماماً، يطل من خلال النافذة. وزودني الفزع المروع بقسوة رهيبة، ذلك إنني عندما وجدت أن محاولاتي لدفع ذلك المخلوق الفظيع بعيداً عني، غير مجدية.. جذبت معصمه نحو حافة الزجاج المحطم، ورحت أضغط عليه ذهاباً وجيئة حتى انبثق الدم منه وتدفق على الفراش ومع ذلك فقد كان لا يزال ينوح قائلاً: «دعني أدخل».. وقبضته متشبثة بأصابعي وكاد الفزع يودي بي إلى الجنون، وأخيراً قلت: وكيف استطيع؟ خل عني أولاً إذا شئت أن أدعك تدخل!.. وعندئذ تراخت الأصابع، فأسرعت بسحب يدي إلى الداخل من خلال الثغرة. وأخذت أكوام الكتب أمامها، ثم سددت أذني حتى لا تطرق سمعي تلك التوسلات الجريحة. وخيل إليّ إنني مكثت على هذه الحال زهاء ربع ساعة ومع ذلك ففي اللحظة التي رحت أصغي فيها ثانية، وجدت صيحات الأنين والألم تتردد من جديد، فصحت قائلاً: اذهبي لحالك.. إنني لن أسمح لك بالدخول قط، ولو ظللت تتوسلين إليّ عشرين عاماً.

فقال الصوت الحزين: إنها عشرون عاماً! عشرون عاماً.. لقد لبثت ضالة شريدة عشرين عاماً.

وفي نفس الوقت، بدأت أسمع صوت احتكاك خافت في الخارج. وأخذت كومة الكتب تترنح كأن يداً تدفعها. وهممت بأن أقفز من فراشي، ولكني عجزت أن أحرك ساكناً، فأطلقت صرخة فزع عالية.. واستيقظت. وسمعت صوت خطوات سريعة تقترب من باب الحجرة، وشخصاً يدفع الباب ليفتحه،

ثم رأيت بصيصاً من الضوء يلوح من خلال الكوات المربعة التي تعلو فراشي. وسمعت غمغمة الطارق الذي قاب بصوت يشبه الهمس وكأنه يتوقع جواباً من أحد: هل من أحد هنا؟

ووجدت أنه من الخير أن اعترف بوجودي، فقد عرفت صوت «هيثكليف»، ولذلك أسرعت بفتح باب الخزانة. ولن أنسى ذلك الأثر الذي أحدثته هذه الحركة!

كان «هيثكليف» يقف قريباً من مدخل الخزانة، وهو يحمل في يده شمعة تتساقط قطراتها الذائبة على أصابعه. وقد أبيض وجهه حتى ماثل لون الجدار من خلفه. ولا شك أن صرير الخشب قد أفزعه فبدأ كمن أصيب بصدمة كهربائية، وطارت الشمعة من يده بضعة أقدام. وبلغ من اضطرابه أنه لم يفكر في التقاطها!

وهتفت معتذراً: لست سوى ضيفك يا سيدي.. ومن سوء حظي انني صرخت أثناء نومي بتأثير كابوس مزعج.. وإنني آسف إذا كنت قد سببت لك إزعاجاً.

ووضع مضيفي الشمعة فوق أحد المقاعد، بعد أن اكتشف استحالة حملها في يده ثانية، ثم أخذ يقول: قاتلك الله يا مستر لو كوود. ولكني من الذي أرشد إلى هذه الغرفة؟ لابد من طردهم جميعاً من البيت.

فأجابت: إنها خادمتك زيللا.. وفي ظني أنها أرادت –على حسابي- إن تحصل على دليل جديد يؤكد أن الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة. حسن.. إنها خلية حافلة بالأشباح والعفاريت. وأؤكد لك إنك أحسنت صنعاً بإغلاقها.

فسأل هيثكليف: ماذا تعني؟

فاستطردت قائلاً: لو أن الشيطانة الصغيرة استطاعت الدخول من النافذة، لقتلتني على الأرجح، فلا ريب أنها روح شريرة.. لقد أخبرتني أنها ظلت تذرع هذه الأرض طوال عشرين عاماً. لعمري أنه عقاب على خطاياها، ما في ذلك ريب.

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى تذكرت اقتران اسم «هيثكليف» باسم «كاترين» في ذلك الكتاب، وأحسست بالخجل لقلة تبصري.. ولكنني أسرعت متابعاً القول: الحقيقة يا سيدي إنني أمضيت الشطر الأول من الليل في هجاء الاسم المنقوش على حافة النافذة.. كوسيلة لجلب النعاس إلى جفني.. مثل عد الأرقام.. أو ..

فقاطعني هيثكليف بصوت كقصف الرعد، وقد تملكته صورة الغضب، قائلاً: كيف.. كيف تجرؤ على مخاطبي على هذا النحو، تحت سقف بيتي؟ يا إلهي، لابد أنه مجنون أن ينطق بذلك.

وراح يقرع جبينه في غضب، وإن كان يبدو أنه قد تأثر تأثراً عميقاً، بحيث أشفقت عليه، وأعلنت بأنني لم أسمع اسم «كاترين لينتون» من قبل.. ولكن قراءتي الكثيرة له، جعلتني أحلم به..

واستطردت قائلاً: سوف أتمشى في الفناء إلى أن يبزغ النهار، ثم أنصرف لشأني.. ولا حاجة بك أن تخشى من تكرار تكفلي عليك بالزيارة.

فغمغم هيثكليف: خذ الشمعة واذهب إلى حيث تشاء.. وسوف ألحق بك بعد قليل.. ولكن عليك أن تتجنب الفناء لأن الكلاب مطلقة السراح هناك..

وأطعته.. لمجرد رغبتي في مغادرة هذه الغرفة. ولما كنت أجهل إلى أين تفضي بي تلك الممرات الضيقة، فقد وقفت حائراً وكان إن شهدت –عن غير قصد- منظراً خرافياً من جانب مضيفي، يتناقض على نحو عجيب على ما يبدو عليه من رجاحة عقل.. لقد رأيته يتجه إلى الفراش، وينتزع رتاج النافذة ويفتحها على مصراعيها، ثم ينفجر في بكاء متصل كأنه فقد السيطرة على مشاعره، ويقول في نبرات أشبه بالعويل: ادخلي! ادخلي.. تعالي يا كاتي.. آه.. تعالي مرة أخرى! آه يا حبيبة القلب.. اسمعيني هذه المرة يا كاترين. إنها المرة الأخيرة!

ولكن الشبح لم تبدو منه أية بادرة تنم عن وجوده.. وكان الثلج والرياح يقتحمان الغرفة في عنف، فانطفأ لهب شمعتي. وكان حزنه مشوباً باللوعة والأسى، وكان ذلك واضحاً في هذيانه، فأشفقت عليه. وبادرت بالانسحاب وقد استبد بي الغضب على نفسي. لأنني قصصت عليه قصة ذلك الكابوس،

وهو ما تسبب في هيجان أحزانه التي لم أكن أدركها. وهبطت الدرج على حذر حتى وصلت إلى المطبخ، فوجدت كنبتين من الخشب بالقرب من الموقد. فاستلقيت على إحداهما إلى أن سمعت أصواتًا آتية من وراء الباب الداخلي. ووجدت أن هذا الباب يفضي إلى البيت، حيث كانت زيللا تذكي النار، بينما كانت مسز هيثكليف تقرأ كتابًا على وهج النار. ولدهشتي رأيت هيثكليف هناك أيضًا. كان واقفًا وظهره إلى ناحيتي. وهو يختتم مشهدًا عاصفًا مع زيللا المسكينة. وفي اللحظة التي طرقت فيها باب القاعة، كان قد اتجه إلى زوج ابنه، وانفجر قائلاً: وأنت أيتها الحقيرة.. ها أنت تعودين إلي كسلك ثانية.. إن الآخرين يخدمونني نظير لقمتهم، أما أنت فإنك تعيشين على صدقاتي وإحساني.. دعي ذلك الهراء الذي في يدك، وابحثي عن شيء مفيد تقومين به.

وعندئذ أجابت الشابة وهي تغلق الكتاب: سألقي هذا الهراء من يدي، لأنك تستطيع أن ترغمني على ذلك فيما لو رفضت.. ولكني لن أفعل إلا ما يروق لي، مهما أطلقت لسانك بالسباب واللعنات.

ورفع «هيثكليف» يده، فتراجعت السيدة مسافة تأمن فيها تلك اليد التي ذاقت قسوتها من قبل. ولما كنت أكره مواقف الشجار، فقد وجدت نفسي بغتة أتقدم كأنني أرغب في الاستمتاع بدفء النار. وكان أن شعرًا بالحرج، ودس هثكليف قبضتيه في جيوبه حتى يكون بمنجاة من إرغاء استخدامها، أما مسز هيثكليف فقد مطت شفتيها، واتجهت إلى مقعد بعيد، بارّة بوعدها ألا تفعل شيئًا، وجلست ساكنة كالتمثال خلال الفترة التي قضيتها بينهما ولم تكن فترة طويلة، فقد اعتذرت عن مشاركتهم طعام الإفطار، وانتهزت فرصة بزوغ أول شعاع من أشعة الفجر لأفرّ إلى الخلاء، حيث وجدت الهواء هادئًا، ساكنًا، وإن كان شديد البرودة كالثلج.

وقبل أن أبلغ نهاية الحديقة، ناشدني مضيفي الوقوف، ثم عرض علي أن يرافقني إلى أن اجتاز المستنقعات. وخير فعل، فإن البقاع كلها كانت عبارة عن رقعة ممتدة من الثلج الأبيض، وكان من الصعب أن أتبين الطريق. وقد تبادلنا حديثًا قصيرًا إلى أن وقف عند مدخل (تراشكردس) قائلاً: إنني لن أكون عرضة لضلال الطريق بعد ذلك. وكانت المسافة بين البوابة

والجرانج لا تتجاوز الميلين، ولكنني أعتقد أنني جعلتها أربعة أميال بسبب فقدان طريقي بين الأشجار، والغوص حتى عنقي في حفائر الثلج..

وما كدت أصل، حتى اندفعت (مسز دين) مديرة المنزل وأعوانها للترحيب بي، بعد أن ظنوا إنني قد هلكت في الليلة الماضية.

وكانت البرودة تسري في أوصالي حتى شغاف قلبي. وقد حملت نفسي حملاً إلى الدور العلوي حيث استبدلت ملابسي بأخرى جافة. وأنا الآن أجلس إلى مكتبي لأخط هذه السطور.. وقد خارت قواي كأنني هوة صغيرة، فلم أشعر بمتعة النار المتأججة في المدفأة. أو بالقهوة الساخنة التي أعدتها إلى الخدمة.

- 4 -

انتهزت فرصة قدوم «مسز دين» حاملة طعام العشاء، وطلبت إليها أن تجلس معي ريثما أتناول الطعام. وكلي أمل في أن يثير حديثهما الانتعاش في نفسي أو أنه يجذب النعاس إلى جفني. وسألتها:

- كم عدد الأعوام التي قضيتها هنا؟

ثمانية عشر عامًا يا سيدي. فقد حضرت عندما تزوجت سيدتي لأقوم على خدمتها. فلما قضت نحبها، احتفظ بي السيد لأكون مديرة للدار.. ولكن الظروف تغيرت إلى حد بعيد منذ ذلك الحين.

وقلت في نفسي.. سوف أوجه دفة الحديث حول أسرة المالك، فهو موضوع يمكن أن نبدأ به.. كذلك فإنني أود أن أعرف شيئًا عن تاريخ تلك الأرملة الحسناء.

ومن هذا المنطلق، سألت مسز دين.. لماذا أجر هيثكليف «تراشكروس جرانج»، وفضل الإقامة في مسكن أكثر تواضعًا منه. واستطردت متسائلاً: أم أنه ليس من الثراء بدرجة تتيح له الاحتفاظ بالقصر في مستوى رفيع؟

فقالت: الثراء يا سيدي. إنه من الثراء بحيث يستطيع الإقامة في قصر أفخم من هذا بكثير. ولكنه بخيل. ولو فكر في الانتقال مرة إلى تراشكروس جرانج، فإنه لن يتردد في التخلي عنه إذا ما سمع عن مستأجر طيب يمنحه بضع مئات أخرى.. إنني في عجب من أمر هؤلاء الناس الذين يستبد بهم الجشع، وبخاصة إذا كانوا وحيدين في هذه الدنيا.

- يبدو أنه كان له ولد.

- أجل.. كان له ولد، ومات..

وهذه الشابة.. مسز هيثكليف.. أهي أرملة ذلك الابن؟

- نعم.

- من أين جاءت أصلاً؟

- لماذا يا سيدي؟ إنها ابنة سيدي الراحل، وكان اسمها قبل الزواج كاترين لينتون، وكنت مربيتها وهي صغيرة.. كم أود أن ينتقل مستر هيثكليف إلى هنا، حتى يلتئم شملنا مرة أخرى.

وصحت في دهشة: ماذا تقولين؟ كاترين لينتون؟

ولكن ما كدت أفكر لحظة واحدة، حتى أدركت أن كاترين قد تكون هي الشبح الذي ظهر لي.. فأردفت قائلاً:

- إذن... كان اسم سيدي السابق لينتون؟

- نعم.. لقد كان كذلك.

- ومن هو ايرنشو.. (هيرتون إيرنشو) الذي يعيش مع مستر هيثكليف.. هل هما قريبان؟

- كلا.. إنه ابن شفيق مسز لينتون الراحلة.

- هو إذن ابن خال السيدة الشابة؟

- نعم.. وكان زوجها ابن عمتها أيضاً.. لأن هيثكليف كان قد تزوج من شقيقة مستر لينتون.

- لقد رأيت اسم «ايرنشو» منقوشاً فوق المدخل الرئيسي لمرتفعات وذرنج.. فهل هي أسرة عريقة؟

- عريقة جداً يا سيدي.. و «هيرتون» هو آخر سلالتها، كما أن «مس كاتي» آخر سلالة آل لينتون.. ولكن هل زرت مرتفعات وذرنج؟ إنني في شوق لأن أسمع ما يطمئنني عليها.

- مسز هيثكليف؟ لقد رأيتها في خير صحة.. وذات حسن رائع.. ومع ذلك فإنها في ظني غير سعيدة تماماً.

يا حبيبتي.. ولكن لا غرابة في ذلك. وهل استرحت إلى السيد؟

- إنه شخص خشن يا مسز دين.. أليست هذه هي طبيعته؟

- إنه خشن كجد المنشار، وفي مثل صلابة الصخر.

- لابد أنه تقلب على وجوه الحياة المختلفة حتى أصبح على مثل هذه الدرجة من الفظاظة. هل تعرفين شيئًا عن تاريخ حياته؟

- إنني أعرف كل شيء عنه.. فيما عدا موطن نشأته، ومن يكون والداه، وكيف حصل على المال بادئ ذي بدء.

- حسن يا مسز دين.. هل استطيع أن أعرف شيئًا عن حياة جيراني؟

- بكل سرور يا سيدي! ولكن يبدو إنك قد أصبت ببرد، فقد رأيتك ترتعد، ون الضروري أن تتناول شرابًا ساخنًا لتطرد البرد من جسمك.

وتركتني المرأة.. لتعود وقد حملت الشراب الساخن، وكذلك أدوات الحياكة.. ثم جلست لتتحدث إلي..

بدأت «مسز دين» حديثها قائلة:

«قبل أن أحضر إلى هنا: كنت أقيم بصفة دائمة في مرتفعات وذرنج فقد كانت أمي مربية مستر «هندلي إيرنشو»، وهو والد هيرتون.. وقد اعتدت أن ألعب مع الأطفال، وأن أقوم بقضاء بعض الشؤون المنزلية، وأساعد في أعمال الزراعة.. أيضًا.

وفي صباح يم من أيام الصيف الجميلة، رحل مستر «إيرنشو» الكبير إلى ليفربول، بعد أن وعد «هندلي» بأن يحضر له كمانًا، وسوطًا «لمس كاتي» التي كانت تناهز السادسة من عمرها، ومع ذلك فقد كانت تجيد ركوب أي جواد في الحظيرة.

وكانت مسز إيرنشو تتوقع حضوره في موعد العشاء من مساء ثالث أيام رحيله. ولكل الليل أوغل قبل أن يعود. وتوسل الطفلان لأمهما أن تسمح لهما بانتظار والدهما إلى حين عودته.. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة مساء، دخل السيد، وألقى بنفسه فوق أحد المقاعد، وهو يكاد يقع صريعًا من التعب. ثم فتح معطفه الكبير الذي كان يحتضنه بين ذراعيه، وقال: انظري هنا يا

زوجتي. هذه هدية أرسلها لنا الله. وإن كان منظرها القبيح يوحي بأنها هدية من الشيطان!

والتففنا جميعًا حوله.. ورأينا غلامًا قذرًا، مهلل الثياب، أسود الشعر، وكان في سن تسمح له بالمشي والكلام، ومع ذلك فقد راح يحملق فيما حوله، ويغمغم بألفاظ مبهمة لم يستطع أحد منا أن يفهم منها شيئًا.

وانتابني الذعر. أما «مسز ايرنشو» فقد همت بأن تلقي به خارج البيت، وهي تصيح بزوجها: كيف يخطر ببالك أن تأتي بمثل هذا اللقيط الغجري، في حين أن لدينا طفلين نقوم بإطعامهما؟.. وحاول السيد أن يشرح لها الأمر، فحكي لها قصة هذا الطفل الذي وجده جائعًا مشردًا في شوارع ليفربول، دون أن يعرف أهل المدينة شيئًا عن ذويه.. ولذلك فكر في أن يعود به إلى البيت، بعد أن رأى ألا يتركه حيث وجده.. وفي النهاية لم تجد سيدتي مفردًا من الاستسلام وهي تغمغم بعدم الرضا.. ثم طلب مني مستر ايرنشو أن أغسل بدن الطفل، وألبسه ثيابًا نظيفة، وأدعه ينام مع الطفلين.

وبدأ «هندلي» و «كاتي» في تفتيش جيوب والدهما، بحثًا عن الهدايا التي كان قد وعدهما بها. وكان «هندلي» في الرابعة عشرة. وعندما حاول إخراج الكمان من المعطف الكبير، أصيب بخيبة أمل فقد وجده حطامًا.. وأجهش بصوت مرتفع. أما «كاتي» فقد بصقت على الطفل الغريب عندما علمت أن السيد فقد السوط أثناء عنايته بالطفل. ولذلك رفض الأبنان أن ينام اللقيط معهما في الفراش.. أو حتى في غرفتهما.

وكانت هذه هي بداية عهد دخول هيثكليف في دائرة تلك الأسرة، فقد تم تعميده بعد أيام قليلة بهذا الاسم، وهو اسم ابن مستر ايرنشو مات صغيرًا. وقد أصبح بمثابة اسم ولقب منذ ذلك الحين وبمرور الوقت أصبحت مس كاتي وهيثكليف صديقين حميمين، ولكن هندلي ظل يكرهه. وكان الطفل متجهمًا، صبورًا، وقد زاد من صلابته ما كان يلقاه من معاملة سيئة.. فقد كان لا يذرف دمعة واحدة ولا يطرف له جفن مهما كال له هيندلي من لكمات ولطمات. وكانت هذه المقدرة سببًا في ثورة السيد ايرنشو الكبير، عندما اكتشف اضطهاد ابنه اليتيم المسكين –كما كان يدعوه- والحقيقة أن تعلقه بهيثكليف كان شيئًا يدعو إلى الدهشة والعجب. فقد كان يصدقه في

كل ما يقوله له. وأكثر من ذلك إنه كان يدلله أكثر مما يدلل ابنته كاتي.

وهكذا كان هيثكليف منذ البداية سبباً في إثارة الأحقاد والخلافات في البيت. فبعد وفاة مسز ايرنشو، وكان ذلك بعد أقل من عامين من مقدم هيثكليف، كان هندلي ينظر إلى أبيه على أنه طاغية وليس صديقاً ويرى أن هيثكليف قد اغتصب عواطف أبيه وامتيازاته الشرعية.. وكان ذلك يزيد من شعوره بالمرارة كلما فكر في الأمر.

- 5 -

تدهورت صحة مستر «ايرنشو» بمرور الأيام وفعل الزمن. وبعد أن كان يفيض حيوية ونشاطًا وصحة، أقعده المرض فجأة، وأصبح سريع الغضب والانفعال وبخاصة إذا وجد أن هناك من يحاول التسلط على غلامه الأثير. ودفعه ذلك إلى الاعتقاد بأن الجميع يكرهون هيثكليف لما يتمتع به من حبه وعطفه عليه. وكان عدوان «هندلي» على الغلام على مرأى ومسمع من أبيه، يثير ثائرة العجوز ويفجر براكين غضبه، ولا يجد من وسيلة إلا أن يرفع عصاه ليضرب ابنه، ولكنه لم يكن يدركه فيرتجف غضبًا وغيظًا.

وأخيرًا، نصح القسيس الذي كان يتولى تعليم الصغار من «آل لينتون» وأبناء «ايرنشو» بإرسال هندلي إلى الكلية. وكنت أرجو من أعماقي أن ننعم بالسلام. وهو ما كان ممكنًا لولا وجود شخصيتين هما: مس «كاتي»، و «جوزيف» الخادم. وهو –أي جوزيف- كان وما زال من أشد الناس مغالاة وتزمتًا في الدين، وهو ينقب في الإنجيل ليختص نفسه بما فيه من وعود، ويهيل على جيرانه ما به من لعنات. وقد أهلته براعته في إلقاء المواعظ الدينية لبسط تأثيره ونفوذه على مستر إيرنشو. وكان هذا النفوذ بتزايد بتفاقم حالة سيدة النفسية، وكان يبث في أعماقه فكرة أن «هندلي» شخص ماجن لا يرجى منه خير، ثم أخذ بعد ذلك ينسج بالتدريج سلسلة طويله من الإدعاءات حول «هيثكليف» وكاترين.. وهو في ذلك حريص الحرص كله على أن يلقي باللوم على الفتاة.

وكنا في الحقيقة لا نأمن من عبثها، فقد كانت فياضة الحيوية والحركة منذ الساعة التي تهبط فيها إلى الطابق الأسفل وحتى ذهابها إلى فراشها. وكان لسانها دائب الحركة على الدوام.. فهي تغني، أو تضحك، أو تعابث الآخرين. وكانت مولعة بهيثكليف أشد الولع. ولذلك فقد كان أقسى عقاب أن يوقع عليها هو أن يفرق بينها وبينه.

- 6 -

لفظ مستر ايرنشو أنفاسه الأخيرة في هدوء، فوق مقعده، مساء يوم من أيام شهر أكتوبر..

وقد جاء مستر هندلي لحضور جنازة والده، وكان الشيء الذي أثار دهشتنا هو أنه جاء معه بزوجة. ولم يخبرنا من تكون أو أين ولدت. ولعلها كانت عاطلة عن لقب رفيع يشرفها أو من ثروة تشفع لها، وربما كان هذا هو السبب في أنه أخفى خبر زواجه عن أبيه. وكانت الزوجة نحيلة إلى حد ما، ولكنها كانت شابة يافعة، تتلألأ عيناها كأنهما قطعتان من الماس. غير أنني لاحظت أنها كانت تلهث عند صعود الدرج، وإنها كانت تسعل أحياناً سعالاً حاداً.. ولم أكن أدري شيئاً عما يمكن أن تنذر به هذه الأعراض.

وكان هندلي ايرنشو قد تغير كثيراً خلال السنوات الثلاث التي استغرقتها غيبته. وأصبح يتحدث ويرتدي ثيابه على نحو يختلف عن ذي قبل. وقد حدث في يوم عودته بالتحديد، أن أمرني أنا وجوزيف بأن تقيم في المطبخ الخلفي، لنخلي له البيت. أما زوجته فإنها سرعان ما أصاب الفتور عواطفها نحو كاتي، بعد أن عبرت لها عن الحب في الأيام الأولى لقدومها. وقد أصبحت سريعة الغضب، بما جعل هندلي يتحول إلى طاغية، فقد كانت كلمات قليلة منها توحي بكراهيتها نحو هيثكليف كفيلة بإيقاظ كراهية زوجها القديمة للفتى. وقد انتهى الأمر بأن أقصاه عن صحبتهم ودفع به إلى زمرة الخدم، ثم حرمه من تلقي الدروس من القسيس، وأصر على أن يعمل في الحقل.

وقد واجه هيثكليف كل هذه الإهانات بثبات في بادئ الأمر، حيث كانت كاتي تلقنه كل ما تتعلمه من دروس، وتشاركه العمل أو اللهو في الحقول، وقد بدا للجميع أنهما سوف يشبان معاً كوحشين ضاريين، ولم يكن السيد الشاب يعنيه سلوكهما أو أفعالهما، ما داما بعيدين عن ناظريه. أما هما فقد كانت متعتهما الكبرى أن ينطلقا إلى الأحراش منذ الصباح الباكر، وأن

يقضيا اليوم كله هناك، وأصبح ما يحل بهما من عقاب بعد ذلك مجرد شيء يبعث على الضحك.. وكان في وسع القسيس أن يفرض على «كاتي» ما يشاء من الدروس لكي تحفظها عن ظهر قلب، وكان في وسع جوزيف أن يجلد هيثكليف حتى يدمي قدميه، ولكنهما رغم كل ذلك كانا ينسيان كل شيء، في اللحظة التي يجتمعان فيها معاً..

وقد حدث في مساء يوم من الأيام الأحاد أن أقصي هيثكليف وكاتي عن غرفة الجلوس بسبب ما أحدثاه من ضجيج. وعندما ذهبت لأدعوهما إلى تناول طعام العشاء، لم أقف لهما على أثر. وأخيراً، أمرني هندلي وهو في صورة الغضب إن نغلق الأبواب، مقسماً ألا يدعهما يدخلان البيت في تلك الليلة. وآوى أهل البيت إلى مخادعهم، أما أنا فقد فتحت نافذتي، وقد عزمت على أن أيسر لهما دخول البيت عند عودتهما. وبعد قليل سمعت وقع أقدام على الطريق، فهرعت لكي أمنعهما من طرق الباب حتى لا يستيقظ مستر ايرنشو ولكن راعني أن وجدت مستر هيثكليف واقفاً بمفرده، فصحت به في لهفة:

- أين مس كاترين؟

فأجابني: أنها في «ترشكروس جرانج»، وقد كان من الممكن أن أبقى هناك أيضاً، لولا أنهم لا يتمتعون بكرم الأخلاق الذي كان يتطلب منهم دعوتي للبقاء!

- ما الذي دفعكما إلى التجوال حتى وصلتما ترشكروس جرانج!

فأجابني قائلاً: دعيني أولاً أخلع ملابسي المبللة، وسوف أخبرك بكل شيء يا نللي.

وبينما كان يخلع ملابسه، استطرد قائلاً: لقد تسللت أنا وكاتي لكي نتربص قليلاً. وعندما لمحنا أنوار الجرانج، خطر لنا أن نذهب إلى هناك لكي نرى كيف يقضي صغار آل لينتون أمسيات الأحاد، فهل هم يقضونها مثلنا واقفين في الأركان وهم يرتعدون من البرد، بينما يجلس الأب والأم لتناول الطعام والشراب في جو يشيع بالدفء والغناء والضحك.. هل تظنين أنهما يفعلان ذلك؟ وأن الصغار يتلقون العظات مثلنا على يدي الخادم؟

فأجبته: لا أظن.. لأنهم أطفال مطيعون مهذبون. وهم لا يستحقون تلك المعاملة التي يفرضها سلوككما السيء.

فقال: ما هذا الهراء يا نللي.. لقد عدونا من قمة المرتفعات حتى الحديقة، ثم تسللنا زحفًا من خلال ثغرة في السياح، وسرنا في الممر المرتفع حتى بلغنا نافذة غرفة الصالون. وأصبح في وسعنا أن ننظر داخل الغرفة. آه.. ما أجمل ما رأيناه! لقد رأينا قاعة رائعة حقًا. ولم يكن مستر ومسز لينتون موجودين، وهكذا انفرد ادجار وشقيقته بالاستمتاع بكل هذا الجمال.. أفلا يحق لهما أن يكونا سعيدين؟ إننا لو كنا مكانيهما لحسبنا نفسنا في جنة النعيم. والآن، هل يمكن أن تحدثي ماذا كان الطفلان الطيبان يفعلان؟.. لقد كانت إيزابلا- واعتقد أنها في الحادية عشرة وتصغر كاتي بعام واحد – مستلقية في الطرف القصي من الغرفة وهي تصرخ، بينما كان ادجار يبكي وهو واقف إلى جوار الموقد!.. يا للأحمقين الأبلهين.. أهكذا يلهوان؟ لقد تشاجرا بسبب خصلة شعر انتزعاها من الكلب الصغير، ورفضا اقتسامها فيما بينهما!.. ولم نتمالك نفسينا من الضحك على هذه التصرفات الحمقاء.. وشعرنا نحوهما بالازدراء!

وسمع الصغيران أن ضحكنا، فاندفعا نحو الباب وهما يصيحان: آه ماما.. بابا!. وعندئذ أخذنا أصواتًا مخيفة لنزيد من فزعهما، ثم شعرنا أنه من الخير لنا أن نلوذ بالفرار. وأخذت بيد كاتي، وفجأة زلت قدمها وسقطت على الأرض دفعة واحدة. وإذا بها تهمس قائلة: انجِ بنفسك يا هيثكليف، فقد أطلقوا سراح الكلب، وها هو ذا يمسك بي. وكان الشيطان قد أطبق على كعبي يا نللي، ومع ذلك فإن كاتي لم تصرخ أبدًا. أما أنا فقد صرخت، وتناولت حجرًا ألقمته بين فكي الكلب، وأخيرًا أقبل خادم يحمل مصباحًا وخلصها من بين فكيه، وحمل الخادم كاتي بين ذراعيه بعد أن أغمي عليها من الألم، وسار بها إلى داخل الدار. وأنا من ورائهما أهدر باللعنات وأنذر بالانتقام.. وصاح لينتون من الداخل: ما نوع الفريسة يا روبرت؟.. فأجابه: لقد أمسك الكلب سكلكر بفتاة صغيرة يا سيدي!.. ثم أردف قائلاً وهو يمسك بكتفي: وهذا أيضًا غلام شرير! أمسك لسانك أيها اللص البذيء، وأنت يا سيدي مستر لينتون، لا تدع مسدسك يغيب عنك!

وعندما أصبحت في دائرة الضوء، رفعت مسز لينتون ذراعيها في هلع شديد. وبينما كانوا يفتحصونني، أفاقت كاتي من غشيتها، وعرفها ادجار لينتون، فهم يروننا في الكنيسة كما تعلمين، وما لبث أن همس في أذن والدته قائلاً: هذه مس ايرنشو.. انظري كيف عقرها «سكلكر» وكيف أدمى قدميها؟!

فصاحت مسز لينتون: مسز ايرنشو؟

وهتف مستر لينتون: ولكن، من يكون هذا؟ من أين التقطت هذا الرفيق؟ أوه.. يخيل إلي أنه ذلك اللقيط الغريب الذي أحضره معه جاري الراحل عقب رحلته إلى ليفربول.

وأردفت السيدة العجوز قائلة: على أية حال، إنه غلام شرير.. ولا يليق أن يبقى في بيت محترم!.. هل لاحظت لهجته يا لينتون؟ لقد آلمني أن تتطرق إلى أذني طفلي.

وثار غضبي مرة أخرى عندما سمعت رأيهم فيّ، فأطلقت في وجوههم من جديد قذائف السباب.. لا تغضبي لا نللي.. وعندئذ أمروا الخادم بطردي من البيت، ورفضت الانصراف وحدي دون كاتي، ولكن الخادم دفعني إلى الحديقة، وأعطاني المصباح، ثم أوصد الباب مرة أخرى وكانت الستائر لا تزال منفرجة، فعدت إلى موقعي السابق اختلس النظر من خصاص النافذة، وقد عقدت العزم على تحطيم زجاج النوافذ حتى يطلقوا سراح كاتي.. قررت ذلك إذا تبينت أنها ترغب في العودة إلى البيت، ولكني وجدتها تجلس على الأريكة في هدوء وقد بدت كسيدة صغيرة، ووجدت معاملتهم لها غير معاملتهم لي، فقد أحضرت الخادمة إناء به ماء، وغسلت لها قدميها، ثم راحوا يجففون لها شعرها الجميل ويمشطونه. ثم أجلسوها بجوار المدفأة. وتركتها وهي أشد ما تكون مرحاً، ورأيت جواً من الحيوية في عيون آل لينتون الزرقاء الجوفاء، ينعكس من خلال وجهها الساحر.. كانوا يفيضون إعجاباً ساذجاً، ولا غرو في ذلك فهي أرفع منهم منزلة، بل إنها أرفع من أي إنسان آخر على الأرض.. أليس كذلك يا نيللي؟

وأجبت: أن هذه المسألة سوف يترتب عليها من العواقب أكثر مما نتوقعه!

وصدقت نبوءتي.. أكثر ما كنت أتوقع.. فإن تلك المغامرة السيئة أثارت ثائرة مستر إيرنشو، وبخاصة عندما جاء مستر لينتون لزيارتنا، وألقى على السيد الشاب محاضرة عن واجباته كربّ أسرة.

ولم يوقع أي عقوبة على هيثكليف، ولكنه أنذره بالطرد إذا خاطب مس كاترين بكلمة واحدة ومن ناحية أخرى، فقد عهد إلى مسز إيرنشو مهمة قطع كل صلة بين هيثكليف وكاتي عند عودتها إلى البيت، وطلب إليها أن تنتهج في مهمتهما أسلوب الدهاء لا العنف، لأن العنف خليق بأن يجعل رسالتها صعبة إلى درجة الاستحالة!

- 7 -

مكثت «كاتي» في «ترشكروس جرانج» مدة خمسة أسابيع، إلى أن حل عيد الميلاد. وخلال هذه الفترة كانت قد شفيت تماماً، وتحسن سلوكها كثيراً. وكانت السيدة تداوم على زيارتها، وقد شرعت في إعداد سياسة جديدة تهدف إلى إصلاح الفتاة، ورفع اعتبارها في نظر نفسها، وذلك بإهدائها الملابس الفاخرة والتودد إليها بطريقة وجدت صدى طيباً عند كاتي.. وهكذا بدلاً من أن نرى فتاة وحشية عارية الرأس تقفز داخل البيت، إذا بكاترين تبدو آنسة في أجمل زينة، وهي تترجل من فوق حصان أسود مطهم. وهتف هندلي جزلاً: ما هذا يا كاتي؟ إنك رائعة الجمال.. إنني لم أكد أعرفك للوهلة الأولى، فأنت تبدين الآن مثال السيدة الراقية.

فقالت زوجته: يجب أن تكون على حذر وحيطة، حتى لا تعود إلى وحشيتها الأولى هنا.

وتقدمت لمساعدتها في خلع معطفها، فقبلتني في رقة، ثم أخذت تتلفت حولها باحثة عن هيثكليف. وكان مستر ايرنشو وزوجته يترقبان هذا اللقاء في قلق، إذ أنه سوف يكون الحكم الفصيل لاحتمالات النجاح بالنسبة لخطتهما في التفريق بين الصديقين.

وقد ظل هيثكليف مختفياً في بادئ الأمر. وإذا كان بطبيعته قليل العناية بنفسه، أو كان يجد من يعني به أحياناً قبل عودة كاترين، فإنه أصبح منذ غابت أسوأ مما كان عليه عشر مرات، ولعله توارى خلف أحد المقاعد عندما رأى آنسة جميلة، رشيقة، حلوة الطلعة تدخل البيت بدلاً من صاحبته ذات الشعر المشعث والتصرفات الوحشية مثله.

وصاح مستر هندلي: هيثكليف.. في وسعك أن تتقدم وترحب بمس كاتي.. مثل سائر الخدم!

ولكن كاتي اندفعت تعانقه، وطبعت فوق وجنته سبعٍ أو ثماني قبلات في أقل من ثانية. ثم انفجرت ضاحكة وهي تصيح: عجباً.. إنك تبدو أسود الوجه، متجهم الأسارير!.. ولكن ربما كان ذلك بسبب تعودي إلى رؤية إدجار وإيزابيلا لينتون.. حسن، هل نسيتني يا هيثكليف؟

فقال ايرنشو: صافحها يا هيثكليف.

وأجاب الغلام: لن أصافحها.. ولست أستطيع احتمال الوقوف هكذا لأكون أضحوكة لها.

وحاول أن يلوذ بالفرار من وسط الحلقة، ولكن مس كاتي أمسكت به وهي تقول له: إنني لم أقصد أن أسخر منك!.. ما الذي أثار غضبك؟ لقد ضحكت لأن منظرك يبدو غريباً، ولو أنك تغسل وجهك وتمشط شعرك، لأصبح كل شيء على ما يرام، ولكن.. أنت شديد القذارة.

فانتزع يده من يدها بعنف وهو يقول: لم يكن هناك ما يدفعك إلى ملامستي. ولي أن أحتفظ بقذارتي ما شئت، فأنا أحب القذارة، وسأظل قذراً!..

قال ذلك، ثم اندفع خارجاً من الغرفة..

وبعد أن وضعت الكعك في الفرن، أوقدت المدافئ لتتوهج النار، وتشيع الدفء في البيت والمطبخ بصورة تليق بليلة عيد الميلاد. وقد اعتكف جوزف في غرفته ليؤدي صلاته الخاصة، بينما أخذ ايرنشو وزوجته و «كاترين» يعدون الهدايا التي ستقدم للصغيرين «إدجار» و «إيزابيلا لينتون». بعد أن وجهت إليهما الدعوة لقضاء ثاني أيام عيد الميلاد في «مرتفعات وذرنج». وقد رحبت مسز لينتون بهذه الدعوة وقبلتها معلقة على شرط واحد، هو أن يظل طفلاها بمنأى عن ذلك «الغلام الشرير البذيء اللسان».

وهكذا وجدت نفسي وحيدة، وتذكرت كيف اعتاد ايرنشو الكبير أن يأتي ليدس في يدي «شلناً» كهدية عيد الميلاد. واستطردت بي الذكريات إلى ولعه الشديد بهيثكليف، وخوفه مما قد يقاسيه من إهمال بعد موته. وقادني هذا بطبيعة الحال إلى التفكير فيما وصلت إليه أحوال الفتى المسكين الآن. ولذلك قمت أبحث عنه.. ولم يكن بعيداً، فقد عثرت عليه في الحظيرة يطعم الدواب.

قلت له: تعال يا هيثكليف.. إن المطبخ أكثر إغراء، وجوزيف في الطابق العلوي، ودعني ألبسك أفخر الثياب قبل أن تأتي مس «كاتي» حتى تنعما بالجلوس سوياً وتتبادلا الأحاديث إلى أن يحين موعد النوم.

ولكنه لم يلتفت نحوي على الإطلاق «وانتظرت خمس دقائق، ولما لم أتلق منه رداً، تركته وانصرفت لشأني. واستمر فيما كان فيه حتى الساعة التاسعة ثم توجه إلى غرفته صامتاً.. أما كاتي فقد حضرت إلى المطبخ لكي تتحدث إليه، ولكنها لم تجده.. وفي الصباح الباكر ذهب هيثكليف إلى البراري، ولم يظهر ثانية إلا بعد رحيل الأسرة إلى الكنيسة وظل يحوم حولي لحظة، ثم قال لي فجأة: إنني أريدك أن تجعلي مني شخصاً حسن المظهر يا نيللي.. فقد عزمت أن أكون غلاماً طيباً.

هنا قلت: ليتك فعلت ذلك منذ وقت طويل يا هيثكليف. فقد أحزنت كاترين.. حتى إنني لأجرؤ على القول بأنها قد أسفت على عودتها إلى البيت.

فسألني: هل قالت أنها حزنت لذلك؟

- لقد بكت عندما أخبرتها إنك قد خرجت ثانية.

فعلق قائلاً: حسن.. وأنا أيضاً بكيت ليلة أمس.. ولديّ من الأسباب ما يدعوني إلى البكاء أكثر منها.

قلت له: نعم.. وكان لديك من الأسباب ما دفعك إلى الذهاب إلى الفراش بقلب مليء بالكبرياء ومعدتك خاوية.. إنني سأعتني بمظهرك الآن بحيث يبدو «إدخار لينتون» نكرة إلى جوارك. وهذه حقيقة لا مراء فيها، فأنت أصغر منه سناً وأطول منه قامة، وأعرض منه منكباً مرتين على الأقل. ويمكنك أن تصرعه في لمحة. ألا تشعر حقاً إنك قادر على ذلك؟

وأشرق وجه «هيثكليف» لحظة، ثم ما لبث أن تنهد قائلاً: ولكنني لو صرعته يا «نيللي» عشرين مرة، فإن ذلك لن يقلل من وسامته أو يزيد من حسن مظهري.. كم أود أن تكون لي ثياب مثل ثيابه، وأن أسلك مثل سلوكه، وأن تتاح لي الفرصة لكي أكون ثرياً مثله.

فأضفت قائلة: .. وأن تصيح طالباً نجدة ماما في كل شيء.. إن القلب الطيب سيجعل لك وجهاً مشرقاً.. يا بني، تعال انظر إلى المرآة وقد انتهيت الآن من الاغتسال وتمشيط الشعر وفارقك التجهم، وقل لي: ألا ترى نفسك قد أصبحت أكثر وسامة وإشراقاً.. أما أنا فدعني أخبرك بأنك أصبحت كذلك حقاً!.

وظللت أحدث هيثكليف على هذا النحو، إلى أن بدأ تجهمه يتلاشى تدريجياً، وانفرجت أساريره، وأشرق وجهه بالسرور.. وفجأة انقطع حديثنا على صوت قعقعة في الفناء. وأسرعنا إلى النافذة، فرأينا ادجار وإيزابيلا لينتون» يطاردان عربتهما، بينما كان آل «إيرنشو» يترجلون عن جيادهم.

وحثثت رفيقي على أن يسرع على الفور، ويكشف لهم عن روح الود. وقد رحب بذلك عن طيب خاطر، ولكن سوء الحظ كان له بالمرصاد، إذ أنه في اللحظة التي كان يفتح فيها الباب الذي يؤدي من المطبخ إلى غرفة الجلوس، كان «هندلي» يفتحه من الناحية الأخرى، فالتقيا وجهاً لوجه. وتجهم وجه السيد عندما رآه نظيفاً مرحاً. أو بالأحرى أراد مستر «هندلي» أن يفي بوعده لمسز «لينتون»، وهو أن يكون طفلاها «بمنأى عن ذلك الغلام الشرير البذيء اللسان» فإذا به يدفع هيثكليف إلى الخلف دفعة عنيفة مفاجئة، وهو يصيح في جوزف بغضب: أبعد هذا الفتى عن الغرفة حتى نفرغ من الغداء.

فلم أتمالك نفسي من أن أقول: لا يا سيدي.. يجب أن ينال نصيبه من الفطائر مثلنا جميعاً.

فصاح هندلي: بل سينال نصيبه من قبضة يدي لو أمسكت به في هذا الطابق حتى المساء!.. ماذا؟ هل تحاول أن تبذني في المظهر انتظر حتى أقبض على الشعر الأنيق، وسترى كيف أجذبك منه حتى أزيده طولاً.

فقال السيد لينتون: إنه طويل بما فيه الكفاية.. وإنني أعجب كيف لا يسبب له آلاماً في رأسه.. إنه يتدلى فوق عينيه مثل عرف الفرس.

ولم يكن هيثكليف بطبيعته الحادة على استعداد لتحمل المزيد من الإهانات من شخص يبدو أنه يضمر له الكراهية. وحتى في هذه اللحظة كان نداً له،

فأمسك بطبق مليء بصلصة التفاح الساخن، وقذف به محدثه «ادجار» فسال على وجهه وعنقه. وهنا أسرع مستر «ايرنشو» وجذب «هيثكليف» وحمله إلى غرفته، أما أنا فقد أحضرت منشفة الأطباق، ورحت أفرك بغيظ أنف «ادجار» وفمه، بينما أخذت شقيقته إيزابيلا تجهش للبكاء، وتطلب العودة إلى بيتها.

وصاحت كاتي: ما كان ينبغي لك أن تحادثه. لقد أفسدت الآن زيارتك، وسوف ينال عقاباً صارماً، وأنا أكره أن أراه يتعرض للعقاب.. ولن أستطيع أن أتناول طعامي.. لماذا خاطبته بهذه اللهجة يا ادجار؟

فأجهش الفتى للبكاء، وقال: إنني لم أخاطبه.. فقد وعدت أمي ألا أوجه إليه أية كلمة.. وأنا لم أفعل.

فأجابت كاترين: حسن.. لا داعي للبكاء، فإن أحداً لم يقتلك، ولا تنزع إلى إثارة مزيد من المتاعب. اهدأ الآن، فإن أخي قادم. وأنت يا إزابيلا، كفي عن النحيب. هل أصابك أحد بالأذى؟

واندفع هندلي إلى الحجرة وهو يصيح: هيا يا صغار.. هيا إلى مقاعدكم.. لقد بعث هذا الفتى الوحشي الدفء في أوصالي.. أما أنت يا سيد إدجار، فإن عليك أن تقتضي حقك في المرة القادمة بقبضة يدك. إن ذلك سوف يفتح شهيتك للطعام!

ولاحظت أن كاترين كانت تتحين الفرص لزيارة هيثكليف طوال اليوم، وكان السيد قد حبسه في الغرفة. وفي المساء أقيمت حفلة راقصة، فتوسلت كاتي أن يطلق سراحه، ولكن توسلاتها ذهبت هباء. وعندما وصلت فرقة جيمرتون الموسيقية والمغنيون، صعدت كاترين إلى الطابق العلوي، ولم يلحظ ذلك أحد غيري، واكتشفت أنها تسللت من إحدى النوافذ، وزحفت فوق السطح حتى نافذة الغرفة التي حبس فيها هيثكليف وعادت وقد اصطحبته معها، وأصرت علي أن آخذه إلى المطبخ، وقدمت له كمية وفيرة من الطعام، ولكنه كان عليلاً فلم يصب إلا النذر اليسير من الطعام. وذهبت محاولاتي للترويح عنه أدراج الرياح. وكان يجلس صامتاً، زائغ النظرات، وعندما سألته عما يشغل فكره، أجابني بوقار: إنني أتدبر الوسيلة التي أستطيع أن أسدد بها الدين لهندلي.. ولا يعنيني كثيراً أن يطول انتظاري

لكي أحقق ذلك في النهاية. وكل ما أتمناه هو ألا يختطفه الموت قبل أن أبلغ غايتي.

فقلت له: يا للخجل يا هيثكليف.. إن الله وحده كفيل بعقاب الأشرار، أما نحن فيجب أن نعرف كيف نصفح.

فأجاب قائلاً: كلا.. إن الله لن يهدأ نفسًا بهذا العقاب مثلما تهدأ نفسي عندما أحققه. وكل ما يعنيني هو أن أعرف أفضل السبل لتحقيق ذلك. دعيني وحدي حتى أستطيع أن أتدبر خطتي. وثقي بأنني لا أشعر بوطأة آلامي وأنا أفكر في الانتقام.

ولكني نسيت.. مستر لو كوود، إن هذه القصص لا تثير اهتمامك فإني أرى النوم يداعب جفنيك ويدعوك إلى رحلة الأحلام.. كان يمكنني أن أسرد عليك قصة هيثكليف، أو ما تود سماعه منها، في ست كلمات..

وصحت بها قائلاً: أجلسي مكانك يا مسز دين. أرجو أن تبقي نصف ساعة لأن كل شخصية أشرت إليها في قصتك تجتذبني في شغف.

- ولكن الساعة توشك أن تعلن الحادية عشرة يا سيدي..

- لا يهم.. فأنا لم أتعود النوم مبكرًا.

- حسن.. سأواصل سرد القصة، وإن كنت سأنتقل بالأحداث إلى الصيف التالي.. صيف عام 1778.. أي منذ حوالي ثلاثة وعشرين عامًا.

- 8 -

في صبيحة يوم صاف رائق من أيام شهر يونيه، ولد آخر سلالة أسرة إيرنشو العريقة. وكنا في ذلك اليوم مشغولين بالحصاد في حقل بعيد، عندما أقبلت فتاة تخترق الحقول، وتهتف باسمي وهي مندفعة نحوي، ثم قالت لي وهي تلهث: أوه. يا له من طفل عظيم.. أنه أجمل طفل رأي النور على الإطلاق. ولكن دكتور كينيث يقول أن السل ظل ينهش صدر السيدة طوال الشهور الأخيرة، وقد سمعته وهو يخبر مستر هندلي بأنها سوف تقضي نحبها في الشتاء القادم.. ولذلك يجب عليك أن تحصري الآن لأنك سوف تتولين رعاية الطفل يا نيللي..

وسألتها وأنا ألقي بجاروف الدريس بعيداً: ولكن هل هي مريضة للغاية؟ فأجابت الفتاة: أظنها كذلك.. ومع هذا فإنها تتحدث كما لو كانت ستعيش حتى تراه رجلاً!

يا للشابة المسكينة.. لقد ظلت محتفظة بروحها المرحة إلى ما قبل وفاتها بأسبوع. وكان زوجها يؤكد بإصرار أن صحتها تتحسن يوماً بعد يوم.. ولكن ذات ليل'ن وبينما كانت تستند إلى كتفه، أصابتها نوبة من السعال.. ثم فارقت الحياة..

وهكذا صار أمر هيرتون بين يدي، وكان مستر إيرنشو يشعر بالرضا كلما رأى الصغير موفور الصحية، لا يبكي ولا يشكو.. ولكنه كان يعيش في غمرة اليأس، وكان حزنه من ذلك النوع الذي لا عزاء له.. فهو لا يبكي ولا يصلي، بل يصب اللعنات على السماء والناس على حد سواء، وقد أسلم نفسه لحياة الطيش والرعونة والابتذال.

وكان السلوك المشين للسيد وصحبه السوء أسوأ مثال لكاترين وهيثكليف وكانت معاملته لهذا الأخير كفيلة بأن تجعل من القديس شيطاناً. وفي الحقيقة لقد بدا الغلام في هذه الفترة وكأنما تملكته أرواح شريرة، وكان

يشعر بالسعادة إذ يرى هندلي يحط من قدر نفسه، ويتردى إلى هاوية الفساد والخزي والعار، حتى أن القسيس امتنع عن زيارتنا، وكذلك تحاشى كل شخص محترم زيارتنا.. وكان الاستثناء الوحيد هو زيارات إدجار لينتون، لمس كاتي وكانت وقد بلغت الخامسة عشرة ملكة جمال الإقليم بلا منازع، وإن كانت قد انقلبت إلى فتاة متغطرسة وعنيدة.

وقد ظلت كاترين محتفظة بصداقتها لآل لينتون منذ أن أقامت بينهما تلك الأسابيع الخمس، وكانت تحرص على عدم إظهار الجانب السيئ من سلوكها في صحبتهم، ولذلك استطاعت أن تكسب ود السيد والسيدة الكبيرين، وأن تنال إعجاب إيزابيلا، وأن تأسر قلب شقيقها وتخلب لبه. وكانت كلما حلت في مكان، وسمعتهم يصفون هيثكليف بأنه «أسوأ من الحيوان المتوحش»، تحرص على ألا تفعل مثله.. ولكنها في البيت كانت قليلة الاكتراث بممارسة السلوك المهذب حتى لا تكون مدعاة للسخرية.

ولم تكن لدى مستر إدجار الشجاعة الكافية لزيارة مرتفعات وذرنج علنًا، لأنه كان يفزع من سمعة إيرنشو، وينفر من اللقاء به.

وذات يوم غادر مستر هندلي البيت بعد الظهر، فقرر هيثكليف أن يمنح نفسه إجازة من العمل. وكان في ذلك الحين قد بلغ السادسة عشرة، وكان سلوكه يوحي بالخشونة والجهامة والنفور من الناس، رغم إنه لم يكن دميم الخلقة، أو ناقص العقل. ويعزي ذلك الموقف إلى انقطاعه في ذلك الوقت المبكر عن التعليم، كما أن شعوره القديم بالسمو ورفعة الشأن الذي كان يغذيه مستر إيرنشو برعايته له، كان قد تبدد هباء.. وكان لا يزال هو وكاترين صديقين متلازمين في أوقات فراغه من العمل، وإن كان قد كف عن التعبير لها بالكلمات عن ولعه بها.

.. في ذلك اليوم الذي تغيب فيه السيد عن البيت، دخل هيثكليف غرفة الجلوس معلنًا أنه ينوي الانقطاع عن العمل بعد الظهر. وكنت وقتئذ أساعد كاتي على ارتداء ملابسها استعدادًا لاستقبال إدجار، فقد كانت تتصور أن البيت قد خلا لها وحدها بغياب أخيها، فعمدت إلى إبلاغ إدجار بذلك، ودعته لقضاء هذه الفترة معها.

وسألها هيثكليف: لماذا تريدين هذا الثوب الحرير يا كاتي؟ هل تنظرين قدوم أحد؟

وتلعثمت كاتي وهي تقول: لست أدري؟.. ولكن أما كان ينبغي أن تكون في الحقل في هذا الوقت يا هيثكليف؟!

فأجاب: أنني لن أعمل شيئًا اليوم.. وسأمكث معك.

قال ذلك وهو يمضي نحو المدفأة ويجلس إلى جوارها. وقالت كاترين:

- لقد وعدت إيزابيلا وشقيقها ادجار باستقبالهما بعد ظهر اليوم.

- يمكنك أن تكلفي نيللي بأن تقول لهما أنك مشغولة يا كاتي، ولا تطردينني من أجل هذين الصديقين التافهين الأبلهين.

وسألته كاترين: هل ينبغي أن أجلس معك دائمًا؟ أي حديث تطرقه؟ إن كل ما تقوله لتسليتي أشبه بكلمات الشخص الأبكم!

- ولكنك لم تخبريني من قبل إنني قليل الكلام، أو إنك تضيقين بصحبتي يا كاتي!

وغمغمت قائلة: إنها ليست صحبة على الإطلاق تلك التي لا يقول فيها الناس شيئًا، وهم جاهلون بكل شيء.

وحينئذ سمعنا وقع سنابك جواد في الفناء، ودخل لينتون الصغير وقد أشرق وجهه بالغبطة والسرور. ولا شك أن كاترين قد وقفت على ذلك التباين الواضح بين صديقيها، في تلك اللحظة التي دخل فيها أحدهما الغرفة بينما كان الآخر يغادرها.

- أرجو ألا أكود قد بكرت بالحضور أكثر مما ينبغي..

نطق بهذه الكلمات وهو يرمقني وأنا أنظم بعض الأدراج في الركن القصي للغرفة.

فأجابت كاترين: كلا.. ماذا تفعلين هناك يا نيللي؟

فأجبت: إنني أقوم بعملي يا آنستي.

«والحقيقة أن مستر هندلي كان قد أصدر إلي تعليماته بأن أكون طرفًا ثالثً في أي زيارة خاصة يقوم بها لينتون»..

وتقدمت كاتي حتى أصبحت خلفي، ثم همست في حنق: أرحلي.. وخذي معك تلك المنافض. إن واجب الخدم أن يكفوا عن أعمال النظافة في الغرفة التي يستقبل فيها الزوار.

فأجبت: إنني آسفة يا مس «كاترين».

ثم واصلت عملي دون اكتراث. وإذا بها تختطف المنفضة من يدي وهي تظن أن الشاب لا يراها، وفركت ذراعي في غيظ وحنق، وآلمتني فعلتها فلم أتمالك نفسي من الصياح: أوه مس كاتي.. هذه فعلة قبيحة.. وليس من حقك إيلامي!..

فصاحت بغضب: إنني لم ألمسك أيتها المخلوقة الكاذبة!

فكشفت عن بقعة قرمزية في ذراعي تشهد على كذبها. وكان أن دقت الأرض بقدمها في غضب، ثم صفعتني على خدي صفعة شديدة مؤلمة، جعلت الدموع تترقرق في عيني.

ووقف «إدجار» مذعوراً مبهوتًا أمام هذه السقطة المزدوجة التي ارتكبتها معبودته.. الكذب واستخدام العنف.. وما كان منه إلا أن صاح بها:

- كاترين.. حبيبتي كاترين!

وكان هيرتون الصغير يجلس على الأرض قريبًا مني، وما كاد يرى الدموع في عيني حتى أخذ في البكاء والشكوى من «العمة الشريرة كاتي». فكان أن كالت جام غضبها على رأسه، حيث أمسكن بكتفيه وأخذت تهزه بعنف بين يديها، فتدخل إدجار لينقذ الطفل من براثنها وفي سرعة خاطفة استطاعت أن تحرر إحدى يديها، ثم هوت بها على صدغ الفتى المشدوه الذي تراجع إلى الخلف في ذهول. ووجدت الفرصة مواتية، فحملت هيرتون بين ذراعي، وانطلقت إلى المطبخ، تاركة الباب مفتوحًا لأقف على نهاية هذا المشهد.. فرأيت الضيف المهان يتحرك لمغادرة البيت، ولكن كاترين صاحت به:

- يجب ألا تنصرف الآن.

فسألها لينتون: هل بوسعي أن أبقى هنا بعد أن صفعتني؟ لقد جعلتني أخشاك وأخجل منك.. ولن أعود إلى هنا مرة أخرى.

فتألقت عيناها ببريق غريب واضطرب جفناها بينما استطرد إدجار قائلاً:

- وبخاصة بعد أن كذبت أمامي عن عمد.

فصاحت قائلة: لا لم أكذب، ولم أفعل شيئًا عن عمد. حسن، يمكن أن تذهب.. أرجوك أرحل، ودعني الآن أبكي بكاء يسلمني إلى فراش المرض!

وهوت على ركبتيها بجوار المقعد وهي تبكي بكاءً حارًا، ورحل «ادجار»، ولكنه لم يكد يعبر الفناء حتى بدا عليه التردد، وبدت عزيمة الفتى الرقيق على الرحيل أشبه بعزيمة فأر يحتضر بين مخلبي قط. وما لبث أن استدار وعاد إلى البيت مسرعًا مرة أخرى، ثم أغلق الباب خلفه.. ولما ذهبت بعد فترة لأخبرهما بعودة مستر إيرنشو إلى البيت فاقد اللب بتأثير الخمر، اكتشفت أن الشجار لم يزدهما إلا اقترابًا، بعد أن رفع ستار الصداقة البريئة وكشف عما تحتها من حب سافر.

ولم يكد لينتون يسمع نبأ وصول مستر هندلي، حتى أسرع يمتطي صهوة جواده، بينما خلفت كاترين إلى غرفتها.. وبادرت أنا إلى إخفاء هيرتون الصغير، كما قمت بنزع الطلقات من بندقية السيد.. فقد كان مولعًا بالعبث بها أثناء فترات هياجه الجنوني!..

- 9 -

دخل مستر هندلي المطبخ وهو يطلق سيلاً من السباب البذيء الذي يندى له الجبين، فضبطني أنا وهيثكليف ونحن نحاول إخفاء ابنه في دولاب المطبخ.. وكان هيرتون يشعر برهبة وفزع من التعرض لوحشية أبيه في حالتي الرضى أو الغضب على حد سواء.. ففي الحالة الأولى وكان أبوه يظل يحتضنه ويقبله حتى يشرف على الموت. وفي الحالة الثانية كان الطفل عرضة لأن يلقى به في النار أو يحطم رأسه في الجدار، ولذلك كان الطفل المسكين يخبث صامتاً ساكتاً في المكان الذي اختاره له لأخفيه فيه عن الأنظار.

وصاح هندلي: ها أنذا قد وجدته أخيراً.. أقسم بالجنة والجحيم أنكم تعاهدتم فيما بينكم على أن تقتلوا الطفل.. ولقد اكتشفت الآن لماذا تخفونه عني دائماً.

وحاول أن يمسك الطفل، ولكنه ما كاد يلمسه بأصبعه حتى أخذ الطفل يصرخ في ذعر، ويقاومه بكل قوته، فقلت: لا تقترب منه لأنه يكرهك.. وكلهم يكرهونك. إن لديك أسرة طيبة، ولكنك انحدرت إلى الحضيض.

وضحك الرجل المنحرف قائلاً: ومع ذلك، فإن حالتي ستصبح أكثر سوءاً مما هي عليه الآن.. اغربي أنت والطفل عن وجهي.. أما أنت يا هيثكليف فتجنب أن يصل صوتك إلى سمعي، وأن تكون في متناول يدي.. إنني لن أقتل أحداً منكم الليلة، ولكن ربما أشعل النار في البيت.. هذا إذا حدثتني نفسي بذلك.

قال ذلك وهو يتناول زجاجة خمر من الدولاب، وملأ منها كوبه ثم تركنا. وعندما أغلق الباب خلفه، علق هيثكليف قائلاً: من المؤسف إنه لا يستطيع قتل نفسه بالخمر!..

وجلست في المطبخ أهدهد الصغير حتى ينام، وقد حسبت أن هيثكليف قد خرج إلى الساحة، ولكني تبينت أنه لم يذهب إلى أبعد من الناحية الأخرى للمقعد ذي الظهر المرتفع، ورقد فوق كنبة بجوار الحائط وهو ساكت هادئ.. وكنت مشغولة برعاية الصغير هيرتون وهو على ركتبي، عندما أطلت مس كاتي برأسها من وراء الباب، وهمست قائلة: هل أنت وحدك يا نيللي؟

فأجبتها: نعم يا آنسة..

فدخلت، وسألتني: أين هيثكليف؟

أجبت قائلة: أنه يقوم بعمله في الاسطبل..

ولم يعارضني.. وربما كان قد استغرق في النوم. ولاحظت دمعة أو دمعتين تنسابان فوق خد كاتي. وأخيراً هتفت قائلة: آه يا عزيزتي.. كم أنا شقية! لقد طلب مني إدجار لينتون اليوم أن يتزوجني. ولقد قبلت يا نيللي.. خبريني بسرعة. هل كنت مخطئة في تصرفي هذا؟

- لقد رضيت به زوجًا.. إذن ما فائدة مناقشة الموضوع؟ لقد أعطيت كلمتك، وليس في وسعك الرجوع فيها.

- ولكن، قولي لي.. هل أخطأت أو أصبت؟ تكلمي..

فقلت: هناك أمور كثيرة يجب بحثها قبل الإجابة عن السؤال.. أولاً وقبل كل شيء، هل تحبين مستر إدجار؟

فأجابت: ومن الذي يستطيع ألا أن يحبه؟ طبعًا إنني أحبه.

- أنت تحبين مستر إدجار لأنه وسيم، وشاب، ومرح، وثري، ولأنه يحبك. ولكن هناك في هاذ العالم كثير من الشباب الأثرياء ولا يقلون عنه وسامة، إن لم يتفوقون عليه وسامة وثراء. فما الذي يمنعك من حبهم؟

- قد يوجد أمثال هؤلاء، ولكني لم ألتق بواحد مثل إدجار.

- قد تلتقين ببعضهم ثم لا تنسى إنه لن يظل وسيمًا شابًا على الدوام، وربما لا يدوم له الثراء.

- ولكنه الآن وسيم وشاب وثري.. ولا يهمني غير حاضري.

- حسن، إن هذا يحسم الأمر. وما دمت لا تهتمين بغير حاضرك، فعليك إذن أن تتزوجي من مستر لينتون.

- لست في حاجة إلى إذن منك لكي أتزوجه.. سوف أتزوج منه.. ومع هذا فإنك لم تقولي لي هل أخطأت أو أصبت في هذا القرار؟

- بل أصبت تمامًا إذا كان الناس يهتمون حين يتزوجون بحاضرهم وليس بمستقبلهم. والآن فلنسمع أسباب شقائك.. أخوك سوف يسعده زواجك.. وأعتقد أن السيد لينتون الكبير وزوجته لن يعترضا.. وسوف تتخلصين من الحياة في دار مليئة بالاضطرابات والمتاعب، لننتقل إلى بيت يعيش في سعة وثراء، وله وقاره واحترامه.. وأنت تحبين إدجار وهو يحبك.. كل شيء مذلل وميسر، فأين هي إذن المتاعب؟

فأجابت كاترين وهي تضرب بإحدى يديها على جبينها وبالأخرى على صدرها: هنا.. ثم هنا.. في روحي وفي قلبي.. إنني أشعر عن يقين أنني أخطأت في قراري هذا.

- أمرك عجيب.. لا أكاد أفهم منه شيئًا.

فقالت: وقد بدأ في نبرات صوتها أنها تريد تغيير الموضوع: لو أنني كنت في السماء يا نيللي، لشعرت بتعاسة شديدة. لقد حلمت ذات مرة أنني هناك، ولكنني لم استرح لأن تكون السماء مقرًا لي، ولذلك رحت أبكي حتى انفطر قلبي من البكاء لكي أعود على الأرض. وقد غضبت الملائكة مني غضبًا شديدًا، فألقوا بي وسط الأرض، فوق «مرتفعات وذرنج». واستيقظت من نومي وأنا أبكي من الفرح.. وهذا يفسر لك الآن حقيقة مشاعري.. فإنني لم أخلق للزواج من إدجار لينتون كما لم أخلق لأجد لي مكانًا في السماء. ولو أن أخي –هذا الرجل الشرير- لم يهبط بهيثكليف إلى الدرك الأسفل، ما فكرت بالزواج من إدجار، ولكن زواجي الآن من هيثكليف يحط من قدري، ولهذا فإنه لن يعرف أبدًا كم أحبه.. ولست أحبه يا نيللي لأنه وسيم، ولكن لأنه أقرب إلي من نفسي. ومهما كان المعدن الذي تصنع منه الأرواح، فإن روحه

وروحي من معدن واحد. أما روح لينتون فإنها تختلف تماماً عن روحينا، كاختلاف ضوء القمر عن ضوء البرق، أو كالاختلاف بين الجليد والنار.

وقبل أن تنتهي من حديثها، شعرت بوجود هيثكليف من خلال حركة خفيفة، فأدرت رأسي، ورأيته ينهض ويتسلل خارجاً بلا جلبة أو ضوضاء. لقد ظل هيثكليف ينصت إلى حديثها حتى سمعها تقول بأن زواجها منه يحط من قدرها، وهنا لم يقو على البقاء وسماع المزيد من حديثها.. ولقد حال وجود المقعد المرتفع دون أن تحس كاترين بوجود هيثكليف أو تراه عند رحيله، ولذلك طلبت إليها أن تصمت، فسألتني وهي تتفرس حولها في عصبية: لماذا؟

فأجبتها. لقد جاء جوزف، وسيأتي معي هيثكليف إلى هنا.

وقالت كاترين: دعيني أتناول العشاء معك ومع هيثكليف، لأنني أريد أن أقنع نفسي بأنه لا يدرك معنى لهذه الأشياء.. إنه لا يدركها.. أليس كذلك؟

إنه لا يدرك معنى الوقوع في الحب.

فقلت لها: لا أدري سبباً يحول دون معرفته للحب كما تعرفينه. ولو أن قلبه وقع اختياره عليك، لغدا أشقى إنسان على وجه الأرض. وعندما تصبحين مسز لينتون، فإنه سوف يفقد بفقدانك الصداقة والحب وكل شيء.. فهل فكرت كيف سوف تحتملين فراقه؟ وكيف يكون تحمله عندما يجد نفسه وحيداً مهجوراً في هذا العالم؟

- وحيداً مهجوراً في هذا العالم؟ افترقنا عن بعضنا؟ من الذي يفرق بيننا بربك؟ لن يحدث ذلك ما دمت حية يا «إيلين»، فليطوي العدم كل «لينتون» وعلى وجه الأرض، قبل أن أوافق على التخلي عن هيثكليف إنه سيظل لدي كما كان طول حياته، ويجب على «إدجار» أن يتخلى عن كراهيته له، أو أن يحتمل لقاءه على الأقل. إنه أعظم شقاء صادفني في هذه الدنيا هو شقاء «هيثكليف»، وهدف حياتي الوحيد هو هيثكليف نفسه. فلو هلك كل من عداه وبقي هو، لاستمر وجودي. أن حبي للينتون مثل أوراق الشجر في الغابة يغيرها الزمن ويعدو عليها الشتاء. وأما حبي لهيثكليف فإنه أشبه بالصخر الخالد تحت الأرض. «نيللي.. إنني هيثكليف! فهو دائماً يشغل

فكري.. لا باعتباره ملهاة إلا بقدر ما يمكن أن أكون أنا ملهاة لنفسي. إن هيثكليف كياني ووجودي.. فلا تتحدثي إذن عن فراقنا مرة أخرى، لأن هذا الأمر مستحيل.. و ..

وكف عن الحديث بعد أن دخل «جوزف»..

وعندما انتهيت من إعداد العشاء، ذهبت أبحث عن هيثكليف وأنا أنادي باسمه، ولكنني لم أتلق جواباً.. فلما عدت، همست في أذن كاترين بأنه سمع شطراً كبيراً مما قالته، وأكدت لها ذلك بأنني رأيته وهو يغادر المطبخ في اللحظة التي كانت تشكو فيها من سوء معاملة أخيها له، فقفزت من مجلسها كالمجنونة، وانطلقت تبحث عن صديقها بنفسها. وطال غيابها حتى أن الملل تسرب إلى جوزف واقترح ألا ننتظرها أكثر من ذلك. وفي ذلك الوقت اقتحمت السيدة الصغيرة كاترين مجلسنا، وأمرته أن يسرع إلى الطريق ليبحث عن هيثكليف، ويعود به إلى البيت في أسرع وقت.

واعترض جوزف في بادئ الأمر، ولكنه لم يلبث أن خرج وهو يتمتم بعبارات السخط، وفي نفس الوقت راحت «كاترين» تذرع المكان جيئة وذهاباً، وهي تهتف: إنني في حيرة من أمر اختفائه.. أين هو الآن؟ ماذا قلت يا نيللي؟ لقد نسيت. ترى هل غضب من سوء معاملتي له بعد الظهر؟ كم أود أن يعود!

- ما كل هذا الضجيج الذي تثيرينه بلا داع؟

صحت بهذه الكلمات، وإن كان القلق قد بدأ يتسرب إلى قلبي. وبادرت إلى الخروج لأعاود البحث من جديد، ولكني لم أوفق. وكذلك انتهى بحث جوزف إلى نفسها النتيجة.

وكانت ليلة حالكة الظلام بالنسبة لليالي الصيف، والغيوم تنذر بالرعد. وقد ظلت كاترين تذرع المكان ما بين الباب والطريق، دون أن تبالي شيئاً بقصف الرعد أو أنهمار المطر، وظلت تنادي هيثكليف من وقت إلى آخر، ثم تنصت لعله يجيب نداءها، ثم تنفجر باكية. وقبل منتصف الليل، وبينما نحن جلوس في انتظار عودة هيثكليف، هبت عاصفة عاتية فوق المرتفعات وقصف الرعد بشدة. وبعد مضي عشرين دقيقة انتهت العاصفة دون أن تسبب لنا

أضراراً، فيما عدا كاتي التي ابتلت ثيابها بسبب عنادها ورفضها الالتجاء إلى مأوى. وأخيراً قبلت الدخول، وألقت بنفسها على المقعد وقد غرقت ثيابها بماء المطر.. فهتفت بها قائلة: حسن يا آنسة. تعالي إلى فراشك!.. لا جدوى من بقائك في انتظار عودة ذلك الفتى الطائش، ولعله ذهب إلى «جيمرتون» وبقي هناك حتى الآن.

ولما فشلت توسلاتي لهذه البنت العنيدة أن تنهض وتستبدل ثيابها المبتلة، تركتها وهي ترتعد من البرد، ومعها جوزف يتلو عليها عظاته وأويت إلى فراشي.

وفي صباح اليوم التالي، هبطت إلى المطبخ متأخرة عن موعدي المعتاد قليلاً، فرأيت مس كاترين لا تزال جالسة بجوار المدفأة، وعندما دخلت كان هندلي يقول لها: ماذا بك يا كاتي؟

فصحت قائلة، وقد أدركت أن السيد قد عاد إلى وعيه بعد سكرة الأمس: أوه! إنها فتاة عاقة.. لقد ابتلت ثاييبها ليلة الأمس، كما أنها أمضت الليل بطوله جالسة تحت وابل المطر.

وأخذ مستر ايرنشو يحدق فينا بدهشة ويقول: الليل بطوله.. وكرر هذه العبارة. ثم تساءل: ما الذي أبقاها ساهرة؟

ولم يشأ أحد منا أن يذكر شيئًا عن غياب هيثكليف. وقال هندلي وهو ممسك برسغها: إنها مريضة. ولعل هذا هو السبب في عدم ذهابها إلى الفراش. ما الذي جعلك تخرجين في هذا الجو المطير؟

وتدخل جوزف قائلاً: الجري وراء الشبان كالعادة!

فسألها أخوها: خبريني.. هل كنت مع هيثكليف ليلة الأمس؟

وانفجرت باكية في مرارة. فأمرها هندلي بأن تذهب إلى غرفتها في الحال. وما كدنا نصل إلى غرفتها، حتى ظننت أنها قد أصيبت بمس من الجنون. فتوسلت إلى جوزف أن يسرع في طلب الطبيب.. وما كاد دكتور كينيث إن يراها، حتى قرر أنها مصابة بحمى خطيرة، وأمرني بمراقبتها حتى لا تلقى بنفسها من فوق الدرج أو من النافذة.

وزارتنا مسز لينتون العجوز مرات عديدة أثناء مرض كاتي. وعندما بدأت كاترين تتماثل للشفاء، أخذتها معها إلى ترشكروس جرانج ولكن المسكينة لم تلبث أن دفعت ثمن حنانها، فقد انتقلت عدوى الحمى إليها وإلى زوجها. وماتا بعد قليل، دون أن يفصل بين موت أحدهما والآخر سوى أيام قلائل.

ولم نسمع شيئًا عن هيثكليف منذ رحيله في تلك الليلة العاصفة. أما سيدتنا الصغيرة فقد عادت إلينا وهي أشد شراسة وأحدّ طبعًا وأكثر تعاليًا عما كانت عليه من قبل.

وكان إدجار لينتون قد أعماه حبه لكاترين عن رؤية الحقيقة، فاعتبر نفسه أسعد إنسان على وجه الأرض يوم تزوج منها، وكان ذلك بعد وفاة والده بثلاثة أعوام.. وأرغمت على غير رغبتي على مغادرة «مرتفعات وذرنج» ومصاحبة كاترين إلى هنا.

وكان هيرتون الصغير قد بلغ الخامسة من عمره. وعندما رفضت الرحيل، ذهبت كاترين لتشكوني إلى أخيها، فأمرني بأن أحزم حقائبي وأن أرحل عن البيت، لأنه لا يريد أي سيدة بعد أن خلا البيت من سيدته.. فصارحت سيدي بأنه يرغب في التخلص من الناس المهذبين حتى يعيش مع قرناء السوء، ويهبط إلى الهاوية التي يهوي فيها بأسرع ما يمكن.. وقبلت هيرتون قبلة الوداع. ومنذ ذلك الحين أصبح غريبًا بالنسبة لي تمامًا.

وعندما وصلت مدبرة المنزل إلى هذا الحد من القصة، لمحت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، فرفضت أن تبقى ثانية أخرى.. والآن، وقد أوت إلى فراشها لتستريح، أخذت أفكر فيما سمعت مدة ساعة أو ساعتين بعد ذلك. ثم قررت أن أذهب بدوري إلى الفراش رغم الإحساس الرئيب بالألم الذي يسري في رأسي وأطرافي..

- 10 -

قضيت أربعة أسابيع بين براثن آلام المرض. وأخبرني للدكتور كينيث بألا أتوقع مبارحة البيت قبل حلول الربيع. وبلغ بي الضعف حداً حال بيني وبين القراءة. إلا إنني شعرت بأني في استطاعتي الاستمتاع بما يبعث على التسلية.. فلماذا لا أدعو مسز دين لتسرد عليّ بقية القصة. وعندما جاءت، قلت لها:

- تعالي واجلسي هنا.. وابدئي أشغال الإبرة.. لأنني أريد أن تستطردي في سرد قصة مستر هيثكليف من حيث وقفت إلى يومنا هذا. هل أتم دراسته في أوروبا وعاد سيداً مهذباً.. أو التحق بالجندية.. أو أثري من قطع الطريق؟

- ربما كان قد مارس شيئًا من هذا كله يا مستر لو كوود، ولكنني لا أستطيع أن أجزم بالطريقة التي جمع بها ثروته، كذلك لست أدري شيئًا عن الوسائل التي ساعدت على تنمية مداركه حتى تخلص من ذلك الجهل المطبق الذي كان يتردى فيه.

على أية حال.. لقد صحبت كاترين إلى «ترشكروس جرانج» ولدهشتي فإنها سلكت سلوكًا رائعًا أفضل مما كنت أتوقع. وكانت تبدو مولعة أشد الولع بمستر لينتون، كما كانت تكن الود لشقيقته وتحيطها بالحب والحنان. وكان الشقيقان يعنيان بتوفير أسباب الراحة لها. ومن ذا الذي يستطيع أن يكون حاد الطبع أو سيء الخلق إذا كان لا يجد معارضة أو يقابل باللامبالاة؟.. واعتقد أن إدجار وكاترين كانا يتقاسمان سعادة عميقة متزايدة، ولكنها سرعان ما انتهت.. ففي مساء يوم من أيام شهر سبتمبر (أيلول)، كنت قادمة من البستان حينما سمعت صوتًا من خلفي يقول: أهذا أنت يا نيللي؟

وكان الصوت عميقًا وغريبًا في نبراته، ومع ذلك فإنه كان يبدو مألوفًا بالنسبة لي. فاستدرت، واستطعت أن أميز رجلاً طويل القامة في ثياب قاتمة،

أسمر الوجه، أسود الشعر. وقال:

- ألا تعرفينني؟ أنظري إلي.. إنني لست غريباً عنك!

وعندئذ تذكرت الصبيين، وصحت هاتفة: ماذا؟ ماذا؟ هل عدت ثانية؟ أهو أنت حقاً؟ حقاً؟

فأجابني: نعم.. هيثكليف. أين هي؟ لا داعي إلى هذا الاضطراب يا نيللي؟ هل هي هنا تكلمي! أريد أن أقول لها كلمة واحدة.. لسيدتك. اذهبي واخبريها بأن شخصاً من «جيمرتون» يرغب في رؤيتها.

وهتفت قائلة: ولكن، كيف ستتلقى النبأ؟ لقد أخذت الدهشة قلبي ولا شك أن المفاجأة ستطير صوابها. إنك أنت هيثكليف، ولكنك تغيرت..

فقاطعني وقد نفذ صبره: اذهبي وابلغيها رسالتي.. وسأظل على أحر من الجمر إلى أن تفعلي ذلك.

وعندما وصلت إلى البهو حيث كان مستر ومسز «لينتون» يجلسان في جو من الهدوء والسلام، فكرت في التراجع والعدول عن القيام بهذه المهمة. ولكني رغم ذلك غمغمت قائلة: أن شخصاً من «جيمرتون» يريد مقابلتك يا سيدتي..

فسألت مسز لينتون: وماذا يريد مني!

أجبت: إنني لم أسأله.

وهمت بمغادرة المكان، فسألني مستر إدجار في غير أكتراث عن الزائر، فقلت: إنه شخص لم تكن تتوقع سيدتي زيارته. إنه هيثكليف وأحسب إنك تذكره، فقد كان يعيش في بيت مستر إيرنشو.

فصاح قائلاً: ماذا؟ ذلك الغجري الذي يحرث الحقل؟!

قلت له: مهلاً يا سيدي!. لا ينبغي أن تصفه بذلك، فإن سماع هذه الصفات يسبب لي حزناً بالغاً.

وبعد لحظة وجيزة، رأيت كاترين تصعد الدرجة مسرعة مبهورة الأنفاس، وقد تألقت عيناها، ثم طوقت زوجها بذراعها وهي تلهث قائلة: أوه

إدجار. حبيبي إدجار. لقد عاد هيثكليف.

وصاح زوجها مقطبًا: حسن.. حسن.. لا أرى في هذا مبرراً لكتم أنفاسي، خاصة أنه لم يقع من نفسي موقع الكنز الثمين.. فلا حاجة به إلى كل هذا الضجيج.

فأجابته: إني أعلم أنك لم تكن تحبه، ولكن بحق إعزازك لي يجب أن تكونا صديقين. فهل أدعون الآن للصعود إلى هنا؟

قال: هنا؟ في غرفة الجلوس؟

فسألته: أين إذن؟

فبدا عليه الضيق، واقترح أن أنسب مكان لجلوسه هذا المطبخ.

وقالت مسز لينتون: كلا.. إنني لا أستطيع الجلوس في المطبخ.. أرجوك يا نيللي أن تعدي مائدتين هنا.. واحدة لسيدك وشقيقته مس إيزابيلا، فهما من طبقة السادة. والأخرى لهيثكليف ولي لأننا من الطبقة الدنيا.. هل يرضيك ذلك يا سيدي؟

فقال إدجار موجهًا حديثه إليّ: اذهبي أنت واطلبي منه أن يصعد إلى هنا.. أما أنت يا كاترين، فحاولي أن تعبري عن سرورك دون أن يبلغ تعبيرك هذا حد السخف.. فليس من اللائق أن يرى الخدم سيدتهم وهي مبتهجة، احتفالاً بعودة خادم هارب وكأنه شقيقك!

وقدت هيثكليف إلى حضرة السيد والسيدة. وكان قد أصبح رجلاً طويل القامة، رياضي القوام، ممشوق القد، متجهم الأسارير حتى بدا أكبر سنًا من مستر لينتون. وقد اختفت من عينيه نظرات المهانة لتلوح فيها علامات الذكاء، ولاحظت قسوة نصف متحضرة تنتقد في عينيه وتلتهب بالنيران السوداء، ولكنه سرعان ما كبح جماحها، وأصبح سلوكه أكثر وقاراً وخاليًا من أية خشونة.. وكانت دهشة سيدي لا تقلل مجال عن دهشتي. وقد ظل برهة حائراً لا يدري كيف يخاطب، «صبي المحراث الأجير» كما كان يدعوه.

وأخيراً قال: أجلس يا سيد. فقد أردت مسز «لينتون» من أجل الأيام الماضية أن استقبلك استقبالاً ودياً. ويسرني طبعاً أن أحقق لها كل ما يدخل البهجة على قلبها..

فأجاب هيثكليف: وكذلك أنا.. وخاصة إذا كان لي نصيب في أن أحقق لها هذه البهجة. ولذلك سأبقى بكل سرور لمدة ساعة أو ساعتين.

واتخذ لنفسه مجلساً في مواجهة «كاترين» التي ظلت نظراتها متعلقة به، كأنها تخشى أن يختفي من أمامها إن هي رفعت عينيها عنه.

وقالت: يخيل إلي أنني سوف أكتشف أنني كنت في حلم عندما يشرق عليّ الغد.. ولن أصدق أنني رأيتك بعيني، ولمستك بيدي، وتحدثت إليك مرة أخرى، ومع ذلك فإنك لا تستحق هذا الترحيب.. ما أقساك يا «هيثكليف» إذا أطاعك قلبك على الغياب عني ثلاث سنوات لزمت خلالها الصمت ولم تفكر فيّ على الإطلاق!

فغمغم قائلاً: بل فكرت فيك أكثر قليلاً مما فكرت في.. فقد سمعت منذ وقت قريب خبر زواجك يا كاتي. وقد دبرت هذه الخطة: أن أتزود بنظرة من وجهك.. ربما تكون نظرة دهشة أو سرور مصطنع. ثم أسوي بعد ذلك حسابي مع هندلي.. متجنباً عقاب القانون بإعدام نفسي بيدي.. ولكن ترحيبك أطار هذه الأفكار من رأسي.. على أنني أحذرك من لقائي على نحو آخر في المرة القادمة، فقد ناضلت وواجهت قسوة الحياة ومرارتها منذ سمعت صوتك آخر مرة، ولم يكن كفاحي إلا من أجلك..

وقطع لينتون الحديث قائلاً: كاترين.. تعالي من فضلك إلى المائدة. إلا إذا كنت ترغبين في تناول الشاي بارداً..

ولم يطل بقاء الضيف أكثر من ساعة، وسألته وأنا أودعه إن كان ذاهباً إلى جيمرتون، فقال: لا.. إلى «مرتفعات وذرنج»، فقد دعاني مستر هندلي إيرنشو عندما زرته هذا الصباح.

وظلت كلماته تطن في رأسي.. مستر إيرنشو يدعوه! وهو يزور مستر إيرنشو! وكان يخامرني شعور عميق بأنه كان من الأفضل إن يظل هيثكليف بعيداً عنا. وقد حدث عند منتصف الليل تقريباً أن أيقظتني مسز لينتون من

نومي، وقالت: لا أجد طعماً للنوم يا نيللي. وادجار حاد المزاج.. فعندما بدأت امتدح هيثكليف لم يتمالك نفسه وأخذ يصيح غاضباً.. وعندئذ تركته.

فسألتها: وماذا يدعون إلى امتداح هيثكليف أمامه؟ دعي مستر لينتون وشأنه، اللهم إلا إذا كنت ترغبين في أن ينشب عراك بينهما.

وتابعت حديثها قائلة: ولكن أليس هذا دليل ضعف شديد.. أليس في تصرفه شيئاً من رواسب الطفولة.. لقد كان يجدر به ألا يريق دموعه لأنني قلت أن هيثكليف أصبح الآن جديراً بالتقدير والاحترام.

فسألتها: ولكن.. ما الذي ترينه في ذهابه إلى «مرتفعات وذرنج»؟

- قال إنه ذهب إلى هناك ظناًمنه أنه سوف يجدك، لكي يعرف منك آخر أخباري. وقام جوزف بأخبار هندلي بوجوده، فخرج إليه أخي، وراح يسأله كيف كان يعيش طوال هذا الوقت، ثم طلب منه أن يدخل.. ووجد بعض أشخاص يلعبون الورق، فانضم إليهم هيثكليف وخسر أخي مبلغاً كان من نصيب هيثكليف. وعندما لاحظ أخي أن جيبه عامر بالمال، دعاه إلى الحضور في المساء ثانية لاستئناف اللعب. ولم يشغل هندلي باله بالتفكير في الأسباب التي قد تدفعه إلى التوجس من شخص سبق أن جرح كرامته وأهان كبرياءه. ولكن «هيثكليف» أكد لي أنه يرغب في الإقامة على بعد خطوات من «الجرانج» وأنه سيعرض على أخي أجراً مرتفعاً نظير السماح له بالإقامة في «المرتفعات». ولا شك أن أخي سيقبل العرض نظراً لحاجته الماسة إلى المال.. لقد كان شرهاً دائماً!

فقلت: ألا تشعرين بالخوف من العواقب يا مسز لينتون؟

أجابت: لا أشعر بأي خوف على صديقي، لأن لديه من حصافة الرأي ما يصونه من الأخطار. أما «هندلي» فإنني لا أخاف عليه كثيراً، فقد بلغ الآن أدنى درجة من السقوط الأدبي، ولا مجال للمزيد... وسأحول دون أي خطر بدني يتهدده من جانب «هيثكليف».. أن عودة هيثكليف هذا المساء تعد إيذاناً بعقد صلح بيني وبين الله والإنسانية. ولكي أبرهن لك على ذلك، فإنني سأذهب فوراً إلى «إدجار» وأصالحه. طابت ليلتك يا نيللي.. لقد أصبحت الآن ملاكاً!

وقد استطاعت «كاثرين» أن تحقق نجاحاً في إصلاح ما بينها وبين زوجها، ظهرت آثاره واضحة في اليوم التالي، إذ لم يفارقه عبوسه فحسب، بل إنه وافق على أن تصطحب «كاترين» أخته معها بعد الظهر إلى «مرتفعات وذرنج». وقد عبرت له عن امتنانها بفيض من الرقة والحب.

أما هيثكليف –أو مستر هيثكليف كما أصبح ينبغي أن أدعوه بعد ذلك- فقد بدأ في استغلال حريته في زيارة «ترشكروس جرانج» بحذر في بداية الأمر، ولكنه لم يلبث تدريجياً أن اكتسب لنفسه الحق في توقع حضوره في أي وقت.

ولاح في الأفق مصدر جديد للمتاعب لم يكن في الحسبان، فقد انتاب «إيزابيلا لينتون» ميل مفاجئ وجارف نحو ذلك الضيف الجديد. وكانت في ذلك الحين شابة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها، تتميز ببساطة الطفولة في سلوكها، وإن كانت حادة الذكاء، رقيقة الأحاسيس، سريعة الغضب إذا استثيرت. وقد فزع أخوها –الذي كان يحبها حباً شديداً- من هذا الغرام الجنوني، ذلك أنه فضلاً عن احتمال انتقال أملاكه إلى يد شخص هيثكليف. في حالة عدم إنجابه وريثاً ذكراً، فإنه كان من الفطنة بحيث أدرك أنه على الرغم من التغيير الذي طرأ على مظهر هيثكليف الخارجي. إلا أن عقليته لم تتغير، بل إنها غير قابلة للتغيير. وكان إدجار يخشى هذه العقلية، بل أنها كانت تثيره. ولذلك فزع من فكرة زواج هيثكليف من إيزابيلا، ولا شك أن فزعه كان سوف يتضاعف، لو أنه عرف أن غرام إيزابيلا كان من جانبها وحدها، وأن هيثكليف لم يحاول إغواءها.. ومنذ اللحظة التي اكتشف فيها هذا السر، بدأ يلقي اللوم على هيثكليف. وبتهمه بتدبير هذه الخطة لكي يستولي على ثروة آل لينتون.

وكنا جميعاً قد لاحظنا في الفترة الأخيرة أن مس لينتون أصبح ينتابها القلق والاضطراب.. لسبب مجهول. وأنها صارت ضيقة الصدر، كثيرة التبرم نتحين الفرص وتختلقها لكي تتشاجر مع كاترين باستمرار وذات يوم ثارت ثائرتها، وقررت أن سبب شفائها هو ما تلقاه من خشونة كاترين وفظاظتها.

فصاحت السيدة: كيف تزعمين أنني أعاملك بخشونة؟ ومتى كنت فظة معك؟

فتأوهت إيزابيلا قائلة: بالأمس.. والآن!

فقالت زوجة أخيها: بالأمس.. في أية مناسبة؟

- عندما كنا نتنزه في البراري، وبينما كنت تسيرين مع مستر هيثكليف طلبت إلي أن أذهب حيثما أشاء!

فقالت كاترين: وهل هذا ما تعنيه بخشونتي؟

فبكت السيدة الصغيرة وقالت: نعم.. لقد أردت أبعادي لأنك تعلمين أنني أحب أن أكون معكما.

فتساءلت مسز لينتون وهي تنظر إلي: هل هي عاقلة؟

وبكت إيزابيلا قائلة: لقد أردت أن أكون معه.. ثم أنني لا أحب أن أنحى عن الطريق دائماً. وأنت لا تريدين أن تري أحداً محبوباً سواك يا كاتي! ولكن أحبه أكثر مما أحببت أنت إدجار يوماً من الأيام. ولقد كان هذا أيضاً خليقاً بأن يحبني، لو أنك تركته..

فقالت كاترين وفي صوتها نبرة الإخلاص: إنني لا أرضى أن أكون مكانك ولو قدم لي عرش مملكة.. ساعديني بربك يا نيللي على إقناعها بجنون ما تذهب إليه.. قولي لها من يكون هيثكليف. إنه يهشمك كبيضة العصفور يا إيزابيلا إذا أحس أنك أصبحت حملاً متعباً.. وهو لا يمكن أن يحب أحداً من آل لينتون، ومع ذلك فهو خليق بأن يتزوج من ثروتك.. وهذه هي صورته كما أراها، وإن كنت مع ذلك صديقته. ولو أنه فكر في الإيقاع بك، فربما كان حرياً بي أن أمسك لساني، وأدعك تسقطين في شراكه.

فصاحت إيزابيلا في غضب: يا للعار!.. إنك صديقة قاتلة!

فقالت كاترين: آه.. إذن أنت لا تريدين أن تصدقينني؟ هل تظنين أنني أقول لك ذلك بوحي من الأنانية الشريرة؟

فأجابت إيزابيلا: على ثقة من ذلك..

فصاحت الأخرى: حسن. فلتجربي إذن بنفسك!..

وما كادت مسز لينتون تغادر الغرفة، حتى أخذت الفتاة تبكي وهي تقول: إنها تردد الأكاذيب.. أليس كذلك؟ إن مستر هيثكليف ليس شيطاناً كما هي تصوره.. إن له روحاً شريفة، أليس كذلك يا نيللي؟

قلت: أطرحيه بعيداً عن تفكيرك يا آنستي.. لقد كانت مسز لينتون عنيفة في حديثها، ومع ذلك فلا أستطيع أن أنقض ما قالته، فهي أدري بقلبه مني ومن أي شخص آخر. إن الناس الأمناء الشرفاء لا يخفون أفعالهم، وإلا فخبريني كيف يعيش طوال هذه السنين؟ وكيف أصبح ثرياً؟ ولماذا يقيم في «مرتفعات وذرنج» في بيت رجل يمقته أشد المقت؟ إنهم يقولون أن مستر إيرنشو سيء. وقد ازداد سوءاً منذ مقدمه. وهما يقضيان الليل جالسين سوياً على الدوام. وهندلي يفترض منه بضمان أرضه. وقد أصبح لا يفعل شيئاً إلا أن يشرب أو يقامر، وبعد ذلك يذهب مال هندلي إلى جيوب هيثكليف.. والآن لا أحسبك يا مس لينتون راغبة في الزواج من رجل مثله.. أليس كذلك؟

وفي اليوم التالي، اضطر سيدي على الرحيل لإنجاز بعض أعماله. وعندما علم هيثكليف بغيابه، بكر بالحضور. وكانت كاترين وايزابيلا جالستين في غرفة المكتبة صامتتين بسبب ما بينهما من جفوة وخصام.

وهتفت السيدة في مرح: أدخل!.. هنا شخصان في حالة يرثى لها، وفي حاجة إلى شخص ثالث يذيب الثلوج التي انعقدت بينهما. يسعدني يا هيثكليف أن أقدم لك بكل فخر شخصاً يحبك أكثر مني.. أن شقيقة زوجي المسكينة يتفطر قلبها لمجرد تأمل جمالك وروحك العذبة. وفي يدك وحدك أن تصبح صهراً لادجار!.. كلا.. كلا.. لا تهربي يا «إيزابيلا».

واستطردت السيدة في حديثها وهي ممسكة بذراع الفتاة التي كانت تقف منفعلة بالغضب. قالت: لقد قالت لي أنني لو كنت كريمة الأخلاق لأخليت لها الطريق، فإنها غريمتي كما تود أن تجعل من نفسها..

فصاحت إيزابيلا: كاترين.. أرجوك.. دعيني أرحل.

ولكن مسز لينتون صاحت قائلة: محال.. إنني مصرة على بقائك! وأنت يا هيثكليف.. لماذا لا تظهر الغبطة لهذه الأخبار السارة التي أحملها لك.

فقال هيثكليف: على أية حال.. أنها لا تريد صحبتي الآن..

ثم راح يرمق إيزابيلا بحدة، كما يرمق الإنسان حيوانًا غريبًا كريه المنظر. ولم تحتمل المسكينة هذه النظرة، فتباين وجهها بين الشحوب والتورد في تتابع سريع وترقرقت الدموع في عينيها، واستخدمت أصابعها وأظافرها في محاولة الخلاص من قبضة كاترين القوية.

وصاحت مسز لينتون وهي تخلي سبيلها وتنفض يديها من فرط الألم، أيتها النمرة المتوحشة.. أغربي بربك عن وجهي. وأنت يا هيثكليف، يجب أن تحترس من أن تنشب أظافرها في عينيك..

فأجاب هيثكليف في وحشية، بعد أن أغلق الباب خلف الفتاة سأنتزعهم من أصابعهم هددتني بهم.. ولكن ماذا تقصدين يا كاتي بإغاظة تلك الفتاة على هذا النحو؟ إنك لم تقولي لي الحقيقة.. أليس كذلك؟

فقالت كاترين: أؤكد لك أنني لم أقل شيئًا سوى الحقيقة.. ولكن لا تقم وزنًا لهذا الأمر، فإن كل ما أبغيه هو أن أعاقبها على سوء أدبها.. ومع ذلك فإنني أحبها كثيراً يا عزيزي هيثكليف، ولن أدعك تنقض عليها لتلتلهمها.

فقال: وأنا أكرهها بحيث لا أفكر في هذه المحاولة.. وبعد فترة صمت قصيرة، استطرد قائلاً: أليست هي وريثة شقيقها؟

فأجابت على أنه سوف يحرم ستة من أبناء أخيها من الميراث.. والآن، فلنبعد عن تفكيرنا هذا الخاطر..

وطرحا الحديث في هذا الموضوع جانبًا، فلم يتردد بعد ذلك على لسانهما. وربما تكون كاثرين قد وفقت في نبذه بعيداً عن تفكيرها تماماً.. أما هيثكليف فإنني على ثقة بأنه كان يعاود التفكير فيه طوال تلك الأمسية.

- 11 -

وذات يوم كنت ذاهبة إلى «جيمرتون»، فسلكت طريقًا غير الطريق المألوف، حتى بلغت بوابة المزرعة في «مرتفعات وذرنج»، ورأيت غلامًا أسود العينين يقف في المزرعة.. وكان هيرتون ابني هيرتون.. الذي لم يتغير كثيرًا خلال العشرة أشهر التي فارقته فيها. وهتفت به قائلة:

- فليباركك الله يا حبيبي. هيرتون.. إنني نيللي!. نيللي مربيتك.

فتراجع إلى الخلف مسافة ذراع، ثم التقط حجرًا كبيرًا. واستطردت أنا قائلة: لقد أتيت لأرى أباك يا هيرتون!..

وقذف الحجر فأصاب قبعته، بينما تدفق من بين شفتي الغلام الصغير سيل من الشتائم واللعنات. وأحزنني ذلك، وكنت على وشك البكاء. وأخرجت برتقالة من جيبي وقدمتها له، فاختطفتها من يدي. وأخرجت برتقالة أخرى جعلتها بعيدة عن متناول يده، وأنا أسأله: من الذي علمك الألفاظ الجميلة يا بني؟.. أهو القسيس؟!

فأجابني: لعنة الله على القسيس وعليك.. أعطني هذه البرتقالة.

قلت له: أخبرني أولاً أين تتلقى دروسك، وسوف أعطيها لك.. ومن هو مدرسك؟

وكان جوابه: الشيطان أبي!

واستطردت أسأله: وما تتعلم من أبيك؟

فأجاب: لا شيء سوى أن أظل بعيدًا عن طريقه.. وهو يتجنب لقائي لأنني أسبه دائمًا.

- آه.. ومن الذي علمك أن تسب أباك؟

- هيثكليف..

وسألته عما إذا كان يحب مستر هيثكليف، فأجابني قائلاً: نعم..

وتابعت سؤاله قائلة: ألا يعلمك القسيس القراءة والكتابة إذن؟

- لا.. فقد قيل لي أن القسيس سوف يبتلع أسنانه في جوفه، إن هو وضع قدمه على عتبة الدار.. وهيثكليف هو الذي وعدني بذلك.

فوضعت البرتقالة في يده، ودرت على عقبي في الحال، وانطلقت أعدو في الطريق وعندما حضر هثكليف للزيارة بعد ذلك. تصادف إن كانت سيدتي الصغيرة في الفناء. وكنت أعلم أنه لم يكن من عادته أن يجامل مس لينتون دون مناسبة، ولكنه في ذلك الوقت كان واقفاً إلى جوار نافذة المطبخ، فتواريت عن أنظاره سريعاً.. ورأيت يجتاز الفناء حتى أصبح في مواجهتها، وقال لها كلاماً يبدو أنه أخجلها، فقد همت بالابتعاد عنه، ولكنه أمسك ذراعها بيده ليمنعها من ذلك وإذ حولت وجهها بعيداً عنه، ألقى نظرة أخرى سريعة على البيت، واعتقدت بعدها أن أحداً لا يراه، فتقدم الوغد واحتضنها وقبلها. وهتفت أنا: يا لك من مخادع عريق!

وإذ ذاك سمعت صوت كاترين إلى جانبي يقول: من تعنين بذلك يا نيللي؟

فأجبتها في حرارة: إنه صديقك الحقير!.. أنني أتعجب حقاً.. هل يجد لديه عذراً كافياً يبرر به مغازلته لمس إيزابيلا، في حين أخبرك بكراهيته لها؟

ورأت مسز لينتون محاولات إيزابيلا للخلاص من أحضانه، ثم وهي تجري هاربة إلى الحديقة. وفي اللحظة التالية فتح هيثكليف الباب ودخل.

وقالت كاترين: هيثكليف.. ما الذي تبغيه من وراء أفعالك هذه؟ ألم أقل لك أنك يجب أن تترك إيزابيلا لحالها.. إنني أرجوك أن تفعل ذلك، إلا إذا كانت قد مللت التردد على هذا البيت، وتريد أن يوصد لينتون أبوابه في وجهك.. لماذا تجاهلت رجائي؟ هل اعترضت طريقك عن عمد؟

فزمجر قائلاً: وما شأنك أنت؟ من حقي أن أقبلها متى شئت، وليس من حقك الاعتراض، فإنني لست زوجك.. إلا إذا كنت تغارين عليّ!

فأجابت السيدة: لست أغار عليك. وإذا كنت تحب إيزابيلا، فأقسم إنك سوف تتزوجها. ولكن، هل تحبها؟ قل لي الحقيقة يا هيثكليف. آه.. إنك لا تريد أن تجيب، وإنني على يقين من إنك لا تحبها.

فقال هيثكليف: إنني على استعداد لأن أقطع عنقي، إذا تصورت إنك ترغبين حقاً أن أتزوج من إيزابيلا. وفي نفس الوقت فإنني أشكرك أنك بحت لي بسر شقيقة زوجك، وأقسم لك إنني سوف أستغله إلى أبعد الحدود.

وانقطع الحديث بينهما عند هذا الحد، وتركتهما وذهبت أبحث عن السيد. وسألني: هل رأيت سيدتك يا إيلين؟

- نعم إنها في المطبخ يا سيدي، فقد أغضبها مسلك هيثكليف إلى حد الحزن.

ومضيت أسرد عليه ما حدث في الفناء، فلم يتمالك نفسه وصاح: إن هذا أمر لا يطاق!.. ومن العار أن تتخذ منه كاترين صديقاً، وتفرض عليّ صحبته. استدعي خادمين يا نيللي، فن أدع كاترين تستطرد طويلاً طويلاً في مناقشة هذا الوغد الذميم.. لقد جاملتها بما فيه الكفاية.

ونزل إلى الطابق الأرضي، ثم أمر الخادمين بالانتظار في الممر، ودخل إلى المطبخ وأنا أتبعه، ووجدنا سيدتي وهيثكليف قد عاودا مناقشتهما الغاضبة، فصاح لينتون موجهاً حديثه لزوجته، كيف سولت لك نفسك أن تبقي هنا لحظة واحدة، بعد ما بدر من سلوك هذا الوغد السافل؟

وسألت السيدة زوجها بنبرات فيها إثارة واستفزاز: هل كنت تسترق السمع من وراء الباب يا إدجار؟

وهنا أطلق هيكليف ضحكة تعبر عن الاستهزاء والسخرية. ولكن إدجار أجاب بهدوء: لقد صبرت عليك طويلاً، ليس لأنني أجهل سوء أخلاقك، ولكن لأنني كنت أشعر بأنك لست مسؤولاً عنها كل المسؤولية.. وعندما أبدت كاترين رغبتها في أن تبقى على صداقتك، وافقتها بغباء. ولكن وجودك ينفث السموم، ويقضي على الفضيلة. ولهذا السبب، وحتى أتجنب سوء العاقبة،

فإنني أمنعك من الحضور إلى هذا البيت بعد الآن.. وأطلب منك أن ترحل فوراً.

فقال هيثكليف: إنني أرى حملك الوديع يا كاتي يهددني بلغة الثيران.. يا إلهي.. إن ما ما يؤسفني حقاً يا مستر لينتون أنك لست أهلاً لأن أصرعك!

فنظر سيدي إلى الممر وأشار إلى أن أدعو الرجلين، ولكن مسز لينتون ارتابت في الأمر، فجذبتني إلى الداخل، وأغلقت عليّ الباب وأوصدته بالمفتاح. ثم قالت: يا لها من أساليب شريفة إن لم تكن تجد في نفسك الشجاعة لمهاجمته، فاعتذر له أو دعه يهزمك. لقد لقيت منكما أطيب الجزاء على ما قدمته من عطف. وبعد احتمالي الطويل المستمر لضعف أحدكما وسوء خلق الآخر، فإنني أتلقى منكما الشكر الجزيل ممثلاً في نموذجين من الجمود الأعمى.. ولعلمك يا إدجار، فإنني كنت أدافع عنك وعن ذويك، أما الآن فإنني أتمنى أن يجلدك هيثكليف حتى تخور قواك.. بعد أن جرؤت على إساءة الظن بي!

وحاول السيد أن ينتزع المفتاح من قبضة كاترين، ولكنها قذفت به في قلب النار. فاستولت على مستر إدجار رعدة عصبية، وشحب وجهه، واستند إلى ظهر أحد المقاعد وقد غطى وجهه بيديه.

وقال صديقها: كم أود أن تستمتعي يا كاتي بمنظر هذا الجبان الذي يجري اللبن في عروقه بدل الدماء.. هذا المخلوق الرعديد الذي فضلته عليّ.

ثم اقترب هيثكليف، وركل المقعد الذي كان يستند عليه لينتون فإذا بسيدي يقفز بسرعة، ويوجه إليه لكمة في عنقه تقطعت لها أنفاسه لحظة. وبينما هو في هذه الحالة، خرج مستر «لينتون» من الباب الخلفي إلى الفناء، ثم توجه من هناك إلى المدخل الأمامي. وصاحت «كاترين» في هيثكليف: أرأيت؟ لقد قطعت على نفسك طريق الحضور إلى هنا. انصرف الآن، لأنه سيعود وفي يديه المسدسات ومعه ستة من الأعوان لقد أسأت إلي إساءة بالغة يا هيثكليف.. ولكن، اذهب الآن سريعاً..

فزمجر «هيثكليف» بصوت كالرعد: هل تظنين أني سوف أرحل وهذه اللطمة تحرق عنقي؟ بحق الشيطان.. لن أرحل! سوف أحطم ضلوعه

كبندقية معطوبة قبل أن أخطو خطوة واحدة خارج البيت وإذا لم أطرحه أرضًا الآن، فإنني سوف أقتله في يوم من الأيام.

فقلت وأنا أدعي كذبًا: أنه لن يعود، ولكنه سيبعث بالحوذي والبستانيين.. فلا تنتظر حتى يلقوا بك في عرض الطريق.. وتذكر أن كل واحد منهم يحمل سلاحه لكي يقتلك.

وكان الحوذي والبستانيان يقفون هناك، ولكن مستر «لينتون» كان يقف معهم. وفكر هيثكليف في الأمر ثم قرر أن يتجنب المعركة مع الخدم الثلاثة.. وكان أن تناول محرك النار، فهشم به قفل الباب الخارجي ثم انطلق هاربًا.

وكان يبدو على مسز «لينتون» الاضطراب الشديد. ولذلك أمرتني بأن أرافقها إلى الطابق العلوي. ولم تكن على علم بالدور الذي أسهمت به في إثارة هذا الموضوع، وكنت بدوري أود أن تضل على جهلها.

وألقت بنفسها على الأريكة وهي تصيح: إنني أكاد أفقد عقلي يا نيللي.. أطلبي إلي إيزابيلا أن تتجنب لقائي. وقولي لادجار إنني مهددة بمرض خطير، وأتمنى أن يحدث ذلك فعلاً، لأنني أريد أن أثير فزعه.. وإذا عجزت عن الاحتفاظ بصداقة هيثكليف وإذا انقلب إدجار حقوداً غيوراً، فسوف أحاول تحطيم قلبيهما.. بأن أحطم قلبي.

ولم أشأ أن أثير فزع زوجها كما طلبت، ولذلك لم أقل للسيد شيئًا عندما التقيت به وهو في طريقه إلى غرفة الجلوس، ولكني أبحث لنفسي أن أعود واسترق السمع إذا ما كان سيعاودان الشجار مرة أخرى. وبدأ هو الحديث دون أن تشوب حديثه أية نبرة غضب، وإن كان يشوب نبراته الحزن والأسى. قال: لن أبقى طويلاً يا كاترين. وما جئت هنا للشجار أو المصالحة، ولكني جئت لأعرف ما إذا كنت تنوين التخلي عن هيثكليف بعد الآن أو تريدين التخلي عني.. فمن المستحيل أن تكوني صديقتي وصديقته في الوقت نفسه.. وإني أصر على أن أعرف أينا تختارين.

فصاحت كاترين ثائرة: أنني أصر على أن أكون وحدي.. إنني أطالبك بذلك. ألا ترى أنني لا أستطيع احتمال المزيد؟ إدجار.. أرجوك أن

تتركني!

ثم أخذت تشد حبل الجرس حتى انقطع، ودخلت الحجرة وأنا أسير على مهل، فوجدتها جالسة وقد تملكتها ثورة شريرة، وأخذت تضرب رأسها دون وعي في مسند الأريكة، بينما كان مستر لينتون واقفًا ينظر إليها وقد سيطر عليه الخوف.

وخفت أن يلين أو يستسلم، فهمست في أذنه وأنا أغالب الخوف الذي بدأ يتسرب إلى أعماق قلبي: لا خوف عليها.. مطلقًا!..

ولكنها سمعت همسي، فإذا بها تنتفض فجأة، وتندفع خارجة من الغرفة، ثم توصد باب مخدعها على نفسها.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إليها لأسالها عما إذا كانت تود أن أحمل لها طعام الأفطار، فأجابت: كلا.. وكررت نفس السؤال في موعد الغداء، وفي موعد تناول الشاي، وكذلك في اليوم التالي، وكنت أتلقى الإجابة نفسها. وكان مستر لينتون يقضي وقته في المكتبة، ولم يسأل عما تفعله زوجته. وأمضي مع إيزابيلا ساعة يحادثها ويحاول أن يستخلص منها ما ينم عن استيائها من ملاحقات هيثكليف، ولكنه لم يفز بطائل من إجاباتها المبهمة.

-12-

وفي اليوم الثالث، فتحت مسز لينتون باب غرفتها، وطلبت شيئًا من الماء لأنها اعتقدت أنها مشرفة على الموت. وقد صارحتني بذلك ظنًا منها أنني سوف أنقل ذلك إلى مسامع إدجار. ولكنني لم أصدق أن حالتها قد بلغت هذه الدرجة من السوء، ولذلك احتفظت بما زعمت لنفسي. وأحضرت لها قليلاً من الشاي وبعض الكيك الجاف، فأكلت وشربت بنهم، ثم استقلت على وسادتها ثانية. وبعد فترة من الوقت سمعتها تغمغم قائلة: كلا، لن أموت.. فسوف يسعده موتي.. إنه لا يحبني أبدًا.. ولن يفتقدني على الإطلاق.

وسألتني: ماذا يفعل ذلك المخلوق الجامد الأحاسيس؟ هل استغرق في النوم أو أنه قد مات؟

فأجبت: إذا كنت تقصدين مستر لينتون، فإنه لم يتعرض لهذه الحالة أو تلك.. إنه في حالة طيبة على ما أظن، فهو يقضي معظم وقته بين كتبه، بعد أن وجد فيها خير رفيق منذ أن افتقد صحبة الآخرين.

وما كان ينبغي أن أقول لها ذلك فيما لو كانت قد وقفت على حقيقة حالتها، ولكنني لم أستطع التخلص من تلك الفكرة التي سيطرت علي، وهي أن جانبًا كبيرًا من مظاهر حالتها السيئة كانت تمثيلاً.. ولم أكد أنطق بإجابتي حتى صاحت في دهشة: بين كتبه، بينما أنا أموت هنا!.. وأنا على حافة القبر؟.. يا إلهي.. هل يعلم كم تغيرت؟

فأجابت: لماذا يا سيدتي؟ إن السيد لم يخطر بباله إنك متوعكة. ومن هنا لم يخامره أي شك في أنك سوف تفعلين ذلك بنفسك، فتموتين من الجوع.

فعاودت السؤال: هل تظنين أنني لن أفعل ذلك؟ ألا يمكنك أن تخبريه أنني سأفعل ذلك؟.. لو أنني كنت على يقين فقط من أن ذلك سوف يقضي عليه، لقتلت نفسي بلا تردد. لقد قضيت هذه الليالي الثلاث دون أن يغمض لي

جفن. أوه.. لقد تعذبت، وطاردتني الأشباح.. ولكن ماذا يفعل بالكتب، بينما أنا مشرفة على الموت؟

ولم تحتمل تجاهل مستر لينتون لها، فازداد اضطرابها المحموم حتى بلغ ذروة الجنون، وأخذت تمزق الوسادة بأسنانها. ثم رفعت جسمها وهي تشكو من النار التي تسري في بدنها، وطلبت مني أن أفتح النافذة، وكنا في منتصف الشتاء في ذلك الوقت، والريح تهب قوية عنيفة من الشمال الشرقي، ولذلك اعترضت على إجابة طلبها. وبعد أن كانت منذ لحظات عنيفة ثائرة، استندت على إحدى ذراعيها دون أن تنتبه إلى رفضي إطاعة أمرها بفتح النافذة، وبدت كأنها وجدت تسلية صبيانية في جذب الريش من الثقوب التي أحدثتها في الوسادة. وفجأة سألتني وهي تحملق في المرآة: هل ترين ذلك الوجه؟

وعندما فشلت في إفهامها أن ذلك الوجه ليس إلا وجهها هي، غطيت المرآة بشال. ولكنها لم تلبث أن قالت في اضطراب: إنه لا يزال هناك.. خلف الشال! من هذا؟ أرجو أن يخرج من مكمنه بعد أن تغادري الغرفة! أوه يا نيللي.. الغرفة تسكنها الأشباح، وأنا خائفة من البقاء فيها وحدي!

وتشبثت أصابعها بالغطاء، ثم جمعته وغطت به عينيها.. وعندئذ حاولت أن أتسلل إلى الخارج وفي نيتي أن استدعي زوجها. ولكن صرخة ثاقبة جعلتني أعود أدراجي. ونظرت فوجدت الشال قد سقط من فوق المرآة، فصحت بها قائلة: لماذا تصرخين؟ ماذا حدث؟ إنها المرآة.. المرآة يا مسز لينتون. وأنت ترين نفسك فيها. وها أنذا أظهر فيها أيضاً.. إلى جوارك.

وأمسكت بي في قوة وهي ترتجف، ثم لم يلبث الفزع أن بدأ ينقشع عن وجهها تدريجيا، وتنهدت قائلة: أوه يا عزيزتي. لقد حسبت أنني أقيم في منزلي. خيل إلي أنني أرقد في غرفتي بمرتفعات وذرنج، وقد اختلط الأمر في ذهني بسبب ضعفي، ولذلك صرخت دون وعي.

وكانت وقتئذ ترقد في سكون، وقد سبح وجهها في بحر من الدموع. ثم سألتني: كم مكثت حبيسة هذه الغرفة؟

فأجبت: كان ذلك مساء الاثنين، ونحن الآن في ليلة الخميس.

فتمتمت قائلة: حسن. أنها تبدو عدداً من الساعات المريرة. إني أذكر ما حدث في البهو بعد أن تشاجرا.. حين راح إدجار يثيرني بقسوة، فانطلقت أعدو هاربة إلى هذه الغرفة وقد تملكني اليأس. وما كدت أغلق الباب حتى اكتنفني ظلمة حالكة السواد، وتهاويت على الأرض وخيل إلي أنني أرقد هناك في بيتي.. في تلك الخزانة ذات الفتحات المربعة المصنوعة من خشب البلوط. وأن قلبي يتقطع من حزن عظيم.. وإنني عدت طفلة. وأن أبي قد ووري التراب تواً، وبدأ بؤس من ذلك الفراق بيني وبين هيثكليف الذي فرضه هندلي. أوه.. إنني أحترق! كم أتمني أن أكون في الخلاء الآن! كم أود أن أعود فتاة صغيرة من جديد.. متوحشة وصارمة وحرة.. واسخر من الاهانات التي توجه إلي، دون أن تثير غضبي كما هو شأني الآن. لماذا تغيرت كل هذا التغير؟ إنني على ثقة بأنني سأعود إلى حالتي الأصلية إذا عدت مرة أخرى إلى تلك الأحراش فوق تلك التلال.. افتحي النافذة على مصراعيها. سأفتحها أنا بنفسي!..

وهبطت من فراشها قبل أن أستطيع منعها، وفتحت النافذة، وأطلت منها غير مبالية بالهواء الثلجي الذي كان يمزق كتفيها كسكين حادة. وحاولت إرغامها على العودة إلى الفراش، ولكني اكتشفت أن الحمى قد زودتها بقوة تفوق قوتي. ولم يكن ثمة ضوء ينبعث من قريب أو بعيد. ورغم أن أضواء مرتفعات وذرنج لم تكن تظهر على الإطلاق إلا أنها كانت تؤكد أنها ترى بريقها. ثم صاحت في لهفة:

- انظري.. هذه غرفتي، وفيها شمعة مضاءة، والشمعة الأخرى مضاءة في غرفة جوزيف. إن جوزيف سهران.. أليس كذلك؟ إنه ينتظر أوبتي إلى البيت حتى يغلق البوابة. حسن.. إنه سوف ينتظر طويلاً! إنها رحلة شاقة.. ولابد لنا من المرور بكنيسة جيمرتون لكي نقوم بهذه الرحلة. طالما تحدينا معاً أشباحها، وتراهنا على الوقوف بين القبور ودعوة الأشباح للظهور.. ولكن إذا راهنتك الآن يا هيثكليف، فهل تجرؤ على الوقوف هناك؟ لو إنك فعلت، فسوف أستبقيك معي.. ولن أرقد هنا وحدي. وقد يفدنونني على عمق اثني عشر قدماً، ولكنني لن استريح حتى ترقد معي.. لن أستريح أبداً!..

وفي تلك اللحظة سمعت صرير مزلاج الباب، وإذا بمستر لينتون يدخل، فهتفت به قائلة: أسرع يا سيدي.. إن سيدتي المسكينة مريضة، ولم أعد أستطيع السيطرة عليها فاندفع منزعجاً وهو يقول: كاترين مريضة؟ أغلقي النافذة يا إيلين.. كاترين.. لماذا؟

فصاحت في غضب: آه هل أتيت يا إدجار لينتون؟ ولكنك لا تستطيع أن تحول بيني وبين مسكني الضيق هناك.. موضع راحتي هناك، حيث قدر لي أن أرقد فيه قبل نهاية الربيع ولن يكون مكاني بين قبور آل لينتون تحت سقف الكنيسة، وإنما في الهواء الطلق، يعلوه قائم من الحجر.. أما أنت فلك أن تذهب إليهم إن كان يسرك هذا، أو أن تأتي إلي!

قال لها: ماذا فعلت بنفسك يا كاترين؟ ألم أعد أمثل شيئاً بالنسبة لك؟ هل تحبين ذلك الوغد هيث.

فصاحت مسز لينتون: أسكت! لو ذكرت هذا الاسم، فسوف أضع حداً للمشكلة في الحال.. بإلقاء نفسي من النافذة. إن ما تلمسه الآن قد يكون لك، ولكن روحي ستكون فوق قمة هذا التل قبل أن تضع يديك عليّ ثانية. إنني لا أريدك يا إدجار، لم أعد أريدك. عد إلى كتبك لأن كل ما كنت تملكه مني قد انتهى!..

ولم أشعر بأدنى رغبة في البقاء. وعولت على البحث عن معونة الطبيب تحت مسئوليتي، ولذلك أسرعت بمغادرة الغرفة.

وعندما كنت أجتاز الحديقة، وفي المكان الذي يقع فيه المقعد إلى جوار الحائط، شاهدت شيئاً أبيض يتحرك، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن كلب مس إيزابيلا كان معلقاً بمنديل، فأسرعت بحل وثاقه. ولما كنت قد رأيته يتبع سيدته إلى الطابق العلوي عندما أوت إلى فراشها، فقد تساءلت في عجب كيف جاء إلى الحديقة.. وما كاد دكتور كينيت يسمع روايتي عن حالة كاترين لينتون الصحية، حتى أسرع بالحضور معي. وعندما وصلت «الجرانج»، وجدت الكلب الصغير ما زال في الحديقة. وكان على وشك الهروب إلى الطريق، لولا أن أمسكت به وحملته معي إلى الداخل. وتيقنت من ظنوني عندما صعدت إلى غرفة «إيزابيلا» فوجدتها خالية. ولم أجرؤ على إيقاظ الخدم وإشاعة الاضطراب في البيت، وكذلك لم يكن

بوسعي أن أبوح بالأمر للسيد ومشكلته الحالية تشغل كل فكره.. وبعد أن فحص الطبيب الحالة، أعرب لمستر لينتون عن أمله في الوصول إلى نتيجة طيبة. وقد أفضى لي بأن الخطر الداهم لم يكن في موتها، بقدر ما كان في تعرضها للإصابة بفقدان دائم لقواها العقلية!

ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة، وكذلك مستر لينتون.. حتى الخدم أنفسهم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير، وأخذ كل واحد منهم يعمل في همة وهدوء.. ولم تظهر مس إيزابيلا، وبدأوا يتهامسون عن نومها العميق.. وسأل أخوها أيضًا عما إذا كانت قد استيقظت من نومها، وبدا متلهفًا على حضورها.. وخشيت أن يبعث لي لاستدعائها. على أنني تجنبت محنة إعلان نبأ قرارها، فقد حدث أن ذهبت إحدى الخادمات في ساعة مبكرة إلى جيمرتون لتحضر شيئًا هناك، ولكنها لم تلبث أن عادت لاهثة، وصعدت إلى الطابق العلوي وهي تصيح: سيدي.. سيدي.. إن سيدتي الصغيرة هربت.. هربت!.. إن هيثكليف قد فر بها!..

فصاح لينتون: ليس هذا صحيحًا!.. لا يمكن أن يحدث ذلك! كيف طرأت مثل هذه الفكرة في رأسك؟

فأجابت: لماذا؟ لقد قابلت في الطريق غلامًا أخبرني أن سيدًا وسيدة قد توقفا لإصلاح حدوة الحصان عند حانوت الحداد الذي يقع على بعد ميلين من جيمرتون، وكان ذلك بعد منتصف الليل بقليل.. وكان السيد هو هيثكليف، أما السيدة فهي مس إيزابيلا!

وأسرعت إلى غرفة إيزابيلا لأتقصى حقيقة الأمر من باب الشكليات ثم عدت لأؤكد صدق رواية الخادم. وسألت: لماذا لا تحاول اللحاق بها وإعادتها إلى البيت؟ وكيف تفعل ذلك؟

فأجاب السيد: لقد ذهبت بمحض رغبتها واختيارها. ومن حقها أن تذهب ما دام ذلك يسعدها فلا تشغليني بأمرها ثانية، لأنها لم تعد منذ الآن شقيقتي إلا اسمًا.. لا لأنني أتبرأ منها، ولكن لأنها تنكرت لي وتبرأت مني!..

ظل الهاربان غائبين مدة شهرين. وفي خلال هذه المدة عانت مسز لينتون أسوأ صدمة مما يسمى بالحمى المخية. ولم يكن في إمكان أي أم أن تمرّض

طفلها الوحيدة بمنتهى الإخلاص أكثر مما فعل إدجار مع زوجته. ورغم ما أبداه الدكتور كينيت من أن إدجار يضحي بصحته وقوته في سبيل الحفاظ على حطام إنسان، إلا أن فرحة إدجار وعرفانه بالجميل لا يمكن وصفهما يوم أعلن الطبيب زوال الخطر عنها. وكان هناك سببان وراء ذلك.. فعلى حياتها كانت تتوقف حياة أخرى، كما أننا كنا نأمل ألا تمضي فترة وجيزة حتى يبتهج قلب مستر لينتون بمولد وريث له ينقذ أملاه من أن تقع في قبضة شخص غريب.

وقد بعثت إزيابيلا برسالة إلى أخيها بعد حوالي شهرين من هربها، أخبرته فيها بزواجها من هيثكليف، واعتقد أن لينتون لم يرد على هذه الرسالة.. وبعد شهرين تلقيت رسالة طويلة عجبت كثيراً لصدورها عن عروس فرغت لتوها من شهر العسل، وسوف أتلوها عليك لأنني ما زلت أحتفظ بها:

«عزيزتي إيلين..

لقد وصلت في الليلة الماضية إلى «مرتفعات وذرنج»، وهناك سمعت لأول مرة أن كاترين كانت وما زالت مريضة، وأحسب أنه ليس مفروضاً أن أكتب لها. كما أن شقيقي إما أن يكون شديد الغضب مني أو شديد الأسى بحيث أنه لم يرد على خطابي له.. وكان عليّ أن أكتب إلى شخص ما، وليس أمامي من أكتب إليه سواك..

وأحب أن تبلغي إدجار أنني على استعداد للتنازل عن الدنيا كلها في سبيل أن أرى وجهه مرة أخرى، ولقد حن قلبي إلى ترشكروس جرانج بعد مغادرتي لها بأربع وعشرين ساعة. بل إنه هناك في هذه اللحظة، ينبض بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاترين. وإن كان جسمي لا يستطيع أن يلحق بقلبي. [وقد وضعت خطاً تحت هذه العبارة].

وأحب أن أسألك: هل مستر هيثكليف إنسان؟ وإذا كان إنساناً، فهل هو مجنون؟ وإن لم يكن مجنوناً، فهل هو شيطان؟.. إنني لن أخبرك بحقيقة الأسباب التي دفعتني إلى سؤالك، ولكني أتوسل إليك أن تخبريني، إذا استطعت، بحقيقة الرجل الذي تزوجت منه عندما تحضرين لزيارتي.. ويجب

أن تحضري سريعًا يا إيلين، ولا تكتبي إليّ، وأتمنى أن تحضري لي شيئًا من ادجار.

والآن، اسمعي كيف استقبلت في بيتي الجديد، وهو المرتفعات كما قيل لي.. كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا في فناء المنزل، وخرج زميلك الخادم العجوز جوزيف ليستقبلنا على ضوء الشمعة.

وظل هيثكليف يتحدث إليه، فدخلت أنا إلى المطبخ حيث وجدته قذراً بلا نظام، فقد تغير تماماً عما كان عليه في عهدك. وكان يقف إلى جوار الموقد طفل قوي ولكنه زري الهيئة، قذر الثياب، له عين وفم كاترين نفساهما.. فقلت في نفسي إنه ابن أخ إدجار شرعاً وبالتالي فإنه يعد ابن أخي على نحو ما، ولذلك ينبغي أن أصافحه.. نعم، ينبغي أن أقبله.. واقتربت منه، وحاولت أن أتناول يده وأنا أقول له:

- كيف حالك يا عزيزي؟ هل سنكون أصدقاء يا هيرتون؟

فأجابني بالسباب، وتوعدني أن يطلق كلبه عليّ، ودفعني حب الحياة إلى الهرب خارجاً وتجولت في الفناء حتى وجدت نفسي أمام باب، لم يلبث أن فتح ورأيت من خلاله رجلاً طويل القامة، رث الثياب، تختفي ملامحه وراء غابة كثيفة من الشعر تنسدل حتى كتفيه، وكانت عيناه هو أيضاً تشبهان عيني كاترين، وإن كان جمالهما قد ذبل، واستقرت فيها نظرات مخيفة. وقد ابتدرني قائلاً: ما شأنك هنا؟ ومن أنت؟

فأجبت: كان اسمي إيزابيلا لينتون.. وقد رأيتني من قبل يا سيدي، لقد تزوجت أخيراً من مستر هيثكليف، الذي أحضرني إلى هنا.. بعد إذنك طبعاً.

فزمجر مضيفي الجديد قائلاً: «هل عاد؟ لقد أحسن الوغد الجهنمي صنعاً بالحفاظ على كلمته». وأمرني بالدخول، ثم أغلق الباب وأوصده. وسألته عما إذا كان يجدر بي أن أدعو الوصيفة لترشدني إلى غرفة النوم، ولكن مستر إيرنشو لم يحر جواباً، بل أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد وضع يديه في جيبه، وقد بدا عليه أنه قد نسي وجودي تماماً. وتذكرت أنه على بعد أربعة أميال فقط، يقع منزلي البهيج الذي يضم كل أحبائي على وجه الأرض، وتصورت أنه قد يكون المحيط الأطلسي هو الذي يفرق بيننا وليس

هذه الأميال الأربعة. ورحت أسائل نفسي أين أذهب لكي أنال قسطًا من الراحة.. وشعرت باليأس من العثور على شخص يستطيع أو يود أن يكون حليفي ضد هيثكليف.

وصحت قائلة: إنني متعبة من السفر، وأريد أن أذهب إلى الفراش.. أين الوصيفة؟

فأجاب إيرنشو: لا توجد هنا وصيفات، وعليك أن تعني بنفسك.

وعندئذ رحت انتحب وأنا أنوء تحت أثقال التعب والبؤس، وقلت له: إذن.. أين ينبغي أن أنام؟

فقال: إن جوزيف سوف يقودك إلى غرفة هيثكليف، وكوني فتاة طيبة، وأوصدي باب الغرفة بالمفتاح، ولا تنسي ذلك!

ولم ترق لي فكرة حبس نفسي مع هيثكليف في غرفة واحدة، فقلت: حسن.. ولكن لماذا يا مستر إيرنشو؟

فأجاب وهو يخرج من جيب صديريه مسدسًا غريب الشكل، إذ كانت تتصل بفوهته سكين ذات حدين: أنظري إلى هذا المسدس.. أنه أقوى إغراء بالنسبة لرجل يائس.. أليس كذلك؟ إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الصعود إلى أعلى كل ليلة ومسدسي في يدي، محاولاً فتح باب غرفته، ولو حدث مرة أن وجدت الباب مفتوحًا، فإن أمره بذلك يكون قد انتهى!

ورحت أتأمل السلاح بعناية، وطرأت على ذهني فكرة رهيبة، إذ كم أكون قوية لو أنني استطعت أن أمتلك سلاحًا مثله!.. وأخذته من يده، ولمست النصل، ولكنه أسرع فاختطفه مني، وطوى حد السكين ثم أعاد المسدس إلى مخبئه. وقال: إنني لا أكترث أن أنت أبلغته بذلك، ولكن نبهيه أن يأخذ حذره، واسهري على حمايته.. ويخيل إليّ أنك تعرفين ما بيننا من سوء العلاقة، ولذلك فإن الخطر الذي يتهدده لم يروعك!..

وسألته: ماذا فعل لك هيثكليف حتى تكن له كل هذا الحقد المروع؟ أليس من العقل أن تأمره بمغادرة البيت؟

فزمجر إيرنشو بصوت كالرعد وقال: كلا.. وإذا اقترح علي أن يرحل، فسوف يصبح جثة هامدة. هل قضي علي أن أفقد كل شيء، دون أن تتاح لي الفرصة لاستعادته؟ وهل قضي على هيرتون أن يصبح شحاذًا؟ آه.. يا للعنة! أقسم إنني سأستعيد كل شيء، وسوف آخذ ذهبه أيضًا، ثم دمه بعد ذلك، ولتذهب روحه إلى الجحيم.

ولقد سبق أن اطلعتني يا أيلين على عادات سيدك السابقة، ويبدو واضحًا أنه على حافة الجنون، أو هكذا كان يبدو على الأقل ليلة الأمس، وقد أقشعر بدني من مجرد البقاء قريبة منه، ولذلك فررت إلى المطبخ.

وما كدت ألقي بنفسي فوق أحد المقاعد، حتى رحت في سبات عميق وأيقظني مستر هيثكليف عند عودته من الخارج، وسألني بلهجته الحبيبة عما أفعل في هذا المكان. ولكني لن أعيد على مسامعك حديثه، ولن أصف لك مسلكه المعتاد، فهو لا يهدأ عن البحث عما يثير كراهيتي له.. وأؤكد لك أن نمرًا مفترسًا لا يستطيع أن يثير من الفزع في أعماقي مثلما يثيره هيثكليف.. وقد أخبرني بمرض كاترين. وأتهم أخي بأنه السبب في ذلك، وأقسم أنني سأنوب عن إدجار في تجرع كؤوس العذاب إلى أن يتمكن من اقتناصه..

إنني أكرهه.. إنني تعسة شقية. لقد كنت حمقاء، ولكن إياك أن تبوحي بكلمة واحدة من هذا لأحد في الجرانج. وسوف انتظر حضورك يومًا بعد يوم.. فلا تخيبي رجائي

إيزابيلا.

-14-

وما كدت أفرغ من قراءة الرسالة، حتى ذهبت إلى السيد وأخبرته أن أخته قد وصلت إلى «المرتفعات»، وأنها بعثت إلي برسالة أعربت فيها عن أسفها لمرض مسز «لينتون»، وعن رغبتها الشديدة في رؤيته، وأملها في أن يرسل إليها شيئًا معي يدل على صفحه عنها.

فقال لينتون: أصفح عنها! ليس لدي ما أصفح عنها من أجله يا إيلين ويمكنك أن تذهبي إلى «مرتفعات وذرنج» بعد ظهر اليوم إن شئت. ويمكنك أن تقولي لها أنني لست غاضبًا منها ولكني آسف لأني فقدتها. وبخاصة أنني لست موقنًا أنها سعيدة. ومع ذلك فإنني لا أفكر إطلاقًا في الذهاب لرؤيتها لأن فراقنا أصبح أبديًا.. أما إذا كانت على استعداد لأن تسدي إلي معروفًا، فدعيها تقنع الوغد الذي تزوجت منه بمغادرة البلاد.

وظللت طوال الطريق من الجرانج إلى المرتفعات، وأنا أشغل ذهني بمحاولة التخفيف من وقع كلمات إدجار عندما أرددها على مسامعها. ولم أر منظرًا أبشع وأفظع من المنظر الذي كان يبدو عليه منزلنا القديم المرح ولكن لابد لي من الاعتراف بأنني لو كنت مكان السيدة الصغيرة، لقمت على الأقل بكنس الأرض ومسح الموائد بقطعة من القماش، ولكنها كانت قد تأثرت بروح الإهمال التي تحيط بها. ولم يكن هندلي هناك، أما هيثكليف فكان جالسًا إلى منضدة، ولكنه نهض عندما رآني، وسألني بود عن أحوالي، ثم قدم لي مقعدًا. وكان هيثكليف هو الشيء الوحيد الذي يبدو محترمًا في هذا المكان. وقد لعبت الظروف دورًا كبيرًا في تبادل مركزيهما. فكان سلوك هيثكليف يوهم بكل تأكيد أي غريب بأنه قد ولد وتربى بين الأشراف، أما زوجته فكانت تبدو كأنها خادمة صغيرة قذرة، رثة الثياب.. وقد تقدمت إيزابيلا لتحيتي في لهفة، وهي تمد إحدى يديها لتتلقى الرسالة المنتظرة، فهززت لها رأسي، ولكنها لم تفهم معنى إشارتي، فهمست متوسلة أن أعطيها

ما أحضرته. وفطن هيثكليف إلى مدلول سلوكها، فقال: إذا كنت تحملين شيئًا لإيزابيلا، فأعطها إياه يا نيللي، فليس هناك أسرار بيننا.

فأجبت: أوه، ليس معي شيء، فقد أمرني سيدي بأن أخبر شقيقته بأنها يجب ألا تنتظر منه رسالة أو زيارة في الوقت الحاضر. وهو يبعث إليك بمودته يا سيدتي وتمنياته لك بالسعادة، ويعلن صفحه عما سببته له من أحزان، ولكنه يرى قطع العلاقة بين أهل بيته وأهل هذا البيت، حيث أنه لا يتوقع خيراً من قيامها.

فارتجفت شفتا مسز هيثكليف رجفة خفيفة. وعادت إلى مقعدها بجوار النافذة، بينما أخذ زوجها يسألني عن كاترين وأخبار مرضها.

وقلت: لقد بدأت مسز لينتون تتماثل للشفاء. لقد نجت من الموت، ولكنها لن تعود إلى حالتها الأولى. وإذا كنت ترجو لها الشفاء حقًا، فيجدر بك ألا تعترض طريقها مرة أخرى. لقد تغيرت صورتها إلى حد بعيد، كما أن أخلاقها قد تغيرات تغيراً بالغًا. ومودة زوجها تقوم الآن على ذكريات ما كانت عليه في يوم من الأيام، وبدافع من الإنسانية والشعور بالواجب.

فأجاب هيثكليف: هل تتخيلين أنني سوف أترك كاترين لواجبه وإنسانيته؟ يجب عليك أن تتيحي لي فرصة للقائها. سوف أراها حتمًا. فماذا تقولين؟

أجبت: أقول يا مستر هيثكليف إنه ينبغي عليك ألا تفعل ذلك. ولن تقابلها عن طريقي، فإن مواجهة أخرى بينك وبين السيد سوف تقتلها حتمًا.

فاستطرد قائلاً: يمكن تجنب ذلك بمساعدتك. وإذا أصبح سيدك مصدراً لتكدير صفو حياتها بسبب هذا اللقاء، فأظن أنني سأكون على حق إذا مضيت معه إلى آخر المدى.. وأرجو أن تكوني صادقة معي، فتخبريني إلى أي حد يمكن أن تتألم كاترين لموته. ذلك أن الخوف من إيلامها هو السبب الذي يحول بيني وبين القضاء عليه..

فقاطعته قائلة: ومع ذلك فأنت لا تتردد في تحطيم كل الآمال المعقودة على شفائها التام، وذلك بأن تقحم نفسك على ذاكرتها الآن، في الوقت

الذي أوشكت فيه على نسيانك، فتلقي بها في دوامة جديدة من القلق والشقاء.

قال: هل تظنين أنها أوشكت على نسياني حقًا؟ أوه يا نيللي.. إنك تعلمين أنها لم تنسني. وأنت أيضًا تعرفين كما أعرف أنها إذا فكرت في لينتون مرة، فإنها تفكر في ألف مرة، ولن يستطيع أن يحبها في مدى ثمانين عامًا مثل حبي لها في يوم واحد.. فكيف تستطيع أن تحب فيه شيئًا لا يملكه؟

فصاحت إيزابيلا: إن كاترين وادجار يحبان بعضهما بعضًا كأي اثنين من الناس.. ولست ارتضي أن أسمع اهانة أخي بأذني وأظل صامتة!..

فعلق هيثكليف على كلامها بازدراء. قال: إن أخاك مولع بك أشد الولع.. أيضًا. أليس كذلك؟.. فهو يتخلى عنك بسرعة مدهشة، ويتركك تهيمين على وجهك في الدنيا!

أجابت: إنه لا يعلم شيئًا عما أقاسيه من آلام.

فتدخلت قائلة: أن سيدتي الشابة تبدو حزينة وفي حالة سيئة بسبب زواجها، فقد تضاءل حب بعض الناس لها.. ويمكنني أن أخمن من يكون هؤلاء الناس.

فقال هيثكليف: أظن أن الذي تضاءل هو حبها هي، فقد تعبت سريعًا من محاولة إدخال السرور إلى نفسي، حتى أنها في صبيحة يوم عرسنا، ظلت تبكي طالبة العودة إلى منزلها.

عدت أقول: حسن يا سيدي.. أرجو أن تضع في اعتبارك أن مسز هيثكليف قد تعودت أن تجد من يرعاها ومن يقوم على خدمتها. وأنت لا تستطيع أن تشكك في فيض عواطفها الجارف، وإلا لما تركت كل أسباب الرفاهية والأصدقاء في بيتها القديم، وجاءت لتعيش معك في هذا البيت الذي يشبه البراري الموحشة.

فأجاب: لقد هجرت ذلك كله تحت وهم خادع جعلني أبدو في عينيها في صورة بطل أسطوري، وهذا ما يجعلني لا أنظر إليها كمخلوق عاقل. ولكني أحسب أنها بدأت تعرفني على حقيقتي أخيرًا. وكانت من الذكاء بحيث

اكتشفت أنني ما أحببتها قط. وقد أعلنتني هذا الصباح بأنني نجحت فعلاً في أن أجعلها تكرهني. ولكنني ما كذبت عليها وما تظاهرت بحبها. وقد تجنبت حتى هذه اللحظة أن أتيح لها من الأسباب ما يعطيها أبسط الحقوق التي تساعد على طلب التفرقة بيننا. وأكثر من ذلك أنها لن تشكر أحداً على إبعادها عني.. على أنها إذا رغبت في الذهاب، فلها ما تشاء.. ذلك أن المضايقات التي يثيرها وجودها تفوق متعة تعذيبها.

فقلت: هذا كلام رجل مجنون يا مستر هيثكليف.. والأرجح أن زوجتك قد اقتنعت بجنونك. وحيث أنك قد خيرتها في الذهاب، فلاشك أنها سوف تستفيد من هذا التصريح. وأظن أنك يا سيدتي لست مسلوبة الإرادة بحيث تفضلين البقاء معه باختيارك.

فأجابت إيزابيلا: كوني على حذرٍ يا إيلين، ولا تصدقي كلمة واحدة مما يقول! إنه شيطان كذوب وليس إنساناً! لقد أخبرني من قبل إنني أستطيع أن أتركه، وأقدمت على المحاولة، ولكني لا أجرؤ على تكرارها فيما بعد، ذلك أنه يسعى إلى بذر بذور اليأس في قلب إدجار. وهو يقول أنه ما تزوجني إلا لتكون له السيطرة عليه، ولكن أبداً لن يكون له ذلك.. سوف أموت قبل أن يحقق أمنيته. وإنني أرجو، وأدعو السماء، أن ينسى حذره الشيطاني، فيقتلني. أن أمنيتي الوحيدة الآن هي أن أموت أو أن أراه ميتاً!..

فصاحٍ هيثكليف: أخرسي.. يكفي هذا الآن، واصعدي إلى الطابق العلوي فإن لدي شيئاً أريد أن أقوله لإيلين على انفراد.

وأمسك بها، ثم ألقى بها خارج الغرفة، وقال لي: والآن اسمعي يا إيلين.. إنني إما أن أقنعك، وإما أن أجبرك على مساعدتي في تحقيق ما عقدت عليه العزم من ضرورة رؤية كاترين. وأقسم لك إنني لا أضمر شراً، وليست بي رغبة في إثارة المتاعب أو التحرش بمستر لينتون. وكل ما أبغيه هو أن أسمع منها كيف حالها الآن، ولماذا تعرضت لهذا المرض، وإن أسألها عما إذا كان في استطاعتي أن أقدم لها أي خدمة. لقد قضيت ليلة الأمس ست ساعات في حديقة الجرانج، وسأعود إليها هذا المساء، وسأظل أحوم حول المكان كل ليلة وكل يوم، حتى تواتيني فرصة للدخول. وإذا التقى بي إدجار لينتون، فلن أتردد في أن أصرعه، أما إذا تعرض لي خدمه، فسأهددهم بهذه

المسدسات. ولكن.. ألا ترين أنه من الأفضل أن تمنعي احتكاكي بهم أو بسيدهم؟ بوسعك أن تدعيني أدخل سراً.. عندما تكون كاترين بمفردها، وأن تراقبي المكان حتى أبرحه.

واعترضت على أداء دور الخيانة في منزل مخدومي، فضلاً عن أنني بذلك أكون قد أيقظت قسوته وأنانيته لتدمير هدوء مسز لينتون، وإرضاء نزعاته الشريرة.

قلت له: لقد أصبحت شديدة العصبية والتوتر. وليس في استطاعتها أن تحتمل المفاجأة. إنني على يقين من لك، فلا تصر على موقفك يا سيدي.. وإلا اضطررت إلى أخبار سيدي بكل خططك.

فصاح هيثكليف: والحالة هذه، لن تغادري مرتفعات وذرنج حتى صباح الغد. إنها رواية سخيفة تلك التي تزعمين فيها أن كاترين لا تحتمل رؤيتي، وإذ أن مفاجأتي لها قد تقتلها، فإن من واجبك أن تمهدي للقائي بها، وتسأليها السماح لي بالدخول. والآن دعينا ننتهي من هذا الأمر حالاً.. فهل تفضلين البقاء هنا، وتتركينني أشق طريقي إلى كاترين فوق جثث لينتون وخدمه.. أو تكونين صديقتي، وتستجيبين لطلبي؟

حسن يا مستر لو كوود.. لقد ظللت أجادله وأنا أرفض مطلبه خمسين مرة، ولكنه أجبرني في النهاية على قبول اتفاقه.. إذ تعهدت بأن أحمل رسالة منه إلى سيدتي.. ووعدته في حالة موافقتها بأن أخبره عند أول فرصة يغيب فيها لينتون عن البيت، حتى يستطيع الحضور ودخول البيت كيفما شاء. ولكني لن أكون في البيت، وكذلك سوف يخلي له زملاؤه الخدم الطريق مثلي.. فهل كان ما فعلته خطأ أو صواباً؟ أخشى أن يكون تصرفي هذا خاطئاً. ولكنني ظننت إنني بالاستجابة لرغباته أحول دون انفجار آخر.. وظننت كذلك أن ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيباً ينعكس على حالة كاترين العقلية.

أوه، لقد حضر الدكتور كينيث. وحيث أن قصتي طويلة، فإنها تصلح لقطع الوقت في صباح يوم آخر.

وبينما كانت السيدة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب، رحت أقلب الفكر، وأقول أنها قصة طويلة وكئيبة في نفس الوقت. وهي ليست من ذلك النوع الذي كنت خليقاً باختياره لتسليني. ولكن لا بأس. كذلك يجب علي أن أحذر ذلك السحر الذي يكمن في عيني كاترين هيثكليف البراقتين، فسوف أجد نفسي في موقف غريب إذا أسلمت قلبي لهذه الشابة، ثم اكتشفت فيما بعد أن الابنة ليست إلا صورة أخرى من أمها!.

-15-

مضى أسبوع آخر..

وبمرور الأيام، أخذت حالتي الصحية في التحسن، كما لاحت تباشير فصل الربيع. وقد فرغت تواً من سماع قصة جاري كاملة، بعد أن روتها لي مدبرة المنزل في جلسات متفرقة كلما سنحت أمامها فرصة فراغ. وسوف أستطرد في سردها بنفس الكلمات التي وردت على لسانها. قالت:

في ذلك المساء.. مساء زيارتي للمرتفعات.. كنت أشعر تماماً بأن مستر هيثكليف يحوم حول البيت كما لو كنت أراه بعيني. وكنت لا أزال أحمل رسالته في جيبي، وقد عقدت العزم على ألا أسلمها لها إلا بعد أن يغادر السيد البيت إلى أي مكان، لأنني لم أكن أستطيع أن أخمن مدى تأثيره على كاترين. وكانت النتيجة أنها لم تتسلم الرسالة إلا في اليوم الرابع.. وكان يوم أحد.. حيث حملتها إليها في غرفتها بعد أن ذهبت الأسرة إلى الكنيسة.

وكان مظهر مسز لينتون قد تغير، كما قلت لهيثكليف. وكانت في صورتها الجديدة تبدو ذات جمال ملائكي عندما تكون هادئة. وكان البريق المتألق في عينيها قد تبادل عذوبة حالمة حزينة، ولكنهما لم تعودا توحيان بإنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بهما، وإنما تبدوان كأنهما تتطلعان إلى ما وراء هذه الأشياء وأبعد من ذلك، ويمكن القول بأنهما تتطلعان إلى ما وراء هذا العالم. أما شحوب وجهها. فإنه يوحي بأن الفناء قد كتب عليها.

قلت: هذه رسالة يا مسز لينتون. يجب أن تقرأيها في الحال، لأنه يطلب منك رداً عليها.. فهل أفضها لك؟

فأجابت دون أن تغير من اتجاه نظراتها: نعم..

وقدمتها لها وأنا أستطرد قائلة: اقرأيه الآن..

فجذبت يدها بعيداً، وتركت الرسالة تسقط، فالتقطتها ووضعتها في حجرها. ووقفت أنتظر إلى أن تتجه بعينيها إليها، ولكن انتظاري طال دون جدوى، فقلت أخيراً: هل تريدين أن أقرأها عليك يا سيدتي؟ إنها من مستر هيثكليف..

فأجفلت، وبدت في عينيها نظرة براقة تدل على محاولة التذكير. وتراءت على وجهها علامات المعاناة في سبيل ترتيب أفكارها، ثم رفعت الرسالة، وبدا عليها أنها تقرأها، وعندما وقعت عيناها على التوقيع تنهدت، ومع ذلك فقد لاح لي أنها لم تدرك فحواها، ذلك إنني عندما رغبت في الوقوف على ردها، اكتفت بأن أشارت إلى الإسم. فقلت لها: حسن.. إنه يرغب في أن يراك، وهو الآن في الحديقة، ويتهلف على معرفة الرد الذي أحمله إليه..

وبينما كنت أتحدث إليها، تناهى إلي وقع أقدام تعبر البهو، وكان خلو البيت من سيده أغرى هيثكليف بالدخول. وكان الإغراء قوياً بحيث لم يستطع مغالبته. وكانت كاترين تتطلع بلهفة شديدة إلى باب غرفتها المغلق، وما أن فتحه حتى عبر الغرفة، وفي خطوة أو خطوتين كان يقف إلى جوارها ويضمها إلى صدره.

وظل على هذه الحال خمس دقائق.. لا يتكلم ولا يدعها من بين أحضانه.. وقد بدا واضحاً أنه لم يجد في نفسه القدرة على النظر في وجهها فقد أدرك منذ اللحظة التي وقع فيها بصره عليها أنه مكتوب عليها الموت.

وعندما نطق أول عبارة بعد ذلك، لم يحاول أن يخفي نبرة اليأس التي كانت تشوب لهجته: أوه كاتي.. أوه يا حياتي.. كيف يمكنني احتمال ذلك؟!

وقالت كاترين وهي تستلقي بظهرها: وماذا الآن.. أنت وإدجار حطمتما قلبي يا هيثكليف.. ثم تأتيان للشكوى مما فعلتماه بي، وكأنكما اللذان تستحقان الرثاء، ولكن لن أشفق عليك أو أرثي لك. لقد قتلتني، وأظن أنك نجحت في ذلك. ما أقواك! ترى كم سنة تستطيع أن تعيشها بعد موتي؟

وكان هيثكليف قد ركع على إحدى ركبتيه ليعانقها، وحاول أن ينهض ولكنها أمسكت برأسه لتبقيه راكعاً. ثم استطردت قائلة في مرارة: ليتني

استطيع أن أمسك بك هكذا حتى نموت سوياً.. ولن أبالي بما تعانيه. لماذا لا تتعذب أنت أيضاً؟ لقد تعذبت أنا. هل ستنساني؟ هل ستكون سعيداً عندما يطويني الثرى؟

فصاح وهو يحاول أن يحرر رأسه من قبضة يديها: لا تمعني في تعذيبي إلى أن يصيبني الجنون مثلك. أنت تعلمين أنك تكذبين عندما تتهمينني بقتلك، وأنت تعلمين يا كاترين إنني سأصطلي بعذاب الجحيم، بينما أنت تنعمين بالراحة الأبدية؟

فأجابت كاترين في أنين مكتوم: لن أنعم بهذه الراحة، ولا أتمنى لك عذاباً أشد مما أقاسيه يا هيثكليف. إن كل منايا هو ألا نفترق أبداً. تعال هنا واركع بجانبي ثانية. إنك لم تسيء إليّ في حياتك أبداً.. تعالى إلى جانبي يا هيثكليف.

وفي لهفتها وشوقها، نهضت معتمدة على مسند مقعدها.. وأمام هذه الدعوة الملحة، استدار إليها وقد لاحت أمارات اليأس على وجهه. وبقي كل واحد منهما في مكانه برهة، ثم التقيا في عناق طويل خلت أن سيدتي لن تنجو منه بحياتها. ولكن كاترين رفعت يدها لتجذب عنقه إليها وتلصق خدها بخده، أما هو فقد راح يمطرها بقبلات محمومة، وهو يقول لها في جنون: لقد علمتني الآن كم كنت قاسية.. بل قاسية وغادرة! لماذا احتقرتني؟ لماذا غدرت بقلبي يا كاتي؟ أنت قتلت نفسك. أجل.. لك أن تقبليني وأن تبكي ما شاء لك البكاء.. وأن تنتزعي مني القبلات والدموع، ولكن قبلاتي ودموعي سوف تلعنك.. لقد أحببتني، فبأي حق إذن تخليت عني؟ بأي حق هجرتني؟ أجيبيني.. أمن أجل وهم تافه شعرت به نحو لينتون؟ إن أي شيء يمكن أن يصيبنا به الله أو الشيطان ما كان ليستطيع أن يفرق بيننا، ولكنك فعلت ذلك بمحض إرادتك. إنني لم أحطم قلبك، ولكنك أنت التي حطمته بيدك، وحطمت قلبي معه.. ومن سوء حظي أنني ما زلت قوياً.. وهل تظنين أنني أتمنى أن أعيش بعدك؟ وأي نوع من الحياة تحسبين إنني أحياها عندما تكونين.. أوه يا إلهي، هل تتمنين لنفسك الحياة بينما روحك قد غيبها الثرى؟

فنشجت كاترين باكية: دعني وحدي، إذا كنت قد أخطأت، فها أنذا أموت جزاء خطيئتي.. ألا يكفيك هذا؟ لقد هجرتني أنت أيضاً، ولكنني لن ألومك؟.. إنني أصفح عنك. اغفر لي!

فأجاب: ما أصعب الصفح وأنا أنظر إلى هاتين العينين، وأتحسس هاتين اليدين الهزيلتين. قبليني ثانية، ولكن لا تدعيني أرى عينيك. لقد غفرت لك كل ما فعلته بي. إنني أحب قاتلي، ولكن قاتلك أنت.. كيف أحبه؟!

وساد الصمت بينهما، وقد اختفى وجه كل منهما في وجه الآخر، والدموع تغسلهما. وأظن أنهما كانا يبكيان، فإن موقفاً جليلاً كهذا كان لابد أن يستدر دموع هيثكليف..

ولقد بدأت أشعر بالقلق، لأن الوقت كان يمضي بسرعة. واستطعت أن أميز مجموعة من الناس تتجمع خارج كنيسة جيمرتون، فأعلنت قائلة: لقد انتهت القداس، وسيكون سيدي هنا بعد نصف ساعة.

فزمجر هيثكليف بسيل من اللعنات، وشدد من احتضانه لكاترين، ولكنها لم تبد حراكاً..

وبعد قليل رأيت جماعة الخدم آتية عبر الطريق، ولم يكن مستر لينتون يبعد عنهم كثيراً وهو يسير خلفهم. ثم فتح البوابة، واتجه في بطء نحو البيت، فصحت: لقد حضر سيدي الآن، فأسرع بالانصراف بحق السماء.. إنك لن تصادف أحداً على الدرج الأمامي.. أسرع بالخروج واختبئ بين الأشجار ريثما يدخل هو إلى البيت.

فقال هيثكليف وهو يحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعي صديقته: ينبغي أن أذهب الآن يا كاتي.. ولكن إذا كتبت لك الحياة، فإنني سوف أراك ثانية قبل أن تنامي.. إنني لن أبعد عن نافذتك أكثر من خمس خطوات!

فأجابت وهي تتشبث به قدر ما تسمح به قواها: يجب ألا تذهب.. إنني أقول لك لن تذهب!

فتوسل إليها بحرارة: ساعة واحدة فقط!

أجابت: ولا دقيقة واحدة!

وازداد الدخيل توسلاً، فقال: لا بد أن أرحل.. سوف يأتي لينتون إلى هنا حالاً.

وكان بوسعه أن ينهض، ولكنها ازدادت تعلقًا وتشبثًا به، وقد بدا على وجهها إصرار جنوني، وصرخت قائلة: كلا.. أوه، لا تذهب.. لا تذهب.. إنه اللقاء الأخير! لن يؤذينا ادجار! إنني أموت يا هيثكليف.. إنني أموت!

وصاح هيثكليف وهو يغوص في مقعده: يا لك من حمقاء! ها هو ذا.

صه، صه يا كاترين.. سأبقى! وإذا أطلق عليّ الرصاص وأنا جالس في مكاني هذا، فسوف أموت وشفتاي تباركانه!

وتعانقا عناقًا حارًا مرة أخرى. وسمعت سيدي يصعد الدرج، فأخذ العرق البارد يتصبب على جبيني وقد تملكني الفزع. وقلت لهيثكليف برجاء: هل تنوي أن تصغي لهذيانها؟ إنها لا تدري ماذا تقول. هل تود أن تدمر حياتها لأنها لم تعد تملك من الإدراك ما تحمي به نفسها؟ انهض.. يمكنك أن تنقذ نفسك الآن!. إن هذا أكبر عمل شيطاني أقدمت عليه في حياتك. لقد قضي علينا جميعًا.. السيد، والسيدة، والخادم!

وصحت بصوت مرتفع: فأقبل مستر لينتون مسرعًا على صوت الضجة. وفي غمرة اضطرابي، سررت كثيرًا عندما رأيت ذراعي كاترين تتهاويان في استرخاء، ورأسها يميل إلى الخلف، فقلت في نفسي: لقد أغمي عليها.. أو ماتت. ذلك أفضل كثيرًا، ولكن الأفضل منه هو أن تكون قد ماتت حتى لا تكون عبئًا أو مصدرًا لشقاء كل من يحيطون بها.

وانقض ادجار على الزائر المتطفل، وقد شحب وجهه دهشة وغضبًا ولم أعرف ماذا كان ينوي أن يفعل إلا أن الآخر أسرع فوضع بين ذراعيه ذلك الجسد المتهالك، وقال له: أنظر إليها.. وإذا لم تكن شيطانًا، فأسعفها أولاً، ثم خاطبني بعد ذلك.

وغادر هيثكليف المكان، وجلس في غرفة الجلوس، وبذلت أنا ومستر لينتون جهودًا مضنية لكي نعيدها إلى وعيها، ولكنها كانت مسلوبة الرشد تمامًا. كانت تتنهد، وتتأوه، ولا تعرف أحدًا. ونسي إدجار في غمرة قلقه عليها أمر صديقها الكريه، أما أنا فلم أنس. وقد بادرت عندما لاحت أول

فرصة بالذهاب إليه، وناشدته أن يرحل، مؤكدة له أن حالة كاترين قد تحسنت، وأنه سوف يسمع مني في الصباح كيف أمضت ليلتها.. فأجابني: سأبقى في الحديقة، وأرجوك يا نيللي أن تبري بوعدك غداً.. وستجدينني تحت هذه الأشجار.. أرجوك وإلا فإنني سأقوم بزيارة أخرى سواء كان إدجار هنا أم لا..

-16-

في حوالي منتصف الليل، ولدت كاثرين الصغيرة التي رأيتها في مرتفعات وذرنج، وقد جاءت هزيلة في الشهر السابع للحمل. وبعد ساعتين من ولادتها ماتت الأم. وكان حزن إدجار لفداحة مصابه حزناً يجل من الوصف، ويبعث الألم في قلوب الآخرين، وقد بدت آثار هذا الحزن العميق الدفين بعد ذلك. وفي اعتقادي أنه كان هناك عامل أضافي في ذلك الحزن، وهو أنه لم يعقب وريثاً ذكراً. وقد رحت ألعن بيني وبين نفسي لينتون الكبير الذي أوصى بأن تنتقل أمواله إلى ابنته بدلاً من حفيدته.

وكان صباح اليوم التالي مشرقاً بهيجاً خارج البيت. فغادرت الغرفة بعد شروق الشمس مباشرة للقاء مستر هيثكليف. ولابد أنه سمع وقع سنابك جواد الرسول الذي ذهب إلى جيمرتون، ولابد أيضاً أنه أدرك من الأضواء التي كانت تتحرك جيئة وذهاباً، إن الأمر لم يكن على ما يرام في الداخل. وقد تمنيت أن أجده، رغم أنني كنت أخشى هذا اللقاء وعندما اقتربت منه، رفع عينيه تجاهي وقال: ماتت! لم أكن انتظرك لكي أعرف ذلك.. ضعي منديلك جانباً.. لعنة الله عليكم جميعاً.. فليست بي حاجة إلى دموعكم!

وكنت أبكي رثاء لحاله بمثل ما كنت أبكي عليها.. ذلك إننا نشفق أحياناً على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة لذواتها أو بالنسبة للآخرين وقد أجبت وأنا أغالب عبراتي: أجل.. لقد ماتت.

- كيف..

وحاول أن ينطق أسمها، ولكنه لم يستطع. فقد كان يصارع حزنه الدفين في صمت. وأخيراً استطاع أن يكمل عبارته: كيف ماتت؟

وأصابته رعدة، رغماً عنه، أخذت تهزه كله حتى أخمص قدميه. فقلت في نفسي: أيها التعس المسكين، إن لك قلباً وأعصاباً مثل كل إخوانك البشر، فلماذا تتلهف على إخفائهما؟ إن كبرياءك لا يخفى على الله!

وأجبته بصوت مسموع: ماتت في هدوء الحمل الوديع.

فسألني في تردد: و.. ألم تذكر اسمي؟

فقلت: إنها لم تستعد حواسها، ولم تعرف أحداً منذ اللحظة التي فارقتها فيها، وهي ترقد وعلى وجهها ابتسامة حلوة، وكأن خواطرها القديمة تحملها إلى تلك الأيام الخالية السعيدة. لقد اختتمت حياتها بحلم جميل. وأتمنى أن تقوم من الموت في العالم الآخر وهي على مثل هذه الدعوة..

فصرخ قائلاً: بل فلتقم في العذاب.. لماذا؟ لقد كانت كاذبة حتى النهاية! أين هي؟ إنها ليست في البيت.. وليست في السماء.. ولم يطوها الفناء. فأين هي؟ أوه، لقد قلت يا كاترين إيرنشو إنك لا تكترثين لآلامي. ولكني أدعو الله دعاء واحداً، هو ألا تنعمي بالراحة والسلام ما دمت حياً.. وقلت إنني قتلتك، وإذن فلتطاردني روحك، لأن روح المقتول لا تفتأ أن تطارد قالتها على ما اعتقد.. وأعرف أيضاً أن الأشباح قد تجوب الأرض، ولكن لا تتركيني في هذه الهوة السحيقة حيث لا أستطيع أن أجدك.. آه يا إلهي!.. إنني لا أستطيع العيش دون حياتي. إنني لا أستطيع الحياة دون روحي!

ثم أمرني بصوت كالرعد أن أنصرف، فأطعته..

وقد أدهش أهل القرية ألا تدفن كاترين في صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون، ولا حتى في مقابل أهلها التي تقع خارجه، وإنما دفنت في سفح تل يغطيه العشب الأخضر، في أحد أركان فناء الكنيسة بجوار الجزء المنخفض من السور، حيث زحفت الأزهار البرية الممتدة من البراري فغطت القبر. وفي نفس البقعة يرقد زوجها الآن، وقد أقيم لكل منهما نصب بسيط ليحدد موقع القبرين.

-17-

كان يوم تشييع الجنازة ملبداً بالغيوم، وقد انهمرت الأمطار بادئ ذي بدء. ثم تساقط الثلج بعد ذلك. وفي عصر اليوم التالي، كنت قد اتخذت مجلسي في غرفة الجلوس الوحيدة ووضعت الطفلة فوق ركبتي وأخذت أهدهدها، عندما فتح الباب، ودخل شخص متقطع الأنفاس. وقالت: لقد ظللت أجري. طوال الطريق من «مرتفعات وذرنج» إلى هنا! لا تنزعجي، فسوق أشرح لك كل شيء بمجرد أن أجد في نفسي القدرة على الكلام. وكل ما أرجوه الآن هو أن تأمري بإعداد العربة لتقلني إلى جيمرتون، وأن تكلفي إحدى الخدم بأن تحضر لي بعض الثياب من غرفتي.

وكانت القادمة هي مسز هيثكليف. وكان شعرها مكللاً بندف الثلج، ومعطفها يقطر ماء.. ورأيت جرحاً غائراً تحت أذنها. وعندئذ صحت بها قائلة: أيتها الشابة العزيزة.. لن أسمع منك شيئاً قبل أن تستبدلي ثيابك بأخرى جافة، ولا يمكخن أن تذهبي إلى جيمرتون الليلة وأنت على هذه الحال.

فقالت إيزابيلا: سوف أذهب الليلة بكل تأكيد، سواء ركبت أو مشيت..

وأصرّت على رأيها، فأمرت الحوذي بإعداد المركبة، وإحدى الوصيفات بتجهيز الثياب الضرورية. وعندئذ فقط قبلت أن أقوم بتضميد جراحها، ومساعدتها على تغيير ملابسها، ثم قالت: إيلين. هذا آخر شيء أقتنيه مما يمت إليه بصلة.

ثم نزعت خاتم الزواج من أصبعها، وألقت به في النار..

وتابعت حديثها قائلة: والآن، عليه أن يشتري خاتماً آخر، إذا استطاع أن يدركني ويعيدني إليه ثانية.

وسألتها عما دفعها إلى الفرار من «مرتفعات وذرنج» وإلى أين تزمع الذهاب ما دامت لا تنوي البقاء معنا أو تدعني على الأقل أخبر أخاها بوصولها، فأجابت: كان ينبغي، بل كنت أود، أن أبقى لأرفه عن إدجار، وأقوم على رعاية الطفلة، ولأن «الجرانج» هو بيتي الطبيعي. ولكني أؤكد لك أن هيثكليف لن يتركني وشأني. هل تظنين أنه يتحمل رؤيتي هنا أنعم بالسعادة، أو يطيق مجرد التفكير في إننا نعيش هنا في سلام؟ إنني على يقين الآن من أنه يضمر لي كل الكراهية حتى أنه يسوءه أن يجدني على مدى السمع أو مرمى البصر. كما أدرك عن ثقة بأنه لن يسعى ورائي في أنحاء انجلترا، وذلك إذا ما دبرت خطة ناجحة لفراري. ولذلك يجب أن أذهب إلى مكان بعيد. لقد شفيت من رغبتي السابقة في أن ألقى مصرعي على يديه، وشد ما أتوق الآن إلى أن يقتل نفسه بيده. إنه وحش.. لقد وهبته قلبي، فانقض عليه وظل يخنقه حتى قضى عليه، ثم ألقاه إليّ ثانية جثة هامدة. إن الناس يعيشون مشاعرهم بقلوبهم يا إيلين، وما دام قد دمر قلبي، فكيف يمكن أن أشعر نحوه بشيء..

وأنت تعلمين أنه كان من الواجب أن يحضر مستر إيرنشو الجنازة أمس، ولكنه جلس إلى جوار المدفأة، وراح يجرع كؤوساً مترعة من البراندي..

أما هيثكليف، فقد ظل غريباً عن البيت منذ يوم الأحد الماضي حتى اليوم.

وكنت ليلة البارحة جالسة أطالع بعض الكتب حتى أوشك الليل على الانتصاف. وفجأة مزق السكون صوت باب المطبخ، وكان هيثكليف قد بكر على غير عادته في العودة من جولته الليلية، وأظن أن العاصفة المفاجئة كانت هي السبب في ذلك، ولكن باب المطبخ كان موصداً من الداخل، ولذلك تناهى إلينا وقع قدميه وهو يدور حول البيت ليدخل من الباب الآخر. وعندئذ نهضت واقفة وعلى شفتي تعبير يكشف عما يختلج في صدري. واستدار رفيقي، ونظر إليّ ثم صاح قائلاً: سوف أدعه واقفاً في الخارج مدة خمس دقائق.. فهل لديك مانع؟

أجبت: كلا.. ولك أن تدعه في الخارج طوال الليل من أجلي.. أسرع وأغلق الباب بالمفتاح.

وفعل إيرنشو ذلك قبل أن يصل القادم إلى واجهة الدار. وعندما عاد قال: إن لكل منا دينًا كبيرًا في عنق هذا الرجل لابد من تسويته.. فإذا لم يكن أحد منا جبانًا، ففي وسعنا أن نوحد جهدينا لكي نستخلص هذا الدين.. أم أنك ترغبين في تحمل هذا العذاب حتى النهاية، دون أن تحاولي مرة واحدة أن تثأري لنفسك؟

أجبته: لقد أضناني طوال التحمل الآن.. وسوف يسعدني أن أثأر لنفسي على نحو لا يعود علي بالأذى، ذلك أن الخيانة والعنف حراب ذات نصال في كل من طرفيها، وهي تجرح الذين يلجأون إليها أكثر مما تفعل بأعدائهم.

فصاح هندلي: إن الخيانة والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف. وإنني يا مسز هيثكليف لا أسألك أن تفعلي شيئًا، بل أجلسي ساكنة في مكانك دون أن تتفوهي بكلمة. وإنني على يقين من إنك لن تكوني أقل مني سعادة واستمتاعًا بمشاهدة نهاية وجود هذا الشيطان.. الذي سوف يكون هلاكك وسوف يكون دماري. ألا لعنة الله على هذا الوغد الجهنمي، أنه يقرع الباب كأنما أصبح سيد هذا البيت. عديني أن تمسكي لسانك، وسترين أنك قد غدوت امرأة أخرى قبل أن تدق الساعة.. ولم يبق للساعة الواحدة إلا ثلاث دقائق.

وأخرج من جيب صدريته المسدس الذي وصفته لك في رسالتي، ولكني أمسكت بذراعه، وقلت له: إنني لن أمسك لساني.. كما أنك يجب ألا تلمسه. دع الباب موصدًا، واهدأ قليلاً..

فصاح الإنسان اليائس قائلاً: كلا.. لقد انتهيت إلى قرار حاسم.. وأقسم بالله أن لابد من تنفيذه.

وخيل إلي في تلك اللحظة كأنني أصارع دبًا، أو أناقش مجنونًا فاقد اللب. ولم يكن أمامي مفر من أن أعدو إلى أحدى النوافذ، لأحذر ضحيته مما ينتظره من قضاء. وصحت فيه بنبرة يشوبها الانتصار: خير لك أن تبحث لنفسك عن مأوى في مكان آخر تقضي فيه هذه الليلة.. لأن مستر إيرنشو يفكر في إطلاق النار عليك إذا أصررت على محاولة الدخول.

فأجاب: بل خير لك أن تفتحي الباب.. أيتها الـ..

فعدت أقول له: إنني لن أتدخل.. تستطيع أن تدخل وتتلقى الرصاص.. إن كان هذا يسعدك. أما أنا فقد أديت واجبي.

وما إن انتهيت من كلامي حتى أغلقت النافذة، وعدت إلى مكاني بجوار الموقد. وبينما أنا جالسة في مقعدي، إذا بمصراع النافذة التي تقع خلف مقعدي يهوي على الأرض تحت وطأة ضربة عنيفة من هيثكليف، ولكن المسافة التي تفصل بين القضبان لم تكن لتسمح بمرور كتفيه، فزمجر قائلاً: دعيني أدخل يا إيزابيلا.. وإلا جعلتك تندمين طويلاً.

أجبته: ليس في وسعي أن أرتكب جريمة قتل.. فإن مستر هندلي يقف متحفزاً وفي يده سكين ومسدس محشو بالرصاص.

قال: دعيني أدخل من باب المطبخ.

أجبت: سوف يسبقني هندلي إليه. ثم ما أتفه هذا الحب الذي تنطوي عليه جوانحك، بحيث لا تطبيق رذاذ الثلج. لقد كنا نرقد في فراشنا ننعم بالهدوء ما دام قمر الصيف ساطعاً، ولكنك لا تلبث أن تسرع بالفرار بحثاً عن مأوى في اللحظة التي تهب فيها عاصفة من عواصف الشتاء.. لو إنني كنت مكانك يا هيثكليف، لذهبت ورقدت فوق قبرها كالكلب الأمين حتى أموت، فإن الدنيا لا تستحق أن تعيش فيها الآن حقاً. أليس كذلك؟ لقد أوحيت إلي بما لا يدع مجالاً للشك، إن كاترين كانت وحدها كل ما في حياتك من بهجة وسعادة. ولست استطيع أن أتصور كيف يمكنك التفكير في الحياة بعد فقدها!

وصاح رفيقي وهو يندفع إلى فجوة النافذة: إنه هناك.. أليس كذلك؟ إذا استطعت أن أخرج ذراعي، فسوف أصيبه حتماً.

ولكن هيثكليف ألقى بنفسه على سراح إيرنشو. وانتزعه من قبضته.

وانطلقت رصاصة مدوية. أما السكين فإنها عندما ارتدت إلى مقبضها أطبقت على رسغ صاحبها. وقد انتزعها هيثكليف في قوة خارقة حتى مزقت اللحم وهي تجري فوقه، ثم ألقى بها في جيبه وهي تقطر دماً. وعندئذ تناول حجراً ضخماً، وراح يحطم به الفاصل بين ضلفتي النافذة، ثم وثب إلى داخل الغرفة. وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعي بعد فيض الدماء الذي

تدفق منه. وأخذ الوغد يركله ويطأه بقدمه، ويدق رأسه في البلاط مرة بعد أخرى. وظل كذلك حتى نال منه التعب، فكف عند عدوانه، ثم راح يجر الجسم المنهوك الخائر حتى الأريكة، ولم أضع وقتًا، فبحثت في الحال عن الخادم العجوز.

وصاح جوزيف: ماذا حدث؟

فزمجر هيثكليف قائلاً: إليك ما حدث.. إن سيدك مجنون.. ولن أقوم على عيادته.. أغسل هذه الأقذار.

ثم دفعه هيثكليف دفعة قوية، ألقت به على ركبتيه وسط بركة الدماء، ثم طوح إليه بمنشفة.

وقال الطاغية وهو يستدير نحوي: هل كنت تتآمرين معه ضدي؟ هيا.. هذا هو العمل الذي يليق بك.

وراح يهزني حتى اصطكت أسناني ببعضها، ثم ألقى بي إلى جانب جوزيف.

.. واسترد إيرنشو وعيه. ولما كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شيء عن المعاملة التي لقيها منه وهو فاقد الوعي، فقد وصفه بالسكير المجنون، ونصحه بأن يذهب إلى فراشه. وسررت عندما فارقنا بعد أن ألقى بهذه النصيحة. أما أنا فقد انصرفت إلى غرفتي، وأنا لا أصدق أنني أفلت منه بهذه السهولة.

وعندما نزلت صباح اليوم، وكان ذلك قبل الظهر بنصف ساعة. كان مستر إيرنشو جالساً بجوار النار، شاحب الوجه كالأموات، بينما وقف هيثكليف مستنداً إلى المدفأة. وعندما سألت هندلي عن حاله، قال: كل شبر من بدني يؤلمني..

فأبديت ملحوظتي التالية قائلة: نعم.. ولا عجب! لقد تعودت كاترين أن تزهو بأنها تقف بينك وبين أي أذى بدني. وكانت تعني بذلك أن أحدهم لن يجرؤ على إيذائك حتى لا يسيء إليها. وقد تأكد لي الآن أن الناس لا يقومون حقيقة من قبورهم، وإلا لكان من الممكن أن تشهد كاترين منظراً فظيعاً ليلة الأمس.

- ماذا تعنين؟ هل اجترأ على ضربي بينما كنت طريحاً على الأرض؟

فهمست قائلة: لقد كان يركلك ويطأك بقدمه.. ويضرب رأسك بالأرض.

فتطلع مستر إيرنشو بعينيه إلى أعلى، مثلي، في وجه عدونا المشترك الذي كان مستغرقًا في متابعه بحيث كان يبدو غافلاً عن كل ما يدور حوله. ثم قال:

- آه.. لو أن الله وهبني من القوة ما يكفي لقتله، لذهبت إلى الجحيم مسروراً.

قلت بصوت مرتفع: لا.. لا.. يكفي أنه قتل واحداً منكم. إن شقيقتك كانت خليقة بالبقاء على قيد الحياة الآن، لولا مستر هيثكليف.. إنني كلما تذكرت كيف كانت السعادة ترفرف حولنا، وكيف كانت كاترين سعيدة قبل مقدمه، ألعن ذلك اليوم.

وقال هيثكليف: اغربي عن وجهي..

أجبته: أرجو المعذرة! ولكني أجبت كاترين أيضًا.. وشقيقها يحتاج إلى العناية التي سأقدمها له إكراماً لذكراها. أما وقد ماتت الآن، فإنني أراها في هندلي. إن عينيه تشبهان عينيها تماماً، لولا محاولاتك لجعلهما بارزتين مجللتين بالسواد والحمرة.. كما أنها..

فصاح قائلاً: ارحلي أيتها التعسة الحمقاء. قبل أن أسحقك حتى الموت.

ثم أتى بحركة دفعتني إلى التحرك من مكاني بدوري، ولكني أردفت قائلة، وقد أعددت نفسي للفرار: ولكن. لو أن كاترين المسكينة كانت قد وثقت بك، وارتضت أن تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقير المزري.. لقب «مسز هيثكليف». لأصبحت الآن على مثل هذه الصورة. إنها هي شخصياً ما كانت لتستطيع تحمل مسلكك الفظيع في سكون وهدوء.

وكان ظهر المقعد المرتفع يحول بيني وبينه، ولذلك اختطف سكيناً من فوق المائدة، وقذف بها رأسي، فأصابتني تحت أذني.. ووثبت في اتجاه الباب.. وكان آخر ما لمحته هو أنه قادم نحوي في وحشية. ولكن حال بينه وبين

ملاحقتي أن مضيفه احتضنه، ثم سقط الاثنان متماسكين على الأرض. وأثناء فراري من المطبخ، طلبت من جوزيف أن يدرك سيده، وانطلقت أعدو في الطريق المنحدر، وأخذت طريقي في البراري.. إنني أفضل أن أعيش في الجحيم إلى الأبد على أن أقضي ليلة واحدة تحت سقف مرتفعات وذرنج ثانية.

وانتهت إيزابيلا من حديثها.. ورفضت أن تستجيب لتوسلاتي بالبقاء ساعة أخرى. وقبلتني، ثم أسرعت إلى العربة التي انطلقت بها، ولم تطأ قدمها هذه الأنحاء بعد ذلك قط، وإن كانت قد نشأت بينها وبين سيدي مراسلات منتظمة بعد أن ازدادت الأمور استقراراً. وقد اختارت مقرها الجديد في الجنوب بالقرب من لندن، وهناك وضعت غلاماً بعد فرارها ببضعة أشهر، اسمته «لينتون»، وقالت أنه كان منذ مولده مخلوقاً هزيلاً بائساً..

وقد اكتشف هيثكليف المكان الذي تقيم فيه، وعرف أيضاً بمولد الطفل، ولكنه لم يحاول مضايقتهما، وعندما كان يراني، غالباً ما كان يسألني عن الغلام. ولما عرف اسمه، ارتسمت على شفتيه علامات التجهم، ثم قال معقباً:

- إنهم يريدون أن أكرهه هو أيضاً.. أليس كذلك؟

أجبت: لا أظن أنهم يريدون أن تعرف عنه شيئاً..

فقال: ولكني سآخذه عندما أريد.

ومن حسن الحظ أن أمه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت، وكان ذلك بعد وفاة كاترين بثلاثة عشر عاماً.. عندما كان لينتون الصغير في الثانية عشرة من عمره أو أكبر قليلاً..

ولم تتح لي فرصة الحديث مع سيدي غداة زيارة إيزابيلا غير المتوقعة، فقد كان عزوفاً عن الحديث، ولم تكن حالته تسمح بمناقشة أي موضوع. وعندما استطعت أن أحمله على الإصغاء، وجدت أن فراق شقيقته لزوجها قد أسعده كثيراً..

وقد ظل فترة من الزمن بدا فيها أنه لا يهتم بالصغيرة التي خلفتها الراحلة، ولكن جموده ما لبث أن ذاب أسرع مما تذوب ثلوج أبريل، حتى أنها

قبل أن تستطيع أن تنطق بكلمة أو تحبو، كانت قد تربعت على عرش قلبه. وقد أسماها كاترين، وكان له في ذلك ما يربط الصغيرة بالأم، بل أن تعلقه بها كان ينبثق من صلتها بأمها أكثر مما ينبعث من أبوته لها.

وجاءت نهاية إيرنشو على نحو ما يمكن للمرة أن يتوقعها. وكانت عقب وفاة شقيقته بفترة قصيرة، إذ لا يكاد يفصل بينهما أكثر من ستة أشهر.. وقد جاء دكتور كينيث ليعلم سيدي بالنبأ. وقال وهو يدخل الفناء ممتطيًا صهوة جواده:

- حسن يا نيللي.. لقد مات هندلي إيرنشو مخلصاً لخلقه.. مات ثملاً!. يا للشباب المسكين، إنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره.. أي في مثل سنك تمامًا.

ولم يكن في استطاعتي أن أمنع نفسي من التفكير في هذا السؤال.. أتراه لقي معاملة كريمة؟ وتأكد لي أنني مهما فعلت، فإن هذه الفكرة ستظل تلاحقني، ولذلك التمست الرحيل إلى «مرتفعات وذرنج» لكي أسهم في أداء الواجبات الأخيرة نحو الفقيد، ولكن مستر لينتون كان متردداً في الموافقة على رحيلي، فأخذت أدافع عن موقفي في حرارة، فقلت أن لسيدي القديم وأخي من الرضاعة ما يكفل له الحق في خدماتي، وفضلاً عن ذلك فقد ذكرته بأن هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته، ومن واجبه أن يبسط عليه حمايته وهو أقرب الناس إليه، كما ينبغي أن يتحرى عن الحالة التي تركت عليها أملاك شقيق زوجته، وأن ينظر في رعاية مصالحه. ولكنه كان وقتئذ في حالة لا تسمح له بمباشرة مثل هذه الشئون، فأمرني بالتحدث في ذلك مع محاميه، ثم أذن لي بالذهاب.. وكان محاميه هو محامي إيرنشو أيضًا، فذهبت لزيارته في القرية، وطلبت إليه أن يصحبني، ولكنه هز رأسه ونصحني بأن ندع هيثكليف وشأنه، مؤكداً أن هيرتود قد ترك في حال أدني إلى حال الشحاذين. ثم قال: لقد مات أبوه وهو غارق في الديون.. بعد أن رهن كل ما يملك لهيثكليف.

وعندما بلغت «مرتفعات وذرنج»، قال مستر هيثكليف أنه لا يرى ثمة مبرراً لوجودي، ولكن في وسعي أن أبقى، وأن آمر بما أراه نحو ترتيبات الجنازة.. إن رغبت في ذلك، ثم أردف قائلاً: من الأصوب أن يدفن جثمان هذا

الأحمق بلا احتفال من أي نوع.. لقد أوصد أبواب البيت في وجهي بعد ظهر الأمس، ثم أمضى الليل بطوله يجرع كؤوس الخمر حتى قتل نفسه عمداً. وفي الصباح حطمنا الباب، فوجدناه ملقى فوق الأريكة، فأرسلت في طلب كينيت، ولكنه لم يحضر إلا بعد أن أصبح هذا الوحش جثمانًا بارداً.

وأريد الخادم هذه الرواية، ثم غمغم قائلاً: كنت أفضل أن يذهب في طلب الطبيب بنفسه، فإنني كنت خليقًا أن أعني بالسيد خيراً منه.. ثم أنه لم يكن قد مات عند ذهابي.

وبينما كان الناس يغادرون البيت خاملين صندوق الجثمان. حمل هيثكليف الطفل المنكود هيرتون، ووضعه فوق المائدة، وهو يقول:

- والآن يا صغيري.. لقد أصبحت لي وحدي. وسوف نرى إن كانت الشجرة سوف تشب معوجة كالشجرة الأخرى، لمجرد أن الريح التي تهب عليهما وتثنيهما واحدة أم لا.

فقلت: أن هذا الغلام يجب أن يعود معي إلى «ثرشكروس جرانج» يا سيدي.. فهو آخر شيء في الدنيا يمكن أن يصبح لك.

فسألني: هل قال لينتون ذلك؟

أجبت: بكل تأكيد.. لقد أمرني أن أعود به معي.

فقال الوغد: حسن.. ولكني لدي رغبة في أن أربي غلامًا صغيراً. ولذلك عليك أن تبلغي سيدك أنه إذا حاول أخذ هذا الصبي، فلابد أن املأ مكانه بابني أنا.. إنني لا أعد بترك هيرتون يذهب. ولكني على ثقة بقدرتي على أن أجعل الآخر يأتي.

وكان هذا التلميح كافيًا لكي لكي أنفض يدي من الأمر. كذلك فإن إدجار لينتون لم يتحدث عن التدخل في الأمر.

وهكذا أصبح الضيف الآن سيد «مرتفعات وذرنج»، حيث استولى عليها بعد من حديد. وقد أثبت للمحامي، الذي أثبت بدوره لمستر «لينتون»، إن «إيرنشو» قد رهن كل شبر من أملاكه لكي يحصل على المال الذي يشبع به جنونه بالمقامرة، وكان «هيثكليف» نفسه هو المرهون إليه. وعلى هذا

النحو، أصبح «هيرتون» - الذي كان ينبغي أن يكون هو الآن السيد الأول في المنطقة- يعتمد اعماداً كلياً على عدو أبيه، ويعيش في بيت أسرته كأحد الخدم، دون أن يحصل مثلهم على أجر، وهو عاجز تماماً عن استعادة حقوقه.. لأنه محروم من الأصدقاء.. ولأنه يجهل كيف كان ضحية الخيانة.

-18-

وتابعت مسز دين رواية قصتها، فقالت: انقضت الاثنتا عشرة سنة التي تلت تلك الفترة المشئومة، كأسعد فترة في حياتي.. فقد كانت كاترين الصغيرة أكثر «الأشياء» استمالة للقلب، وقد استطاعت أن تبعث شعاعاً من الدفء في ذلك البيت الموحش.. كانت تمثل فيه الجمال الحقيقي.

ولم تكن حتى سن الثالثة عشرة قد جاوزت حدود الحديقة بمفردها.

وأحياناً كان مستر لينتون يصطحبها معه إلى الخارج مسافة ميل أو ميلين، ولكنه لم يكن يأمن عليها أي إنسان آخر. وكانت قرية جيمرتون لا تعود أن تكون أسماً يطرق أذنيها. وكانت الكنيسة هي المبنى الوحيد الذي دخلته، خلاف بيتها الخاص. أما «مرتفعات وذرنج» ومستر هيثكليف، فلم يكن لهما وجود بالنسبة لها. وكانت كلما سرحت بنظرها عبر نافذة غرفتها، تقول: ترى ما الذي يقع على الجانب الآخر من هذه التلال.. هل هو البحر؟

وكنت أجيبها: كلا يا مس كاتي. إنها تلال أخرى تشبه هذه تماماً.

وسألتني مرة: ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقفت تحتها؟

وكان السفح الشديد الانحدار لصخرة «بنستون كراجز» يلفت نظرها بصفة خاصة. وقد شرحت لها أنها مجرد كتل من الأحجار والصخور الصماء.

فصاحت: أوه.. هل ذهبت إلى هناك؟ إذن يمكنني الذهاب بدوري عندما أبلغ مبلغ النساء. وهل ذهب أبي إلى هناك يا إيلين؟

أجبت: سوف يخبرك والدك يا آنستي.. إنها لا تستحق عناء الزيارة إن البراري التي تتجولين معه فيها أعظم جمالاً. كذلك فإن حديقة ترشكروس هي أجمل مكان في هذا العالم.

فغمغمت وكأنها تحدث نفسها: ولكني أعرف الحديقة ولا أعرف هذه التلال! سوف يأخذني مهري الصغير «مبتي» إلى هناك يوماً من الأيام.

وقد سألت والدها أن تقوم بهذه الرحلة، وكان يعدها بذلك عندما تتقدم بها السن. وكان السؤال الذي لا يفارق شفتيها على الدوام: والآن.. هل كبرت بما يتيح لي الذهاب إلى بنستون كراجز؟ ولكن الطريق إلى هناك كان يلف بالتصاق «مرتفعات وذرنج»، ولم يكن إدجار يميل إلى المرور بها، ولذلك كانت تتلقى دائماً هذه الإجابة: كلا يا حبيبي.. لم يحن الوقت بعد!

وقد ذكرت من قبل أن مسز هيثكليف عاشت اثني عشر عاماً بعد أن هجرت زوجها، ولكني لم أعرف شيئاً عن حقيقة مرضها الأخير. وقد كتبت إلى أخيها ترجوه أن يذهب إليها، لأنها تريد أن تودعه الوداع الأخير، وأن تعهد إليه بأمر لينتون الصغير، فقد كانت تود أن تتركه مع خاله. ولم يتردد سيدي في الذهاب إليها، وترك كاثرين في رعايتي أثناء غيابه، بعد أن أصدر إلي أوامره بألا أدعها تتجول خارج الحديقة، حتى ولو كان ذلك في صحبتي. وقد امتدت غيبته ثلاثة أسابيع.

وتعودت كاترين أن تقوم بالتجول داخل حدود المزرعة، وهي ممتطية صهوة مهرها الصغيرة. وكانت غالباً ما تبقى خارج البيت منذ وقت الإفطار حتى موعد الشاي. ولم أكن أخشى أن تخترق الحدود المرسومة، فقد كانت الأبواب موصدة، وقد خيل إليّ أنها لن تجرؤ على التوغل خارج هذه الحدود بمفردها، حتى ولو كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها، ولكني تبينت لسوء حظي أن هذه الثقة لم تكن في موضعها. فقد حدث ذات يوم أن لم تظهر الصغيرة في موعد الشاي بعد الظهر، ولم يظهر لها أي أثر في أي اتجاه هي والمهر وكلب الصيد، فخرجت للبحث عنها، والتقيت بفلاح يشذب الأشجار على سور يقع على حدود أملاكنا. فسألته إن كان قد رأى سيدتنا الصغيرة، فأجاب:

- لقد رأيتها هذا الصباح، وهي تقفز بجوادها من فوق السور في تلك البقعة المنخفضة منه، وأسرعت تعدو حق اختفت عن الأنظار.

وكان أول ما خطر لي أنها لا بد قد ذهبت إلى بنستون كراجز، فسرت في اتجاهه، وقطعت ميلاً بعد ميل حتى بلغت منحني أستطيع أن أرى من

خلاله «مرتفعات وذرنج»، ولكن لم أتبين أي أثر لكاترين عن قرب أو عن بعد. وفكرت في نفسي قائلة: ماذا يكون الحال لو أن قدمها كانت قد زلت أثناء تسلق الصخور، فسقطت قتيلة أو كسرت عظامها؟

والواقع أن جزعي كان شديداً، ولكن لم يلبث أن غمرني الشعور بالارتياح عندما كنت اخترق المزرعة، فقد رأيت أحد كلابها ملقى تحت إحدى النوافذ والدم ينزف من أذنه. ورأتني امرأة كانت قد التحقت بالخدمة عقب وفاة إيرنشو، فحيتني وقالت لي:

- آه.. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة؟ لا تخشى شيئاً، فهي هنا بخير. وقد أسعدني أن السيد لم يطرق الباب بعد.

قلت مبهورة الأنفاس: إنه ليس في المنزل إذن؟

فأجابات: كلا. لقد خرج هو وجوزيف، ولا أظن أنهما سيعودان قبل ساعة أو أكثر.

ودخلت.. ورأيت «كاترين» تجلس على مقعد صغير كان لأمها وهي صغيرة. وقد راحت تضحك وتتجاذب الحديث مع «هيرتون» الذي كان قد أصبح شاباً قوياً في الثامنة عشرة من عمره. وكان هيرتون يحملق فيها في دهشة وفضول بالغين.. وصحت بها: حسن يا آنسة.. هذه آخر مرة تركبين فيها جوادك حتى يعود والدك من سفره، فما عدت أثق بك مرة أخرى.. أيتها الفتاة الشقية.

فهتفت في مرح: آه يا إيلين.. تراك قد عثرت علي! هل أتيت إلى هذا البيت في حياتك قبل الآن.

قلت: هيا إلى البيت.. إنني مستاءة للغاية منك يا مس كاتي، فقد ارتكبت خطأ جسيماً.

فصاحت: ما الذي فعلته؟

قلت: حسن يا مس كاتي.. لو أنك عرفت من يكون صاحب هذا البيت، لأسعدك أن تغادريه على الفور.

فقالت وهي تنظر إلى هيرتون: إنه بيت أبيك.. أليس كذلك؟

أجاب: كلا.. قال ذلك وهو يطرق برأسه إلى الأرض وقد أحمر وجهه خجلاً، فلم يستطع الصمود أمام نظراتها الثابتة، ولو أن عينيها كانتا تشبهان عينيه تماماً.

فسألته: بيت من إذن؟.. سيدك؟

فازداد وجهه احمراراً، وإن كان بشعور يختلف عن شعوره الأول. وغمغم بكلمة سباب. وأشاح بوجهه بعيداً.

واستطردت كاتي متوجهة بحديثها إلي: من هو سيده؟ لقد كان يتحدث عن بيتنا، ولذلك قدرت أنه ابن صاحب البيت.. وهو لم يقل لي «يا سيدتي»، وكان من الواجب أن يقولها إذا كان خادماً.. أليس كذلك؟

وعند هذا أصبح وجه هيرتون داكناً كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحداً من سياس الجرانج، فقالت له: أذهب الآن واحضر جوادي.

فزمجر الشاب قائلاً: أراك وقوداً للجحيم قبل أن أكون خادماً لك؟

فسألت كاترين في دهشة: تراني ماذا؟

أجاب: وقوداً للجحيم..

فصاحت: ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة يا إيلين؟ سوف أخبر أبي بما قلته أيها المخلوق الشرير.

فقالت المرأة: مهلاً يا آنسة فإنه إذا كان مستر هيرتون هذا الذي يقف أمامك ليس ابن صاحب البيت، إلا أنه ابن خالك.

فصاحت كاتي: هذا.. ابن خالي! أوه يا إيلين.. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء. لقد ذهب أبي ليحضر ابن عمتي من لندن.. إن ابن عمتي ابن أحد السادة..

واستبد بي الضيق منها ومن الخادم.. لتصريحاتهما المتبادلة، ولكني لم أستطع مغالبة الابتسام لمشهد نفور كاترين من هيرتون، ذلك الفتى المسكين الذي رأيته وقد أصبح شاباً قوياً، متين البنيان، وسيم الطلعة، يفيض

صحة وعافية، إلا أنه يرتدي ثياباً رثة أشبه بثياب العمال. ومع ذلك فقد خيل إلي أنني أستطيع أن أستشف من وراء هذا المحيا عقلاً له من المزايا ما لم يتح لوالده قط. واعتقد أن مستر هيثكليف لم يسيء معاملته بدنياه، وإنما يبدو أنه كرس كل حقده في أن يجعل منه وحشاً فظ الخلق، فهو لم يتعلم شيئاً من مبادئ القراءة أو الكتابة، وهو لم يزجر على سوء سلوكه.

وبدأنا رحلة العودة إلى البيت. وكما توقعت فقد عرفت أن غايتها من الرحلة هي رؤية «بستون كراجز». ولكنها عندما وصلت إلى باب المزرعة، تصادف خروج «هيرتون» وفي رفقته كلابه، التي ما لبثت أن هاجمت كلابها. وكانت المعركة الحامية سبباً في التعارف. وقد كشفت «كاترين» لهيرتون عن شخصيتها، وأخبرته بأن تعتزم الذهاب إلى التلال، ثم سألته أن يرشدها إلى الطريق.. وقد استطعت أن أتبين أن رفيقها كان موضع رضاها إلى أن أساءت إليه بمخاطبته كأحد الخدم، وإلى أن أدت خادم «هيثكليف» شعورها بما زعمته من أنه ابن خالها. وقد بذلت جهداً عظيماً إلى أن وعدتني بإخفاء أحزانها عن أبيها. وشرحت لها كيف أنه لا يستريح إلى أي إنسان ممن يسكنون «المرتفعات»، وقلت لها أنها لو كشفت له عن إهمالي وتقصيري في أوامره، فربما بلغ به الغضب إلى الحد الذي يضطرني إلى ترك البيت. ولم تكن «كاتي» تقدر على تحمل هذه النتيجة الأليمة، ومن ثم فقد وعدتني بكتمان الأمر، وحافظت على هذا الوعد إكراماً لي. وعلى أية حال، فقد كانت «كاتي» فتاة رقيقة المشاعر، حلوة الشمائل.

-19-

تلقيت خطاباً مجللاً بالسواد –بعد أن ماتت إيزابيلا- يعلن فيه سيدي يوم عودته، ويأمرني بإعداد غرفة لابن أخته الشاب.

وفي المساء الذي كنا نتوقع فيه عودتهما، ظهرت عربة الرحلة وهي تعدو من بعيد، ثم توقفت عند الدرج الأمامي للبيت. وكان «لينتون» غلاماً شاحب الوجه، رقيق البنية، وقال خاله: هذه ابنة خالك كاتي يا «لينتون». وقد أولعت بك قبل أن تراك، فلا تحزنها بالبكاء الليلة.. وحاول أن تبتسم. فقد انتهت الرحلة.

فتراجع الغلام عن تحية كاترين. ورفع أصابعه ليمسح الدموع التي بدأت تترقرق في عينيه، ثم قال: دعني أذهب إلى الفراش.

فقال لي السيد: سوف تطيب له الحياة هنا يا «إيلين» إذا استطعنا الاحتفاظ به، ذلك أن صحبة فتاة في مثل عمره لن تلبث أن تنفث فيه روحاً جديدة.

فقلت وأنا أشعر في أعماقي أن الأمل ضئيل في تحقيق ذلك: أجل.. هذا إذا استطعنا أن نحتفظ به.

وسرعان ما تحققت شكوكنا بأسرع مما كنت أتوقع. فقد اصطحبت الصغيرين إلى الطابق العلوي، وانتظرت بجانبهما إلى أن استغرق لينتون في النوم. ثم لم تلبث أن قدمت خادم لتخبرني أن «جوزيف» خادم مستر «هيثكليف»، واقف بالباب.

قلت له في برود: مساء الخير.. يا جوزيف.

فأجاب: إنني أريد أن أتحدث مع مستر لينتون.

وصعدت إلى المكتبة على مضض لأعلم سيدي بوصول زائر. ولكن جوزيف لم ينتظر حتى أعلن عن قدومه، ولكنه سار في أعقابي، واندفع إلى داخل الغرفة وهو يقول: لقد أرسلني «هيثكليف» لإحضار ابنه.. ولن أعود بدونه.

وصمت «إدجار لينتون» لحظة، وقد استبد به حزن مرير لمجرد التفكير في التخلي عن الصغير، وأخذ يبحث في أعماقه عن وسيلة يتجنب بها الرضوخ لطلب هيثكليف، ولكن تفكيره لم يسعفه بأي خطة تحقق له غرضه، ولذلك فإنه لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يسلم الولد لأبيه، وإن كان لم يقبل أن يوقظه من نومه في مثل هذه الساعة.

وعلى ذلك فقد أجاب بهدوء: أبلغ مستر هيثكليف أن ابنه سوف يتوجه إلى «مرتفعات وذرنج» غداً.. فهو الآن نائم في فراشه، ومتعب للغاية، ولا يستطيع أن يقطع رحلة أخرى.. وأخبره أيضاً أن والدة «لينتون» قد أبدت رغبتها في أن يبقى الطفل تحت رعايتي، لأن حالته الصحية ضعيفة في الوقت الحاضر، وتحتاج إلى مزيد من العناية والرعاية.

فصاح جوزيف: لا.. إن هيثكليف لا يقيم وزناً للأم.. ولا لك. ولكنه مصر على استرداد ابنه، ولابد لي أن آخذه معي!

أجاب لينتون في حزم: لن تأخذه الليلة!

ثم أمسك بذراع الرجل العجوز الغاضب، وأخرجه من الغرفة، وأغلق بابها..

وصاح جوزيف: حسن جداً.. إنه سوف يأتي بنفسه غداً. وعليك أن تطرده هو الآخر.. إن كانت لديك الجرأة على ذلك!

-20-

رأى مستر لينتون أن يتجنب الخطر الذي قد يتهدده من جراء تنفيذ الوعيد الذي ألقى به جوزيف، فكلفني بأن اصطحب الصبي إلى بيت أبيه في الصباح الباكر.. على مهر كاترين.

ثم قال لي: يجب ألا تذكري لابنتي شيئًا عن مكانه، لأنه لا يمكن أن نتصل به من الآن فصاعدًا، ولهذا يحسن بها أن تظل جاهلة أنه موجود على القرب منها حتى لا تتوق يومًا لزيارة المرتفعات، ويكفي أن تخبريها بأن والده قد بعث في طلبه فجأة، فاضطر إلى الرحيل.

وقد أبدى لينتون الصغير استنكارًا شديدًا لإيقاظه من فراشه في الخامسة صباحًا، كذلك فإنه أصيب بدهشة بالغة عندما طلبت إليه أن يستعد لرحلة أخرى، ولكني هونت عليه الأمر، عندما قلت له أنه سوف يذهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه، وعندئذ صاح الغلام في حيرة بالغة: أرى أبي؟ أن أمي لم تقل لي أبدًا أن لي أبًا!.. أين يعيش؟ أنني أفضل البقاء مع خالي.

ووقف المهر أمام بوابة الحديقة عند البيت الريفي. وقبل أن يترجل عن مهره، ذهبت وفتحت الباب. وكانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، وفي ذلك الوقت كانت الأسرة قد فرغت من تناول طعام الإفطار. وعندما وقع بصر مستر هيثكليف عليّ، هتف قائلاً: مرحبًا بك يا نيللي!.. لقد كنت أخشى أن أضطر إلى الذهاب إلى الجرانج لكي أحضر بنفسي ما يخصني، ولكني أراك قد أحضرت.. أليس كذلك؟ دعينا نرى ماذا يمكن أن نصنع به!

ثم نهض من مكانه، وسار نحو الباب في خطوات واسعة، يتبعه جوزيف وهيرتون مندفعين بالفضول وحب الاستطلاع، فأجال لينتون المسكين نظرة مرتاعة في الوجوه الثلاثة التي كانت تتطلع إليه.

وقال جوزيف بعد أن تفحصه جيدًا: بكل تأكيد يا سيدي أنه قايضك، وأرسل إليك ابنه هو!

وعندئذ أطلق هيثكليف ضحكة ساخرة، ثم قال: يا إلهي.. ما هذا الجمال؟ إنه حقًا شيء لطيف وساحر! أوه.. لعنة الله على روحي!.. إن هذا أسوأ بكثير مما توقعت، ويعلم الشيطان إنني لم أكن مغرقًا في الأمل.

وأمرت الطفل المرتعد الحائر أن يترجل عن المهر، وأن يدخل البيت. ولم يكن واثقًا بعد بأن ذلك الغريب الصارم الساخر هو والده.. وعندما صاح به هيثكليف «تعال هنا»، دفن وجهه في صدري، وأجهش بالبكاء.

وهنا جذبه هيثكليف بخشونة، وأمسك بذقنه، ورفع رأسه عاليًا وهو يقول: صه.. صه. دعك من هذا الهراء. إننا لن نؤذيك يا لينتون.. إنك ابن أمك في كل شيء، فأين نصيبي فيك؟

وراح هيثكليف يتحسس ذراعي الطفل النحيلتين وأصابعه الصغيرة. وعندما أصبح على اقتناعٍ بأن أطراف الصبي جميعها على درجة واحدة من الرقة والضعف، سأله قائلاً: هل تعرفني؟

فأجابه الصبي وفي عينيه نظرة كلها خوف: كلا..

- لعلك سمعت عني إذن؟

فأجاب ثانية: كلا..

- أتقول كلا؟ دعني إذن أخبرك إنك إبني، وأن أمك كانت امرأة شريرة، إذ تركتك تجهل حقيقة أبيك.

فقلت: أرجو أن تكون رفيقًا بالصبي يا مستر هيثكليف، وإلا فإنك لن تستطيع أن تحتفظ به طويلاً. وتذكر أنه يمثل القرابة الوحيدة لك في كل هذه الدنيا الواسعة.

فقال ضاحكًا: سوف أكون رفيقًا به، فلا تخشي شيئًا.. أجل يا نيللي. إن ابني هو المالك المرتقب لضيعتكم، ولست أرغب في موته إلى أن أتأكد إنني وارثه. وفضلاً عن ذلك فإنه ابني. كما إنني أريد أن أستمتع بنشوة الانتصار عندما أرى ابني أنا وقد أصبح مالكًا لضياعكم. وهذا هو الاعتبار الوحيد الذي يجعلني أتحمل هذا المخلوق، الذي احتقره لذاته، وأمقته للذكريات البغيضة التي يثيرها في نفسي.. ومع كل ذلك فإنه سوف يكون في أمان معي،

وسأكفل له الرعاية الكاملة. وقد اخترت مدرساً لتعليمه، وأمرت هيرتون أن يدين له بالطاعة، ولو إنني أشعر بالأسف لأنني وجدت أن هذا الصغير لا يستحق كل ذلك العناء، كما أنني أشعر بخيبة أمل مريرة كلما تطلعت إلى هذا التعس الباهت الوجه.

وعندما لم أجد سبباً يدعوني إلى البقاء أكثر من ذلك، انسللت خارجة، ولكني ما كدت أغلق الباب حتى سمعته يصيح قائلاً: لا تتركيني!.. لا أريد البقاء هنا!.. لا أريد البقاء هنا!..

ولكنهم حالوا بينه وبين الخروج..

-21-

كانت مهمتنا نحو كاتي الصغيرة شاقة في ذلك اليوم.. فقد استيقظت من نومها وهي تفيض مرحاً، وتتلهف على رؤية ابن عمتها. ولم تكد تعرف نبأ رحيله، حتى انخرطت في بكاء حار ومرير بدرجة اضطر معها إدجار إلى محاولة تهدئتها، مؤكداً لها إن لينتون سوف يعود سريعاً.. وقد تحفظ فأردف قائلاً: «هذا إن استطعت إليه سبيلاً».. ولم يكن هناك ثمة أمل في ذلك. والذي حدث أنه قبل أن يقدر لها أن تراه مرة ثانية، كانت ملامحه قد تلاشت من ذاكرتها تماماً، بحيث إنها لم تتعرف إليه عندما رأته!..

وكنت كلما التقيت بمديرة بيتي «مرتفعات وذرنج» -عند زيارتي لقرية جيمرتون- أسألها عن حال السيد الصغير. وعرفت منها إنه ما زال ضعيف البنية، وعنيداً. وقد أخبرتني أنه قد بات واضحاً أن مستر هيثكليف يزداد كراهية لابنه بمرور الوقت، وإن كان يحاول إخفاء ذلك، وإنهما نادراً ما يتبادلان الحديث، فإن لينتون إما أنه يستذكر دروسه، وإما أنه يمضي اليوم كله راقداً في فراشه، لكثرة ما يعني من نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام. وقد أضافت المرأة قائلة:

- .. وما عرفت في حياتي مخلوقاً رعديداً أو شخصاً حريصاً على نفسه مثل هذا الصبي.. وإذا أشفق عليه هيرتون وجاء لتسليته –لأن هيرتون طيب القلب وإن كان خشناً- فإنهما لسرعان ما يفترقان.. أحدهما لاعناً سابّاً والآخر باكياً.

وقد أدركت من خلال هذا الحديث إن حرمان هيثكليف الصغير قد أدى إلى أن يصبح أنانياً، سيء الخلق، على غير ما كان عليه أصلاً.

وتتابعت الأيام في الجرانج على نهجهما السابق البهيج، حتى بلغت مس كاتي السادسة عشرة من عمرها.. ولم نكن نحتفل بعيد ميلادها على الإطلاق، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتي الراحلة. وكان والدها قد اتخذ لنفسه

أسلوباً لا يتغير، وهو قضاء اليوم بمفرده في المكتبة إلى ما قبيل الغروب، حيث ينطلق إلى فناء كنيسة جيمرتون لزيارة قبر زوجته، ويبقى هناك حتى منتصف الليل.

وفي تلك السنة، كان يوم العشرين من مارس يوماً من أيام الربيع الرائعة. وما كاد الوالد يعتكف كعادته، حتى نزلت سيدتي الصغيرة وقد ارتدت ثياب الخروج، وقالت إنها قد استأذنت والدها في القيام بجولة معي عند أطراف البراري. وأن مستر «لينتون» قد أذن لها بذلك مشترطاً أن نكون قريبين من البيت وأن نعود في مدى ساعة واحدة.

وصاحت قائلة: هيا إسرعي يا «إيلين» فإنني أعرف إلى أين أريد الذهاب.. هناك حيث تقيم بعض طيور الأحراش، لأرى ما إذا كانت قد بنيت أعشاشها أم لا.

وبعد أن سرنا طويلاً، قلت لها: حسن.. أين هي طيورك البرية يا مس «كاتي»؟ كان ينبغي أن نكون عندها الآن، فقد بعدنا كثيراً عن سور حديقة «الجرانج».

وكانت تجيبني على الدوام: إنها غير بعيدة يا إيلين..

ولكني أخيراً قلت لها أننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا. وطفقت أدعوها لذلك وهي تسبقني بمسافة طويلة، وتقفز هنا وهناك، حتى اضطررت إلى محاولة اللحاق بها. ولم تلبث أن اختفت عن ناظري داخل تجويف بين التلال. وقبل أن أراها مرة أخرى، كانت أقرب بمسافة ميلين عن «مرتفعات وذرنج» عنها إلى بيتها. ثم رأيت شخصين يمسكانها وكان أحدهما فيما اعتقدت هو مستر هيثكليف شخصياً.

كانت «كاتي» قد ضبطت متلبسة بسرقة أعشاش الطيور البرية وكانت المرتفعات من أملاك «هيثكليف». وقد سمعتها عندما وصلت إليها، تقول: إنني لم آخذ شيئاً. ولم يكن في نيتي أن أفعل ذلك.. ولكن بابا أخبرني بوجود كثير منها هنا فوددت أن أرى البيض.

فرمقني هيثكليف بعينيه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة، ثم سأل عمن عساه يكون «بابا». فأجابت: إنه مستر لينتون صاحب ترشكروس جرانج، وقد

أدركت أنك لم تعرفني، وإلا ما كنت قد حدثتني بهذه اللهجة.

قال: أتحسبين أن «بابا» ذو مكانة عالية واحترام موفور؟!

فرمقت كاترين محدثها بنظرة كلها دهشة واستغراب، ثم سألته: ومن تكون أنت؟ ثم إنني قد رأيت هذا الرجل الذي يصحبك من قبل.. فهل هو ابنك؟

وأشارت إلى هيرتون، الشخص الآخر، الذي كان يبدو على عهدته فيه دائماً من الخشونة والفظاظة.

وقد قاطعتها قائلة: مس كاتي.. لابد لنا من العودة إلى البيت.

فأجاب هيثكليف وهو يدفعني جانبًا: كلا.. أن هذا الرجل ليس ابني، ولكن لي ابنًا رأيته أنت من قبل أيضًا. ورغم أن مربيتك في عجلة من أمرها، إلا أنني أفضل لك ولها أن تنالا قسطًا من الراحة.. فهل لك أن تدوري في هذا الطريق، وأن تتوجهي إلى بيتي؟

فهمست إلى كاترين أنه لا ينبغي بأية حال أن تلبي هذه الدعوة، فتساءلت: لماذا؟ لقد تعبت ولا أستطيع الجلوس هنا، فدعينا نذهب يا إيلين.. وفوق ذلك فإنه يقول إنني قد رأيت ابنه، وأحسبه مخطئًا في زعمه.. على أن في وسعي أن أخمن أن يقيم.. في ذلك البيت الريفي الذي زرته أثناء عودتي من «بنستون كراجز».. ألست تقيم هناك؟

فأجاب: أجل.. وأنت يا نيللي امسكي لسانك.. تقدم أمامنا يا هيرتون مع الفتاة.

وصحت: كلا.. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان.

وعندما رأيتها تركض بأقصى سرعتها، استطردت قائلة: إن ما تفعله يا مستر هيثكليف خطأ جسيم، فأنت تعرف إنك لا تبغي خيرًا.. سوف ترى الفتاة لينتون.. وسوف تروي لأبيها كل شيء بمجرد عودتنا.. وعلى عاتقي سوف يقع اللوم كله.

فأجاب: إنني أريدها أن ترى لينتون، فهو يبدو أحسن حالًا في هذه الأيام، وهو قلمًا يكون في حال يصلح معها لأن يراه أحد.. وسوف نقنعها الآن بأن

تبقي أمر هذه الزيارة سراً.. فأين الضرر في ذلك؟

أجبت: الضرر في ذلك هو أن والدها سيكرهني إذا اكتشفت أنني سمحت لها بدخول بيتك. كما أنني على اقتناع تام بأن لك هدفًا خبيثًا من وراء تشجيعها على ذلك.

قال: بل أن هدفي شريف قدر المستطاع، وهو أن يتحاب ابن العمة وابنة الخال ثم يربط الزواج بينهما. وفي هذا فإني أسدي يداً كريمة لسيدك، فإن ابنته الصغيرة لا أمل لها أن ترثه. فإن هي استجابت لرغباتي، فإن ذلك يكسبها الحق في مشاركة لينتون ميراث خاله.

أجبت: إذا مات ابنك، فإن كاترين ستكون الوارثة.

فقال: كلا.. لن تكون الوارثة، فليس في الوصية نص يضمن لها ذلك، وإنما سوف تنتقل أملاكه إليّ، ولكي نمنع هذا الجدل، فإنني أود أن يتزوجا.

وكانت كاتي تقف عند بوابة الحديقة، في انتظار وصولنا، حيث قادنا هيثكليف إلى البيت، وكان لينتون يقف إلى جوار المدفأة بعد أن عاد من نزهته، وكان يطلب إلى جوزيف أن يأتيه بحذاء جاف. وكان طوله غير عادي بالنسبة لعمره حيث كان قد بلغ السادسة عشرة تقريباً.

والتفت مستر هيثكليف نحو كاتي، وسألتها: والآن.. من يكون هذا الشخص؟ هل تعرفينه؟

فراحت تنقل عينيها بين أحدهما والآخر في تشكك، ثم قالت: أهو ابنك؟

فأجاب: نعم.. نعم.. ولكن هل هذه أول مرة ترينه فيها؟ فكري!.. وأنت يا لينتون.. ألا تذكر ابنة خالك؟

فصاحت كاتي بدهشة تمتزج بالغبطة: ماذا؟ لينتون؟ أهذا هو لينتون الصغير؟ ولكنه يفوقني طولاً.. هل أنت لينتون حقًا؟

وتقدم الشاب نحوها، فقبلته بحرارة، ثم راحا يتبادلان نظرات كلها دهشة مما أحدثه الزمن من تغيير في ملامحهما. وقالت لهيثكليف: إنك زوج عمتي إذن! اعتقد أنني أحببتك رغم عبوسك في بادئ الأمر. ولكن لماذا لا تزور

الجرانج مع لينتون؟ أليس غريباً أن نكون جيرانًا متلاصقين كل هذه السنين، ثم لا تزورنا قط؟

أجاب: لقد زرت الجرانج مرة أو مرتين قبل مولدك.

وصاحت كاترين: إنك خبيثة يا «إيلين» لأنك حاولت منعي من الدخول. ولكني سوف أسير إلى هنا كل صباح في المستقبل.. فهل تسمح بذلك يا عمي؟ وهل أحضر بابا معي أحيانًا؟ هل يسرك أن ترانا؟

فأجاب العم: طبعًا.. ولكن من الخير أن أخبرك أنني تشاجرت مرة مع مستر لينتون، فلو أنك ذكرت له شيئًا عند قدومك إلى هنا، فسوف يعترض على زياراتك لنا. يمكنك أن تحصري كلما شئت، ولكن دون أن تذكري له ذلك.

فسألته كاترين: ولماذا تشاجرتما؟

أجاب هيثكليف: لقد أعتقد أنني لست كفؤًا للزواج من شقيقته لأنني فقير. وقد غضب عندما ظفرت بها، واعتبر ذلك جرحًا لكبريائه ولا يمكخن أن يغفر لي ذلك قط.

فقالت الفتاة: هذا خطأ منه، وسأقول له يومًا ما، ولكن لا ذنب لنا أنا ولينتون في شجاركما. وما دمت لن أحضر إلى هنا، فعليه أن يأتي إلى «الجرانج».

فغمغم ابن عمها قائلاً: إن المسافة طويلة لا أقوى على قطعها... إن السير أربعة أميال سوف يقتلني.

فرمق الأب ابنه بنظرة تفيض مرارة وازدراء، وهمس لي قائلاً: إنني خائف يا نيللي أن تذهب جهودي هباء. فإن مس كاترين سوف تكتشف حقيقة جوهره، فتلقي به إلى الشيطان. لعنة الله على هذا المخلوق التافه!.. إنه منهمك في تجفيف قدميه دون أن يلقي إليها بالاً!.. لينتون!..

أجاب الغلام: نعم يا أبي.

- أليس لديك شيء يمكن أن تراه ابنة خالك؟ خذها لترى جوادك.

فسألها لينتون: ألا تفضلين الجلوس هنا؟

أجابت وقد بدا عليها التلهف للحركة: لست أدري حقًا!

وظل قابعًا في مقعده، وقد ازداد اقترابًا من المدفأة. وعندئذ نهض هيثكليف وذهب إلى الفتاة، وأخذ ينادي هيرتون. وما لبث أن دخل الاثنان الغرفة. ولم تكد مس كاتي ترى هيرتون حتى بدا عليها التفكير، كأنها تستعيد ما سمعته من مديرة البيت، وصاحت قائلة: آه.. إنني أريد أن أسألك يا عمي..

أهذا ابن خالي حقًا؟

فأجاب: نعم.. إنه ابن خالك.. ألا تحبينه؟

وعندما بدت الحيرة على وجه كاترين، عاد يسألها: ألا تجدينه شابًا لطيفًا؟ سوف تكون فتاها الأثير يا هيرتون.. اذهب معها، وطف بها في أنحاء المزرعة، واسلك سلوك السيد المهذب، فلا تتفوه بكلمات نابية، وانطق كلماته في بطء ووضوح. اذهب معها الآن، وحاول أن تسري عنها قدر ما تملك من لطف ورقة.

ثم أخذ يرقبهما وهما يمران أمام النافذة. وتابع كلامه قائلاً: إنني أرى فيه ما يسرني. لو أنه ولد أبله لما شعرت بنصف ما استمتع به الآن من سرور، ولكنه ليس أبله. وقد ألقيت به إلى أحط مما ألقاني إليه والده. إن لديه صفات عظيمة، ولكنها ضائعة، وقد غدت أسوأ من عدمها. وأحسن ما في الأمر أن هيرتون مولع به أشد الولع.

ولاحظ هيثكليف نظرات لينتون وقد انطلقت تهيم من خلال النافذة، فصاح به: انهض أيها الولد الكسول.. والحق بهما.

وترك لينتون مكانه بجوار المدفأة. وفيما كان يجتاز الباب، سمعت صوت كاترين وهي تسأل هيرتون عن الكتابة المنقوشة فوق الباب، فراح يحملق بعينيه في النقوش، وهو يحك رأسه، ثم أجاب أنها كتابة لعينة.. ولا أستطيع قراءتها.

فصاحت كاترين: لا تستطيع قراءتها؟ إنني أستطيع ذلك، ولكني أريد أن أعرف سبب وجودها فوق الباب.

وعندئذ ضحك لينتون، وقال لابنة خاله: إنه لا يعرف الحروف الأبجدية، فهل يمكنك أن تصدقي وجود مثل هذا الجهل؟

فسألته مس كاتي بجدية: هل هو شخص مكتمل العقل كما ينبغي أن يكون؟ لقد ألقيت عليه الآن سؤالين، وفي كل مرة كان يبدو عليه الغباء بحيث خيل إلى أنه لا يفهمني.

فضحك لينتون مرة أخرى، ثم قال: ليس به من شيء سوى البلادة.

أليس كذلك يا إيرنشو! إن ابنة الخال تحسبك أبله.. وبذلك تلقى جزاء سخريتك مما تسميه «تعليم الكتب».

وزمجر هيرتون قائلاً: ما الفائدة منها بحق الشيطان؟

وأثار ذلك نوبه من الضحك الصاخب، ثم قال لينتون: وما جدوى الشيطان في هذه العبارة؟ لقد أمرك أبي ألا تتفوه بأية كلمة غير لائقة، وها أنت ذا لا تستطيع أن تفتح فمك دون أن تتفوه بواحدة منها. والآن.. حاول أن تسلك سلوك السيد المهذب.

فصاح هيرتون قائلاً: لو لم تكن أقرب إلى الفتاة منك إلى الفتى، لصرعتك في هذه اللحظة..

ثم أسرع مبتعداً وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب.

وفي طريق العودة إلى البيت، حاولت أن أطلع كاترين على حقيقة أخلاقيات الناس الذين غادرنا بيتهم، ولكنها بادرتني قائلة: آه.. إنك تتحيزين إلى جانب أبي يا إيلين، وإلا لما خدعتني كل هذه السنين بقولك إن لينتون يعيش في مكان بعيد جداً. إنني شديدة الغضب منك حقاً، ولكن سروري اليوم يروّح عني، بحيث يحول دون انفجار غضبي. ولكن عليك أن تمسكي لسانك عن زوج عمتي.. إنه عمي، فتذكري ذلك جيداً. أما أبي فسوف أعتب عليه شجاره معه.

وفي اليوم التالي، افتضح السر كله، إذ ما كادت كاتي تلقي بتحية الصباح على أبيها، حتى هتفت قائلة: بابا.. هل بوسعك أن تخمن من رأيت بالأمس في نزهتي بين البراري؟ آه.. أراك جفلت يا أبي.. لقد خانك حذرك الآن.. أليس كذلك؟

ومضت تسرد على مسامع أبيها أحداث الأمس في تفصيل أمين. ولم يقل السيد شيئًا حتى انتهت من قصتها، وعندئذ سألها عما إذا كانت تعرف لماذا أخفي عليها وجود لينتون في جوارنا القريب، وهل تظن أنه فعل ذلك لمجرد حرمانها من متعة لا ضرر في الاستمتاع بها؟

فأجابت: بل تكره مستر هيثكليف.

قال: إذن فأنت تعتقدين أنني أهتم بعواطفي أكثر من اهتمامي بعواطفك يا كاتي. كلا.. لم يكن ذلك لأنني أكره مستر هيثكليف، ولكن لأنه يكرهني.. فهو رجل جهنمي، يجد متعته في الإساءة وفي تدمير من يكرههم. وكنت أعرف أنه من المستحيل توثيق عرى المودة بينك وبين ابن عمتك دون أن تتصلي به. وكنت أعلم أنه سوف يبغضك لأنك ابنتي.

ويبدو أنها لم تقتنع بهذا الحديث، فقالت: ولكن مستر هيثكليف كان ودودًا في ترحيبه بي يا أبي.

فلما رأى سيدي أنها لا تريد أن تصدق ما يتصف به زوج عمتها من طباع شريرة، راح يروي لها بإيجاز سلوكه مع إيزابيلا، والطريقة التي آلت بها إليه ملكية «مرتفعات وذرنج» وقد دهشت مس كاتي لهذا القلب الأسود الذي يضمر نية الانتقام طوال هذه السنين، وبدت عليها علامات الضيق من هذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية، وهو شيء لم يسبق لها أن قرأت عنه في دراساتها أو خطر ببالها حتى تلك اللحظة. وقد اكتفى مستر إدجار بأن أضاف قائلاً: أنت تعرفين الآن لماذا أود أن تتجنبي بيت هذا الرجل وأسرته، وألا تفكري فيهم بعد ذلك قط.

فقبلت كاترين والدها. ومضى اليوم كله كالمعتاد. ولكني في المساء وجدتها تنتحب باكية، وقالت لي: إنني لا أبكي من أجل نفسي يا إيلين ولكن

من أجله. لقد كان يتوقع رؤيتي مرة ثانية غداً، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل.. وسوف ينتظرني بلا جدوى.

قلت: هراء! إن لديه رفيقاً يقوم بتسليته هو هيرتون، وهو لن يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك.

سألت: ولكن، هل لي أن أكتب إليه رسالة قصيرة أفسر له فيها سبب تخلفي؟ وأن أرسل إليه معها هذه الكتب التي وعدته بإعارتها له؟

أجبت في حزم: كلا.. لن يحدث ذلك. تكتبين إليه، وعندئذ يكتب إليك، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد. كلا يا مس كاترين، يجب قطع هذه العلاقة نهائياً.

وعادت تلمح من جديد: ولكن كيف يمكن لرسالة صغيرة أن..

قاطعتها: صه! إننا لن نعود إلى الحديث عن رسائلك الصغيرة. هيا إلى الفراش.

ومع ذلك فقد كتبت الرسالة القصيرة، وبعثت بها إليه مع صبي اللبان الذي كان يحضر من القرية. ولم يتح لي معرفة ذلك إلا بعد انقضاء بضعة أسابيع إذ كان لها درج صغير في إحدى خزائن المكتبة. وقد حدث ذات يوم أثناء تنقيبي في هذا الدرج أن لمحت اختفاء اللعب التي كان مكتظاً بها ووجود بضعة أوراق مطوية مكانها. وقد أثار ذلك فضولي وحرك شكوكي، فقررت أن ألقي نظرة على محتويات الدرج. وذات يوم عثرت على مفتاح مناسب للدرج، ووجدته يضم مجموعة من الرسائل تكاد تكون يومية تقريباً، من لينتون هيثكليف، كانت ردوداً على رسائل بعثت هي بها إليه. وكانت رسائل غرام ساذجة، ومع ذلك فقد كانت تنطوي على لمسات رائعة متناثرة هنا وهناك، الأمر الذي جعلني أحزم بأن صاحبها قد استعارها من مصدر أكثر خبرة. وما أن فرغت منها حتى جمعتها في منديل أخفيته عندي، ثم أغلقت الدرج فارغاً.

ولما نزلت سيدتي الصغيرة مبكرة على عادتها، ودخلت المطبخ، أخذت أراقبها خلسة حتى رأيتها تدنو من الباب في اللحظة التي قدم فيها غلام صغير معين. وفي الوقت الذي كانت فيه الخادم تملأ له قدر اللبن، رأيت

كاتي تدس شيئًا في جيب سترته، وتلتقط شيئًا آخر من هذا الجيب. فدرت البيت في اتجاه الحديقة، حيث انقضضت على الرسول واستطعت أن انتزع الرسالة منه. وما كادت كاترين تفرغ من دروس الصباح، حتى ذهبت إلى الدرج. وندت عنها صرخة يأس، وصاحت قائلة: آه يا إيلين! أنت التي أخذت الرسائل. رديها إليّ، ولا تخبري أبي. لقد كنت شديدة الحماقة، ولكني لن أفعل ذلك بعد الآن.

فصحت بها: إذن يجب أن تخجلي منها يا مسز كاترين. فلابد أنك قد أمضيت ساعات طويلة في كتابة مثل هذه التفاهات. وإنني على ثقة بأن الفتى لم يكن هو البادئ بالكتابة.

فأجهشت بالبكاء وقد انشطر قلبها، وقالت: إنني لم أفعل! إنني لم أفعل! إنني لم أفكر لحظة واحدة في حبه قبل أن..

فصرخت قائلة: حبه.. أتقولين حبه؟ إنك لم تقض مع لينتون خلال المرتين اللتين رأيته فيهما أكثر من أربع ساعات!.. إن معي الآن هذه التفاهات الصبيانية، وسوف أذهب بها لكي أرى ماذا يقول والدك في هذا الحب.

فوثبت محاولة انتزاع رسائلها الثمينة مني، ولكن رفعتها فوق رأسي، وعندئذ توسلت إليّ أن أحرقها، أو أن أفعل بها أي شيء، إلا أن يطلع أبوها عليها.

قلت: إذا وافقت على حرقها، فهل تعدينني بكل أمانة بألا ترسلي إليه أو تتلقي منه أية رسالة أخرى.. أو كتاب؟

قالت: أعدك يا إيلين.. هيا ضعيها في النار.. هيا!

وألقيت بالرسائل في قلب النار. أما هي فقد اعتكفت في غرفتها الخاصة، وقد بدا عليها إنها تعاني كثيراً من هذه الإهانة القاسية.

وفي اليوم التالي، توليت الإجابة عن الرسالة بقصاصة صغيرة أقول فيها: «المرجو من السيد هيثكليف ألا يبعث بأي رسالة بعد الآن إلى مس لينتون.. لأنها لن تتسلمها».

ومنذ ذلك الحين، أصبح صبي اللبان يأتي بجيوب خاوية!.

-22-

أوشك الصيف على نهايته، ولاحت بواكير الخريف. وأصيب سيدي ببرد شديد، أمسك بشعاب رئتيه في عناد، وأرغمه على ملازمة البيت طيلة الشتاء.

أما كاتي المسكينة، التي تملكها الفزع من مغامرتها الصغيرة إلى نهاية الحديقة. كانت تسير في خطى وئيدة وهي مطرقة. وقد لاحظت أنها ترفع يدها من وقت إلى آخر لتمسح شيئًا عن صفحة وجهها، فسألتها: كاترين.. لماذا تبكين يا حبيبتي؟ ينبغي ألا تبكي لأن والدك أصيب بالبرد، واحمدي الله على أن مرضه ليس أسوأ من هذا.

فقالت: آه.. بل سيكون أسوأ. فماذا أستطيع أن أفعل إذا تركني أبي.. وإذا تركتني أنت بدورك.. وأصبحت وحيدة في هذه الدنيا؟ إنني لا أحزن على شيء في هذه الدنيا إلا على مرض أبي.

وحاولت جهدي أن أبعث إلى قلبها الطمأنينة، حتى بلغنا بابًا يفضي إلى الطريق. وكانت اشراقة المرح قد تبدت مرة أخرى على وجه سيدتي الصغيرة، فتسلقت الجدار، وجلست فوق السور. ومالت نحو الخارج لتجمع بعض الثمار من بين أزهار أشجار الورد البري. وبينما هي تميل لتجذب الثمار نحوها، سقطت قبعتها، فهبطت من فوق السور لتستعيدها، ذلك أن الباب كان موصداً. وكنت أعلم أن تسلق السور من الخارج عسير عليها لأن أحجاره ملساء. ولذلك قالت: يجب أن تأتي بالمفتاح يا نيللي، لأنني لا أستطيع تسلق السور من هنا.

أجبتها قائلة: إن في جيبي حزمة مفاتيح، فلعل بينها ما يفتح هذا الباب.. وإلا فإنني سأذهب لإحضار المفتاح.

وأخذت أجرب جميع المفاتيح الكبيرة، دون أن أوفق إلى واحد منها يفتح الباب. ثم إذا بصوت يبلغ مسامعي، ويجعلني أتجمد في مكاني وكان صوت وقع حوافر جواد على الطريق.. وسألتها هامسة: من يكون هذا؟

فهمست رفيقتي بلهفة بالغة: إيلين.. ليتك تستطيعين فتح الباب!

ثم سمعت صوتًا عميقًا يهتف بها: مهلاً يا آنسة لينتون!.. كم يسعدني أن ألتقى بك.. فإن هناك استيضاحًا أريد أن أسألك عنه.

فأجابت كاترين: إنني لن أتحدث معك يا مستر هيثكليف.. فإن أبي يقول إنك رجل شرير، تكرهه وتكرهني.. ونيللي تؤيد ذلك.

قال هيثكليف: لا شأن لذلك بالموضوع الذي أريد أن أتحدث معك فيه.

أظن أنني لا أكره ابني. أجل.. يحق لك أن يحمر وجهك خجلاً. ألم تكوني، منذ شهرين أو ثلاثة أشهر، تبعثين برسائل إلى لينتون؟ هل كنت تتخذين من الحب تسلية ولهواً؟ لقد حصلت على رسائلك، وإذا أبديت أي استهانة بما أقول، فإنني سوف أبعث بها إلى والدك.. لقد سئمت تلك اللعبة. فأقلعت عنها.. أليس كذلك؟ حسن. إنك ما كدت تنصرفين عنها، حتى سقط لينتون في هاوية اليأس والقنوط. فقد كان جاداً بحيث أحبك حقًا.. إنه على شفا الموت من أجلك، وقد حطم غدرك قلبه.. وهو يزداد سوءاً يومًا بعد يوم، وسوف يطويه الثرى قبل الصيف القادم.. إن لم تعملي على إنقاذه من الموت.

فصحت في خلف الباب: كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة؟ اذهب إلى حالك بربك!.. إنني سوف أحطم قفل الباب بحجر يا مس كاتي.. ولا تصدقي هذا الهراء الخبيث.

وغمغم الوغد الذي انكشف أمره قائلاً: لم يخطر ببالي أن هناك من يسترق السمع.. أهذه أنت يا مسز دين العظيمة؟ إنني أحبك، ولكن كيف يمكن لك أنت أن تكذبي على الفتاة، وتخترعي لها القصص التي تثير في قلبها الفزع والرعب، حتى لا تقترب من باب بيتي؟ إنني سأغيب عن البيت طيلة هذا الأسبوع يا كاترين لينتون، فاذهبي لتري بنفسك إنني لم أكذب عليك. وأقسم لك إنه على شفا الموت، ولن ينقذه منه أحد سواك!..

وتحطم قفل الباب، فاندفعت إلى الخارج، بينما هيثكليف يكرر كلماته:

- اقسم لك إن لينتون مشرف على الموت، وأن الحزن والحسرة يعجلان بنهايته. وإذا كنت يا نيللي مصرة على منعها من الذهاب إلى هناك، فيمكنك أن تذهبي وحدك لكي تتأكدي بنفسك. إنني لن أعود من رحلتي إلا في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل. وأظن أن سيدك نفسه لن يعارض في أن تزور ابن عمتها!.. إن كلمة رقيقة منك هي خير دواء له. إنك تترائين له في أحلامه ليل نهار، وهو على يقين من إنك تكرهينه منذ أن أقلعت عن الكتابة إليه أو زيارته.

وكان السيد قد اعتكف للراحة قبل عودتنا، ولذلك تناولنا الشاي أنا وهي. وبعد فترة وبدأت تنتحب في صمت، فزجرتها وأنا أحاول أن أسخر من مزاعم مستر هيثكليف عن ابنه.

فأجابت قائلة: ربما كنت على حق يا نيللي، ولكني لن استشعر طعم الراحة قط حتى أعرف الحقيقة. ويجب أن أخبر لينتون بأنه لا ذنب لي في الإقلاع عن الكتابة إليه، وأن أؤكد له إنني لن أتغير وسأظل حافظة على العهد.

وفي اليوم التالي، كنت أسرع الخطا في الطريق إلى «مرتفعات وذرنج»، إلى جانب مهر سيدتي الصغيرة.. العنيدة. فلم يطاوعني قلبي على أن أراها في أحزانها، فاستسلمت لرغبتها، يراودني أمل واهن في أن يثبت لها لينتون بنفسه أن حالته الصحية تكذب مزاعم أبيه.

-23-

كان الليل المطير قد أسفر عن صباح يلفه الضباب. وكانت جداول الماء تغطي طريقنا، وقد زاد من حنقي وضيقي ما تعرضت له من البلل أثناء سيري. وقد دخلنا المرتفعات عن طريق المطبخ، حتى نتأكد من أن مستر هيثكليف غائب حقًا. وقد وجدت جوزيف جالسًا إلى جانب موقد متأجج باللهب، وسألته عما إذا كان السيد داخل الدار، فأجاب مزمجرًا: كلا..

وتناهى إلينا صوت يشوبه الاضطراب وهو يصيح من الغرفة الداخلية: جوزيف... كم مرة ينبغي أن أناديك؟ إن المدفأة لم يبق فيها إلا جمرات قليلة يكسوها الرماد الآن. جوزيف.. تعال في الحال!

ولكن جوزيف لم يعر هذا النداء اهتمامًا.. وقد عرفنا صوت لينتون من نبراته، فدخلنا إليه. وعندما سمع وقع أقدامنا، ظن أن القادم هو خادمه الذي يهمل أمره، فصاح قائلاً: آه كم أتمنى أن تهلك.. أن تتجمد حتى الموت!

ولما اكتشفت خطأه، أمسك عن الحديث. بينما اندفعت ابنة خاله نحوه، فرفع رأسه عن مسند المقعد الكبير الذي كان مضجعًا عليه، وقال: كلا.. لا تقبليني.. إن ذلك يقطع أنفاسي.. لقد أخبرني أبي أنك قد تحضرين لزيارتي.. هل لك أن تتكرمي بإغلاق الباب؟ هذه المخلوقات الوضيعة لا تريد إحضار فحم للمدفأة. إن البرد شديد!

وأحضرت بنفسي كمية من الفحم، ولكن لينتون راح يشكو من أن الرماد يخمده. ثم ما لبث أن فاجأته نوبة من السعال، وكان يبدو محمومًا عليلاً، الأمر الذي جعلني أنكص عن زجره على سوء مسلكه.

وغمغمت كاترين قائلة: حسن يا لينتون.. هل أنت سعيد لرؤيتي؟

فقال: لماذا لم تحضري من قبل؟ كان ينبغي أن تأتي بدلاً من الكتاب إلي، لأن هذه الرسائل الطويلة أرهقتني كثيرًا، وكنت أفضل لو أتحدث إليك..

أما الآن فإنني لم أعد احتمل الحديث أو أي شيء آخر.

فسألته مرة أخرى: هل أنت سعيد لرؤيتي؟

- نعم.. أسعدتني رؤيتك، ولكني تحملت كثيراً من اللوم، لأنك امتنعت عن الحضور. وقد أقسم بابا بأنني المسئول عن ذلك. وكان يصفني بالخسة والتفاهة. وهو يقول إنك تحتقرينني، ولكنك لا تفعلين ذلك.. أليس كذلك؟

- أنا أحتقرك؟ أبداً.. إنك أحب الناس إلي بعد بابا وإيلين. ومع ذلك فإنني لا أحب مستر هيثكليف، ولن أجرؤ على الحضور إلى هنا بعد عودته.. فهل سيغيب أياماً عديدة؟

فأجاب لينتون: لن يطول غيابه، ولكنه يكثر من الذهاب إلى البراري منذ بدأ موسم الصيد. وسيكون في استطاعتك أن تقضي معي ساعة أو ساعتين أثناء غيابه.. قولي إنك ستفعلين.

فقالت كاترين: لو استطعت أن أحصل على موافقة أبي، فإنه سيكون في مقدوري أن أقضي معك نصف وقتي.. يا لينتون الجميل!.. ليتك كنت أخي.

فأجاب وقد تهللت أساريره: وفي هذه الحالة هل كنت تحبينني كما تحبين والدك؟ ولكن أبي يقول إنك سوف تحبينني أكثر منه وأكثر من أي إنسان آخر في العالم.. وهذا إذا ما أصبحت زوجتي.. لذلك أفضل لو كنت زوجة لي.

قالت برصانة: كلا.. إنني لن أحب أحداً قط أكثر من حبي لأبي.. ثم إن الرجال يكرهون زوجاتهم في بعض الأحيان.

وأنكر لينتون أن الناس يكرهون زوجاتهم على الإطلاق. ولكن كاتي راحت تؤكد له أنهم يفعلون، وضربت لذلك مثلاً.. وهو كراهية أبيه نفسه لعمتها. ولكن لينتون استبد به الضيق، ومضى يؤكد أن قصتها كاذبة.

فأجابت في حدة: لقد أخبرني أبي بذلك. وأبي لا يروي أكاذيب.

فصاح لينتون: إن أبي يحتقر أباك.

أجابت كاترين: إن أباك رجل شرير.. لابد أنه إنسان شرير حق إنه دفع عمتي إيزابيلا إلى هجره.. كما حدث.

فقال الفتى: إنها لم تهجره.

فصاحت سيدتي الصغيرة: بل هجرته..

قال لينتون: حسن.. سوف أخبرك بشيء.. لقد كانت أمك تركه أباك.. وكانت تحب أبي!..

وتلاحقت أنفاسها بحمرة الغضب والانفعال. ثم قالت: أيها الكذاب الصغير.. إنني أكرهك الآن!

وراح لينتون يكرر عبارته في لهجة منغمة: كانت تحبه.. كانت تحبه.. كانت تحبه. كانت تحبه.

ودفعت كاتي المقعد دفعة قوية، جعلت لينتون يهوي على إحدى ذراعيه. وما لبث أن أصابته نوبة من السعال الخانق وضعت حداً لأناشيد انتصاره. وقد استمرت النوبة طويلاً حتى أصابني الفزع وضعت حداً لأناشيد انتصاره. وقد استمرت النوبة طويلاً حتى أصابني الفزع. أما ابنة خاله، فقد راحت تبكي في عنف بعد أن استبد بها الفزع لما اقترفته من أذى. وقد أمسكت به بين ذراعي حتى زالت عنه النوبة، ولكنه ظل يئن ويتوجع مدة ربع ساعة. وأدركت أنه يتعمد ذلك ليزيد من كدر ابنة خاله.

وأخيراً قالت: إنني آسفة على ما سببته لك من ألم يا لينتون. ولكني أنا ما كنت لأتألم من دفعة بسيطة مثل هذه، وما خطر ببالي أنها سوف تؤلمك. فلا تدعني أعود إلى بيتي وأنا أفكر في إنني أذيتك.. أرجوك حدثني!

فغمغم قائلاً: لا أستطيع أن أحدثك. لقد أذيتني إلى درجة سوف تجعلني أقضي الليل مستيقظاً مختنقاً من السعال.

فسألت كاترين بحزن: هل يجب أن أذهب؟

قال: دعيني وحدي.. فإنني لا أطيق حديثك!

وأخذت كاتي تتلكأ في الانصراف، ولكن عندما وجدت أنه لا ينظر إليها ولا يحدثها، بدأت أخيراً تتجه نحو الباب على مهل، وأنا في أعقابها. ولكن صرخة مفاجئة ردتنا عن مواصلة السير. فقد انزلق لينتون من مقعده وسقط على الأرض، وراح يتلوى كطفل مشاكس. وعادت «كاترين» مسرعة وقد تملكها الفزع، وجثت على الأرض، وهي تذرف الدمع. وأخذت تدلله وتهدئ من روعه، إلى أن سكن أخيراً بعد أن انقطعت أنفاسه. وحملته إلى الأريكة. ثم قلت: أرجو يا مس كاتي أن تكوني قد اقتنعت الآن، بأنك أنت لست الشخص الذي يفيده وجوده، وأن حالته الصحية لا علاقة لها بتعلقه بك. فهيا بنا ننصرف، ومتى أيقن من عدم وجود من يهتم بهرائه، فإنه سيخلد إلى الرقاد هادئًا.

وأحضرت كاتي وسادة وضعتها تحت رأسه، فقال: إنها ليست مرتفعة كما ينبغي.

وعندئذ وضع رأسه على كتف كاترين، التي كانت منحنية إلى جانب الأريكة في ذلك الوقت. فقلت: عليك أن تقنع بالوسادة يا سيد هيثكليف.. لأننا لا نستطيع البقاء خمس دقائق أخرى.

فأجاب: بل يجب أن تبقي لعيادتي. والآن تعالي واجلسي ساكنة دون حديث.. ولكن يمكنك أن تسمعيني ملحمة طويلاً مسلية.

وطابت نفساهما لهذه المهمة. وظلا على هذه الحال إلى أن دقت الساعة معلنة الثانية عشرة..

وعندما نهضنا للرحيل، سأل هيثكليف الصغير: وغدًا؟ ألا تأتين إلى هنا غدًا.. يا كاترين؟

فأجبت: كلا.. ولا بعد غد أيضًا!..

وما إن غادرنا البيت، حتى قلت لها: لن تحضري غدًا.. تذكري ذلك يا آنسة.

فابتسمت كاتي قائلة: إن الجرانج ليس سجنًا يا إيلين. وفضلًا عن ذلك فإنني قد أشرفت على السابعة عشرة، وأصبحت امرأة.. وأنني على ثقة بأن

لينتون سوف يشفى سريعاً إذا ما أتيح لي أن أقوم على رعايته.. ألا تحبينه يا إيلين؟

فصحت: أحبه؟ إنه أسوأ مخلوق رأيته في حياتي. ومن حسن الحظ أنه لن يبلغ العشرين كما يتوقع مستر هيثكليف. والآن انصتي إليّ يا آنسة.. إنك إذا حاولت الذهاب إلى مرتفعات وذرنج ثانية، فإنني سوف أخبر مستر لينتون بذلك، وإذا لم يسمح لك، فإن كل صلة بينك وبين ابن عمتك يجب ألا تتجدد.

قالت: ولكن هذه الصلة تجددت..

قلت: إذن يجب ألا تستمر..

أجابت: سنرى..

وما كدت أصل إلى البيت، حتى أسرعت استبدل حذائي وجواربي المبللة، ولكن بقائي بهما فترة طويلة في «المرتفعات» كان قد أحدث أثره السيئ، فلزمت فراش المرض طوال ثلاثة أسابيع.. وكان مسلك سيدتي الصغيرة أشبه بالملائكة وهي تأتي لخدمتي. وكانت كاترين لا تكاد تغادر غرفة مستر لينتون، حتى تسرع لتكون إلى جانب فراشي. وكان يومها مقسماً بيننا.

قلت أن أيامها كانت مقسمة، ولكن السيد كان يعتكف مبكراً. ولم أكن أحتاج لشيء بعد الساعة السادسة، وهكذا كانت الأمسيات ملكًا خالصًا لها. ولم أفكر فيما كانت تشغل به نفسها في الفترة التي تعقب تناول الشاي. ورغم أنني لاحظت مراراً – عندما كانت تأتي لتبثني أمنياتها بليلة طيبة- توردًا في وجنتيها واحمرارا في أصابعها، إلا أنني كنت أعزي ذلك إلى توهج نار المدفأة الموجودة في غرفة المكتبة.. هذا بدلاً من التفكير في احتمال قيامها برحلة على ظهر الجواد في برد البراري القارس.

-24-

في نهاية الأسابيع الثلاثة، أتيح لي الجلوس في المساء لأول مرة بعد مرضي. وطلبت من كاترين أن تقرأ لي، فقبلت، ولكن خيل إلي أن هذا القبول كان مشوباً بالتردد. وقد أمضت زهاء ساعة وهي تقرأ لي، وكان يتخلل ذلك أسئلة عديدة:

- ألست متعبة يا إيلين؟

وكنت دائماً أجيبها: كلا.. كلا.. يا عزيزتي. لست متعبة.

وعندما وجدت مني إصراراً على مواصلة القراءة، لجأت إلى محاولة أخرى، فبدأت تتثاءب وتتمطى، ثم قالت: إيلين. لقد تعبت.

أجبتها: إذن دعي القراءة ولنتكلم سوياً.

ولكن ذلك لديها أسوأ من القراءة، ولذلك راحت تتململ وتتنهد وتنظر في ساعتها، حتى إذا بلغت الثامنة نهضت وذهبت إلى غرفتها. وفي الليلة الثانية كانت تبدو أكثر تبرماً. أما في الليلة الثالثة فقد ادعت أن صداعاً أصابها وتركتني. ولما طال بقائي وحيدة، رأيت أن أذهب إليها لأستفسر منها عن مدى تحسن حالتها. ولكني لم أجد أثراً لكاترين في الطابق العلوي ولا في الدور الأسفل، فعدت إلى غرفتها وجلست بجوار النافذة.

وكان ضوء القمر يغمر الكون. وبعد فترة رأيت أحد السائسين يسحب وراءه مهر الآنسة، بينما كانت هي هناك تسير إلى جانبه.. وتسللت كاتي إلى الداخل من نافذة مفتوحة في غرفة الجلوس. ثم صعدت إلى غرفتها في سكون، وأغلقت الباب خلفها برفق. وعندئذ نهضت فجأة، وكشفت لها عن نفسي، وبدأت أقول: يا عزيزتي آنسة كاترين.. إلى أين ذهبت على ظهر جوادك في مثل هذه الساعة؟ ولماذا حاولت خداعي باختلاق الأكاذيب؟

فتعثرت الكلمات على لسانها، وقالت: لقد ذهبت حتى نهاية الحديقة..

فصحت في أسى: أوه يا كاترن!.. لقد ارتكبت خطأ كبيراً، وإلا ما لجأت إلى الكذب عليّ.

فاندفعت إلى الأمام، وانفجرت باكية، وأحاطت عنقي بذراعيها وهي تقول: أوه يا إيلين.. عديني ألا تغضبي مني.. وسوف تعرفين الحقيقة.

وجلسنا، وبدأت حديثها قائلة: لقد كنت في مرتفعات وذرنج يا إيلين. ولم أتخلف عن الذهاب إلى هناك منذ مرضك إلا ثلاث مرات خلاله ومرتين بعد أن شفيت وغادرت غرفتك.. فقد وجدت السائس يثبت قفل باب الحديقة بعد إصلاحه، فأخذت منه المفتاح، واتفقت معه على إعداد المهر لي.

وفي بادئ الأمر، كان لينتون يبدو نشيطاً وروحه المعنوية مرتفعة وقد أعدت مدبرة منزلهم زيللا غرفة نظيفة ونارا متأججة في المدفأة. وكنا نضحك ونتبادل الأحاديث المرحة، ولم نكن نفتقر إلى الموضوعات التي نتحدث فيها. وفي كل مرة.. عندما اضطر إلى الانصراف، كان لينتون يرجوني أن أعود إليه في المساء التالي.. وكنت دائماً أعده بالحضور.

وذات مساء قابلني إيرنشو في الحديقة، وأمرني أن أدخل من الباب الأمامي. ثم تطلع إلى النقوش التي تعلو الباب، وقال: مس كاترين.. إنني أستطيع الآن قراءة هذه النقوش.

فصحت قائلة: رائع!.. دعنا نستمع إليك من فضلك. لقد ازدادت ذكاء. فأخذ في هجاء الحروف.. هيرتون إيرنشو.

وصحت استحثه مشجعة: والأرقام.

أجاب: لا أستطيع قراءتها بعد!..

فضحك من أعماق قلبي، وقلت له: أوه.. يا غبي!

فراح يحملق في وجهي، وقد علت وجهه حمرة قانية، ثم انصرف متوارياً عن عيني، بعد أن كان قد خيل إليه أنه أصبح سيداً متعلماً بمجرد أنه عرف كيف ينطق اسمه.

فقاطعتها قائلة: على رسلك يا مس كاترين.. فلو إنك تذكرت أن هيرتون هو ابن خالك مثلما تعرفين أن السيد هيثكليف هو ابن عمتك،

لأدركت على الأقل أن طموحه لمجاراة لينتون أمر يستحق منك الإطراء. ولقد كنت سبباً في أن يشعر بالخجل من نفسه عندما نددت بجهله، وقد حاول أن يداوي هذا الجهل ليدخل السرور على قلبك.. لقد كان وهو طفل صغير لا يقل عنك ذكاء. وأنه ليؤلمني أن يجد منك الآن مثل هذا الإزدراء، لغير ما سبب جناه سوى المعاملة الظالمة التي يلقاها على يدي هيثكليف.

فصاحت قائلة: حسن يا إيلين.. انتظري حتى تسمعي ما إذا كان قد حفظ الحروف الأبجدية مرضاة لي أم لا.. لقد دخلت فوجدت لينتون راقداً فوق الأريكة. وعندما رآني، قال: إنني مريض الليلة يا حبيبتي كاترين.

وطلب إلي أن أقرأ له. وكنت على وشك أن ألبي رغبته عندما دفع إيرنشو الباب في عنف، وأمسك بذراع لينتون، وطوح به من فوق الأريكة، وقال بصوت يخنقه الانفعال: اذهب إلى غرفتك.. وعليك أن تأخذها معك هناك، ما دامت تحضر لرؤيتك. إنك لن ترحمني من الجلوس هنا، فلتذهبا معاً إلى الجحيم.

وانطلق يتوعدنا وهو يرمينا بأقذع السباب، ولم يترك أمام لينتون فرصة للرد عليه، وإنما ألقى به في المطبخ. وتولاني الفزع، فسقط مني أحد الكتب، فما كان منه إلا أن ركله بقدمه خلفي. وأوصد الباب وراءنا. وكان لينتون شاحب الوجه، يرتعد غضباً، وأمسك بمقبض الباب وأخذ يهزه، ولكنه كان موصداً، فصاح: إذا لم تفتح الباب فسوف أقتلك، إذا لم تفتح الباب فسوف أقتلك! أيها الشيطان. أيها الشيطان! سأقتلك. سأقتلك!

وأخيراً اختنقت صيحاته في نوبة رهيبة من السعال. وما لبث أن تدفق الدم من فمه، وسقط على الأرض. فجريت إلى الفناء وقد سيطر علي الرعب، وناديت زيللا وجذبتها نحو المطبخ، فإذا بي أجد إيرنشو هناك، وكان قد أتى ليرى أثار فعلته النكراء. ولكنه أوقفني عند قمة الدرج، وأمرني أن أعود إلى البيت.. وأوصد جوزيف الباب في وجهي.

وعندما انتهى الأمر بإرغامي على الرحيل، ظهر هيرتون أمامي فجأة من بين الظلام الذي كان يغشى أحد جانبي الطريق. وأمسك بزمام مهري «ميني»، ثم أخذ يقول: إنني حزين للغاية يا مس كاترين، ولكن في الوقت نفسه فإنه كان من المؤلم لي..

ولم أدعه يتم حديثه، فقد هويت بسوطي عليه فأصبته الضربة في وجهه، الأمر الذي جعلني أتخيل أنه ربما يقتلني بسببها، ولكنه ترك عنان المهر، وهو يلقي بهدير من السباب، فأطلقت العنان لمهري في طريق العودة إلى البيت.

ولم أذهب إلى مرتفعات وذرنج في المساء التالي، لقد كنت راغبة في الذهاب، ولكني خشيت أن أسمع بموت لينتون، كما كنت ارتجف فزعاً لمجرد التفكير في لقاء هيرتون. وفي اليوم الثالث، استجمعت شجاعتي وذهبت. ولفرحتي وجدت لينتون راقداً فوق أريكة صغيرة وهو يطالع كتاباً من كتبي، ولكنه لم يشأ أن يخاطبني أو ينظر إلي خلال ساعة كاملة وعندما فتح فمه لم ينطق إلا اتهاماً، وهو إنني كنت السبب في ذلك الشجار، وأن هيرتون لا لوم عليه. ولذلك نهضت وخرجت من الغرفة. وكان اليوم التالي لذلك هو المرة الثانية التي بقيت فيها في بيتنا. وكاد يستقر عزمي على عدم زيارته مرة أخرى، ولكني لقيت عناء كبيراً في الذهاب إلى الفراش والنهوض منه، دون أن أسمع عنه شيئاً، ولذلك قررت القيام برحلتي مرة أخرى.

وكان لينتون يجلس في المقعد الكبير وهو شبه نائم. وبدأت أقول له في لهجة رصينة: ما دمت لا تحبني يا لينتون، وما دمت تظن أنني لا أحضر إلا بقصد الإساءة إليك، فاعتبر هذا آخر لقاء بيننا.

أجاب: إنني أكاد أكون سيء الخلق دائماً.. وإذا أردت، فيمكنك أن تقولي لي وداعاً. وصدقيني يا كاترين، إنني أود أن أكون في مثل رقتك وحنانك وطيبتك.. وصدقيني أيضاً أن طيبتك معني قد جعلتني أحبك حباً عميقاً، أكثر مما لو كنت قد نلت حبك عن جدارة.

وشعرت أنه يقول الحقيقة، ورأيت إنني يجب أن أصفح عنه.. ومع أنني أعرف أنه سوف يتشاجر معي في اللحظة التالية، فإن من واجبي أن أصفح عنه مرة أخرى.. إنه لن يدع أحداً من أصدقائه ينعم بالراحة، وهو لا ولن يريح نفسه. وكنت أذهب معه إلى البهو دائماً، منذ تلك الليلة، لأن والده كان قد عاد من رحلته في اليوم التالي. ولكن مستر هيثكليف كان يتجنبني

عامداً.. وها أنت قد عرفت كل شيء الآن يا إيلين.. ولن تفضي إلى أبي بأخباري أليس كذلك؟

أجبت: سوف أفكر في الأمر..

وقد فكرت فيه حقاً، ولكن بصوت مسموع، ذلك إنني أفضيت بالأمر لسيدي. وفي الصباح عرفت كاترين أن زياراتها الخفية قد وجدت لها نهاية. وعبثاً راحت تبكي وتتوسل إلى والدها أن يشفق على لينتون، وكان كل ما حظيت به لتهدئتها هو أنه وعدها بأن يكتب إلى لينتون. ويصرح له بالحضور إلى الجرانج. ولكنه أوضح له بجلاء ألا يتوقع ذهاب كاترين إلى «مرتفعات وذرنج» بعد ذلك.

-25-

قالت مسز دين: لقد وقعت هذه الأحداث يا سيدي في الشتاء الماضي أي منذ عام تقريباً..

فسألتها: وهل أطاعت كاترين والدها؟

أجابت: نعم.. لقد أطاعته.

ثم تابعت ربة البيت رواية القصة، قائلة:

ذات يوم، سألني مستر لينتون: شد ما أود أن يكتب لنا ابن أختي أو أن يزورنا يا إيلين. ولكن خبريني برأيك فيه بصراحة.

أجبته: إنه رقيق للغاية، وهو لا يشبه والده.. ولو شاء سوء الطالع أن تتزوج مس كاترين منه، فإنه لن يتمرد عليها أو يخرج عن طاعتها.

ثم راح إدجار يتطلع بعينيه إلى كنيسة جيمرتون.. واستطعنا أن نميز القبور. وما لبث أن قال: لقد كنت كثيراً ما ابتهل إلى الله أن يعجل بما لا بد من وقوعه، ولكني بدأت الآن أخشاه. ماذا أستطيع أن أفعل من أجل ابنتي كاتي؟ إنني لا أكترث لحظة واحدة بأن يكون لينتون هو ابن هيثكليف، أو بأنه سيأخذها مني، ما دام قادراً على تعزيتها عن فقدي. ولست أبالي كذلك بأن هيثكليف قد حقق كل أهدافه.. ولكن أن يكون لينتون شخصاً غير جدير بها، ولا يعدو أن يكون أداة ضعيفة في يد أبيه.. فهنا لا أستطيع أن أتركها له!

وأقبل الربيع، ولكن سيدي لم يسترد قواه الطبيعية، رغم أنه عاود التنزه في الحديقة مع ابنته..

ولما وصل عيد ميلادها السابع عشر، لم يقم بزيارة المقبرة، فقد كان اليوم مطيراً، وقد أشرت عليه بقولي: لا ريب أنك لن تخرج في هذه الليلة

يا سيدي.

فأجاب: كلا.. إنني سوف أؤجل زيارتي هذا العام قليلاً..

وكتب مرة أخرى إلى لينتون، معبراً له عن رغبته الشديدة في رؤيته،

ولكن الفتى لم يكن في حال تسمح له بالحضور. وبناء على تعليمات أبيه، كتب رداً على رسالة خاله يقول فيه: إن مستر هيثكليف يعارض زيارته للجرانج.

وكان جانبًا من الرسالة من إنشائه، فقد كان هيثكليف يعلم أنه أفصح من ابنه في الدفاع عن صحبته لكاترين.. فقد مضى يقول: لقد قدر لي أن أحرم رؤيتها، لأن أبي يمنعني من الذهاب إلى بيتها، وأنت تمنعها من زيارة بيتي؟ فهلا صحبتها، بين آن وآخر، إلى المرتفعات لتتيح لنا أن نتبادل كلمات قليلة في وجودك! إننا لم نقترف ذنبًا نستحق عليه هذا الفراق، وليس لديك من الأسباب ما يثير كراهيتك لي! لقد سألتني عن صحتي.. إنها الآن أحسن.. ولكن طالما بقيت محرومًا من كل أمل، فكيف أكون سعيداً أو أشعر بالصحة والعافية؟

ولم يكن إدجار قادراً على الخروج في صحبة كاترين. ولذلك فقد وافق أخيراً على السماح لهما بالخروج مرة كل أسبوع، راكبين أو سائرين تحت حراستي.. وعلى أن تكون نزهتهما في البراري القريبة من الجرانج.

وحل شهر يونيه وهو ما زال على حاله من الضعف والوهن. ورغم أنه كان حريصًا على إدخار جانب من دخله السنوي لتكون منه ثروة لسيدتي الصغيرة، إلا أنه كان راغبًا في أن تستعيد بيت أجدادها، أو على الأقل أن تعود إليه في وقت قريب. وكان يعتقد أن الأمل الوحيد لتحقيق ذلك هو أن تتزوج من وريثه، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن أن الفتى يسعى بخطى أسرع منه نحو حتفه. وأعتقد كذلك أن أحداً منا لم تخطر له مثل هذه الفكرة ببال، فلم يحدث أن دعى الطبيب لزيارة المرتفعات، ولم يكن بيننا من يرى الشاب هيثكليف حتى يتنبأ أو ينبئ عن حالته.

-26-

خرجت أنا وكاترين، على جوادين، في أول رحلة لنا للقاء ابن عمتها. وكان مكان اللقاء قد تحدد عند مفترق الطريق. ولكن عندما وصلنا إلى هناك، وجدنا غلاماً في انتظارنا ليبلغنا هذه الرسالة: إن السيد لينتون يشعر بعظيم الامتنان لو أننا تقدمنا قليلاً على الطريق..

ولما بلغنا مكانه، الذي لم يكن يبعد عن بيته بأكثر من ربع ميل، وجدناه راقداً على العشب ينتظر وصولنا. ولم ينهض إلا بعد أن أصبحنا على بعد بضع ياردات منه، فقد سار نحونا في ضعف، وكخان يبدو شديد الشحوب بحيث لم أتمالك نفسي من أن أصيح به: ما هذا يا سيد هيثكليف؟ شد ما تبدو مريضاً.

وكانت كاترين ترمقه في أسى ودهشة. وقد سألته عما إذا كان يشعر بأن حالته أكثر سوءاً من المعتاد. فأجاب وهو لاهث الأنفاس، والرعدة تسري في بدنه: كلا.. بل أحسن.. أحسن.

- ولكنك ازددت سوءاً عما كنت عليه عندما رأيتك آخر مرة..

فقطاعها قائلاً: إنني متعب، والجو حار لا يسمح لنا بالسير، فدعينا نجلس هنا. إنني أشعر بالأعياء والتعب في الصباح. ويقول بابا إن هذا يرجح إلى سرعة نموي.

وكان واضحاً إن لينتون يجد عناءً كبيراً في تحمل أي نوع من الحوار ومتابعته. وكان جلياً أن شخصيته ومسلكه قد أصابهما تبدل غير واضح المعالم. وقد تبينت كاترين –مثلي- إنه يعتبر احتماله لصحبتنا عذاباً وعقاباً، وليست مصدراً لسعادته، ولذلك اقترحت أن نرحل فوراً. ولكن على غير ما كنا نتوقع، أثاره هذا الاقتراح، ودفع به إلى حالة غريبة من الانفعال، وراح يتطلع في ذعر نحو المرتفعات، وهو يتوسل إلى كاترين أن تبقى ولو نصف ساعة آخر.

فقالت كاتي: ولكن أظن أنك سوف تكون أكثر شعوراً بالراحة في بيتك عنك وأنت جالس هنا. ثم إنني لا أستطيع تسليتك اليوم.

أجاب: بل أجلسي إلى أن تنالي قسطًا من الراحة. وأرجو ألا تقولي يا كاترين إنني في حالة بالغة السوء. فهل لك أن تخبري خالي أن صحة لا بأس بها؟.. وتعالي إلى هنا يوم الخميس القادم مرة أخرى.. وقدمي له يا كاترين شكري وامتناني على سماحه لك بالحضور. و.. إذا حدث أن التقيت بأبي وسألك عني. فلا تخبريه بأنني كنت صامتًا غبيًا معك. ولا تظهري أمامه على حاله من الكآبة، مثل تلك التي تلوح عليك الآن، فإنه سوف يغضب لذلك غضبًا شديدًا.

فصاحت كاتي: إنني لا أبالي بغضبه..

فقال ابن عمتها وهو يرتعد: ولكنني أبالي بذلك.. فلا تحاولي إثارته ضدي يا كاترين، لأنه شديد القسوة.

وسقط رأس لينتون فوق صدره كأنما قد غلبه النعاس. وأخيراً همست كاترين في إذني قائلة:

هل انقضى الآن النصف ساعة يا إيلين؟ إنني لا أدري لماذا ينبغي أن نبقى بعد الآن وهو مستغرق في النوم!.. إن الأمر يبدو كما لو كان هذا اللقاء يمثل مهمة أرغم على أدائها خوفًا من تقريع والده، ولكنني لا يمكن أن أحضر لمجرد إدخال السرور على قلب مستر هيثكليف الأب. وإني وإن كنت سعيدة لتقدم حالته الصحية، إلا إنني حزينة لأنه أصبح أقل ظرفًا، وأكثر من ذلك أنه أصبح أقل انعطافًا نحوي إلى حد بعيد.

قلت: هل ترين إذن أنه في أحسن صحة؟ أما أنا فإنني أراه أسوأ مما كان عليه بكثير.

وفي تلك اللحظة، أفاق لينتون من سباته مذعوراً. وقال لاهثًا وهو يتطلع نحو قمة التل: لقد خيل إلي أنني سمعت صوت أبي.. هل أنت على يقين من أن أحداً لم يتكلم؟

فأجابت ابنة خاله: إنني على يقين من ذلك تماماً. وكل ما في الأمر أنني كنت أناقش إيلين بشأن حالتك الصحية. فهل ازددت عافية حقاً يا لينتون؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنني متأكدة من أن شيئاً واحداً لم يطرأ عليه تقدم، وهو تقديرك لي!.. تكلم.. هل أنت أحسن حالاً حقاً؟

فأجاب: نعم.. نعم.. إنني كذلك.

ونهضت كاتي ثم قالت: حسبنا هذا اليوم، ويجب أن نفترق الآن.. ولا أكتمك سراً أن لقاءنا قد أحزنني وخيب آمالي، ولكن لن أبوح بذلك لأحد، دون أن يكون سبب ذلك هو خوفي من مستر هيثكليف!

وغمغم لينتون قائلاً: صه.. صه بحق السماء. إنه قادم!

وتعلق بذراع كاترين محاولاً استبقاءها معه. ولكنها أسرعت فخلصت نفسها من يده، وقفزت فوق ظهر مهرها وهي تصيح:

- سأكون هنا يوم الخميس القادم، فإلى اللقاء.. أسرعي يا إيلين.

وهكذا تركناه وهو لا يكاد يشعر بانصرافنا، إذ كان مستغرقاً بكل حواسه وجوارحه في ترقب قدوم والده!..

وسألني سيدي أن نسرد عليه ما دار في هذا اللقاء، فنقلت إليه كاترين شكر ابن أخته، ولمست باقي أحداث الرحلة لمساً رقيقاً. وأجبت أنا بدوري عن أسئلته بردود مقتضبة. لأنني لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أخفيه، وما الذي يجب أن أكشف عنه.

-27-

مرت سبعة أيام. كان كل يوم منها يترك بصماته في ذلك التبدل السريع الذي طرأ على حالة إدجار لينتون. وكنا نمني أنفسنا بأن تظل كاترين على جهلها بحالة والدها، ولكنها أدركت ذلك الاحتمال المروع الذي أخذ يتفاقم حتى أصبح حقيقة واقعة. ولم يطاوعها قلبها على ذكر شيء عن نزهتها حتى أقبل يوم الخميس، فتوليت عنها القيام بتذكير سيدي، الذي أذن لي بمصاحبتها في هذه الرحلة.

ووجدنا لينتون يترقب وصولنا في نفس البقعة التي اختارها للقاء الأول. وقد استقبلنا بمزيد من اللهفة والحيوية في هذه المرة، ولكنها لم تكن لهفة الشوق أو البهجة، وإنما كانت أقرب ما تكون إلى الخوف والفزع.

وقال، وهو ينطق كلماته بصعوبة، لقد تأخرت كثيراً.. هل اشتد المرض على أبيك؟ لقد ظننت أنك لن تأتي.

فصاحت كاترين: لماذا لا تكون صريحاً؟ لماذا لا تتحدث مباشرة وتقول إنك لا تريدني؟

فارتجف لينتون، ونظر إليها نظرة طويلة امتزجت فيها الضراعة بالخجل.

وأضافت قائلة: إن أبي مريض جداً، فلماذا انتزعتني من جوار فراشه؟ ولماذا لم ترسل إلي لتحلني من وعدي، أفضل من أن تتمنى أن أنكث به؟

فقال: بحق السماء يا كاترين لا تغضبي. لك أن تحتقريني كيفما شئت، ولكني أتفه من أن أثير غضبك.. اكرهي أبي، أما أنا فلا تبغضينني!

فصاحت كاترين في انفعال: هراء!.. أنت غلام معتوه وغبي.. انظري، إنه يرتجف كما لو كنت أنوي حقاً أن أمسه! انهضي.. فإنني سوف أعود إلى البيت. وأرجو أن تدع طرف ثوبي! إنني أحتقرك حقاً لبكائك وآيات الفزع

التي تبدو عليك. قولي له يا إيلين إن سلوكه هذا مهين للغاية. لا تفعل هذا يا لينتون!

وارتمى لينتون بطوله على الأرض، وراح يتمرغ تحت قدميها، ودموعه تغسل وجهه الذي بدت عليه علامات الألم، وكأن رعبًا هائلاً يهز كيانه. وقال وهو ينتحب: آه. إنني لا أستطيع احتمال هذا يا كاترين.. لست أجرؤ على إجبارك، ولكنك لو تركتني فسيكون مصيري القتل. عزيزتي كاترين.. إن حياتي بين يديك، وقد قلت إنك تحبينني، فإذا كنت كذلك حقًا، فإن البقاء لن يضيرك في شيء إنك لن تذهبي إذن يا كاترين الرحيمة، الجميلة، الطيبة.. ومن يدري، فلعلك توافقين، وعندئذ يتركني أبي أموت معك.

وانحنت سيدتي الصغيرة لتأخذ بيده، بعد أن تغلب عليها شعور العطف القديم، وتزايد تأثرها وقلقها. فسألته: أوافق على ماذا؟ على البقاء؟ قل لي ما معنى هذا الكلام الغريب، وسوف ابقي معك. إنك لا تود أن تسيء إلي يا لينتون، أليس كذلك؟ ولن تدع أي عدو يؤذيني إذا كان في وسعك أن تمنعه.

قال الغلام وهو يلهث: ولكن أبي توعدني. وأنا أخشاه.. إنني أخشاه، ولن أجرؤ على أن أقول شيئًا!

فقالت كاترين: أوه، حسن.. أكتم سرك.. إنني لست رعديدة.. وانج بنفسك أنت، فإنني لست خائفة.

وأدرت رأسي، فرأيت مستر هيثكليف يوشك أن يكون لصيقًا بنا. واتجه نحوي مباشرة، وقال في هدوء: إن هناك شائعة تتردد بأن إدجار لينتون على فراش الموت.

أجبت: نعم.. إن سيدي يحتضر.

- إن هذا الغلام يبدو أنه مصر على هزيمتي، وكم أكون شاكرًا لخاله لو استحث خطاه، وقضى نحبه قبله.

فقلت: هذا الغلام يجب أن يكون في فراشه. تحت إشراف الطبيب.

وغمغم هيثكليف قائلاً: سيكون كذلك بعد يوم أو يومين. أما الآن. انهض يا لينتون.. ثم صاح به: انهض.

فأجاب الغلام اللاهث: سأقوم يا أبي.. فقط دعني وحدي، وإلا أغمي علي. لقد فعلت كل ما رغبت مني أن أفعله.. إنني على ثقة بذلك.

فقال والده: لعلك تتصورين يا مس لينتون إنني الشيطان نفسه، إذ أثير فيه مثل هذا الفزع.. هلا تكرمت بمصاحبته حتى البيت؟ إنه يرتعد خوفًا إذا لمسته!

فهمست كاترين قائلة: عزيزي لينتون.. إنني لا أستطيع الذهاب معك إلى مرتفعات وذرنج.. فقد منعني أبي من ذلك.. إنه لن يؤذيك، فلماذا كل هذا الخوف؟

أجاب: لا أستطيع أن أدخل هذا البيت ثانية.. بل ليس لي أن أدخله بدونك.

فصاح والده: صه! إننا سوف نحترم تمسك كاترين بطاعتها لأبيها. خذيه إلى البيت أنت يا نيللي.

أجبت: يجب أن أبقى مع سيدتي.. فليست العناية بابنك من شأني.

فقال هيثكليف لابنه: تعال إذن. هل أنت على استعداد للعودة معي؟

واقترب منه كأنما يريد أن يمسك بهذا المخلوق المنهار، ولكن لينتون تعلق بابنة خاله، وراح يتوسل إليها أن تصحبه إلى البيت. ولم أستطع منعها من الذهاب، وكيف كان يمكن أن ترفض مصاحبته حقًا؟ وبلغنا البيت. وصحبت كاترين العليل إلى الداخل، وإذا بمستر هيثكليف يدفعني إلى الأمام، هاتفًا: اسمحي لي بأن أغلق الباب.

وأغلق الباب وأوصده تمامًا، فشعرت بالقلق والخوف، بينما أردف هو قائلاً: سوف تتناولان الشاي معي قبل عودتكم إلى البيت، فإنني هنا وحدي.. إذ خرج هيرتون وراء القطيع، كما أن زيللا وجوزيف في الخارج.. وأنت يا مس لينتون، خذي مقعدك واجلسي إلى جانبه. إنني أقدم لك ما لدي. وما لدي لا يستحق شرف قبولك، ولكن ليس لدي ما أقدمه غيره.. أعني لينتون! ما لها

تحملق في وجهي هكذا.. من الغريب أنه ينتابني شعور وحشي نحو كل من يبدو خائفاً مني! بحق الجحيم.. شد ما أكرههم.

فصاحت كاترين: إنني لا أخشاك.

ثم خطت نحوه خطوة، ثم أردفت قائلة: أعطني هذا المفتاح.. إنني سوف آخذه بنفسي.. ولن أتناول طعاماً أو شراباً هنا ولو كنت أتضور جوعاً.

وكان هيثكليف يضع المفتاح في يده الممدودة فوق المائدة، وحاولت اختطافه منه، فقال: اسمعي يا كاترين لينتون.. اذهبي بعيداً، وإلا طرحتك أرضاً.

ورغم تحذيره، فقد انقضّت بأظافرها على يده المطبقة على المفتاح. وأخذت تردد: سوف نرحل. وعندما فشلت أظافرها من تحقيق هدفها، استخدمت أسنانها الحادة.. وعندئذ أمسك بها هيثكليف، وانهال على خديها بلطمات عنيفة، وعندما رأيت هذا البطش الشيطاني، اندفعت نحوه ثائرة وأخذت أصيح: أيها النذل.

ولكن أخرستني لطمة عنيفة تلقيتها في صدري، ثم قال لي الوغد: إنني أعرف كيف أؤدب الأطفال كما رأيت.. إنني سوف أكون أباك غداً.. أباك الوحيد الذي سوف يبقى لك بعد أيام قليلة.. وسوف تلقين مني الكثير على نحو ما رأيت: إذا لمحت في عينيك شيطان القحة مرة أخرى.

وجرت كاتي نحوي وهي تنتحب بصوت عالٍ.. وقام مستر هيثكليف بإعداد الشاي بنفسه، ثم صبه في الأقداح، وقدم لي قدحاً منه، وهو يقول: تخلصي من مشاعر الحقد والغضب.. وإنني ذاهب للبحث عن جواديكما.

وكان أول ما خطر على فكرنا بعد خروجه، هو أن ندبر لنفسينا طريقاً للخروج0، ولكن باب المطبخ كان موصداً، والنوافذ أضيق من أن تتسع للمرور.. وصحت: أنت تعلم يا سيد لينتون ما يسعى وراءه والدك الجهنمي، وسوف تخبرنا به فوراً.

فأجاب: أعطني أولاً قليلاً من الشاي، وسوف أخبرك بكل شيء. لقد تركت دموعك يا كاترين تسقط في قدحي، ولذلك فلن أشربه. أعطني قدحاً

آخر!

وشعرت بالاشمئزاز من هدوء هذا التعس الصغير، بعد أن فارقه الفزع مما كان مقدراً أن يصيبه. وقد حدست بأنه قد أنذر بعقاب رهيب إذا فشل في استدراجنا إلى داخل البيت. ولما حدث ذلك، لم يعد لديه أي سبب مباشر للخوف.. وقد استطرد قائلاً: إن أبي يريد أن يعقد زواجنا.. وهو يعلم أن أباك لن يوافق على زواجنا الآن، وفي نفس الوقت فإنه يخشى أن أموت إذاً أرجأ هذا الأمر. ولذلك فإننا سوف نتزوج في الصباح، وستبقين هنا الليلة. فإذا نفذت هدفه، فسوف تعودين إلى بيتك في اليوم التالي، وسوف تأخذينني معك.

فهتفت قائلة: تأخذك معها؟ أنت تتزوج؟ هل تتزوج سيدتي من قرد حقير صغير مثلك؟ إنك تستحق الجلد لأنك أحضرتها إلى هنا بأخاديعك الخسيسة.

وقالت كاترين: نبقى هنا الليلة؟ محال!.. لابد أن أخرج من هنا يا إيلين، ولو تطلب الأمر أن أحرق هذا الباب.

ولكن لينتون أصيب بالفزع مرة أخرى خوفاً على شخصه العزيز. فقال لها متوسلاً: ألا تقبلين بي زوجاً فتنقذينني؟ ألا تريدين أن أذهب معك إلى الجرانج؟ أوه يا عزيزتي كاترين! يجب ألا ترحي وتتركيني هنا الآن؟ يجب أن تطيعي أبي.. يجب أن تطيعيه..

أجابت: بل يجب أن أطيع أبي، وأنقذه من عذاب قلق الانتظار.. هل يمكن أن أقضي الليلة كلها هنا؟

ودخل سجاننا مرة أخرى. وقال: هيا يا لينتون.. اذهب إلى فراشك.

وقد نطق بهذه الكلمات وهو يمسك بالباب منفرجاً بما يسمح بمرور ابنه، ثم أوصد الباب ثانية. واقترب هيثكليف من المدفأة، فتطلعت إليه كاترين، ثم رفعت يدها إلى خدها في حركة غريزية فقال: أوه ألم تقولي إنك لا تخشينني؟ الحقيقة أنه يبدو عليك الفزع الشديد.

فأجابته: إنني خائفة الآن فعلاً، لأنني إذا بقيت هنا، فسوف يشقى والدي لغيابي، وكيف استطيع احتمال أن أكون مصدر شقائه، بينما هو.. بينما هو.. بينما هو.. مستر هيثكليف.. بربك دعني أعود إلى البيت. وأعدك بأنني سوف أتزوج من لينتون. لأن أبي يود أن أتزوج منه، كما أنني أحبه.

قال: إنني يا مس لينتون سوف أجد متعة قصوى في شعوري بأن والدك سوف يشقى بسببي. أما عن وعدك بالزواج من لينتون، فإنني سوف أهتم بالوفاء به، لأنك لن تبرحي هذا المكان إلى أن يتم إنجاز هذا الوعد.

فصاحت كاترين وهي تبكي بمرارة: أرسل إيلين إذن لتخبر أبي بأنني في أمان. أو أعقد زواجي الآن. إنني أقبل الزواج منه في هذه الساعة، إذا سمحت لي بالعودة إلى ترشكروس جرانج بعد ذلك. أنت رجل قاس يا مستر هيثكليف ولكنك لست شيطاناً. ولو أن أبي ظن إنني تركته عن عمد، أو إذا مات قبل عودتي، فهل يمكن أن أطيق الحياة بعد ذلك؟ لقد كففت عن البكاء، ولكني سوف أركع هنا، ولن أقوم ثانية ولن أحول وجهي عنك حتى تنظر إلي. كلا.. لا تدر وجهك بعيداً عني. أنظر إلي! ألم تحب أحداً في حياتك يا عمي.. أبداً؟ آه.. يجب أن تنظر إلي مرة واحدة.. ولن يسعك إلا أن تأسف لحالي وترثي لي.

فصاح هيثكليف في وحشية: ابعدي أصابعك عني.. وابتعدي وإلا ركلتك بقدمي. إنني أفضل أن تحتضنني أفعى عن أن تلمسيني.. إنني أكرهك!

وكان الليل قد أسدل أستاره عندما سمعنا أصواتاً تتبادل الحديث عند بوابة الحديقة، فأسرع مضيفا إلى الخارج في الحال. كان هو يحتفظ بقدرته على التفكير، أما نحن فقد شرد منا الفكر.. واستغرق الحديث دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم عاد بعد ذلك بمفرده، ليقول: إنهم ثلاثة من الخدم، حضروا من الجرانج للبحث عنكما.. كان ينبغي أن تفتحي النافذة وتناديهم.

ثم أمرنا أن نصعد إلى غرفة زيللا بالطابق العلوي، وكانت النوافذ ضيقة كنوافذ الطابق الأرضي، فلم يعد لدينا أدنى أمل في الهرب، وبخاصة بعد أن أوصدت علينا الغرفة كما حدث من قبل.

وفي الساعة السابعة من صبيحة اليوم التالي، جاء هيثكليف ليأخذ كاترين. ونهضت لأتبعها، ولكنه أوصد الباب دوني. وأخذت أحرك المزلاج في غضب. وعندما سألته كاترين عن مبرر استمرار حبسي، أجاب بأن علي أن أحتمل ذلك ساعة أخرى.. ثم أخذها وانصرفا معاً.. وأخيراً سمعت وقع أقدام، ولكنها لم تكن خطوات هيثكليف.. وعندما فتح الباب، ظهر هيرتون حاملاً طعاماً يكفيني يوماً كاملاً.

وظللت حبيسة طوال اليوم، والليلة التالية، ثم ليلة أخرى، وثالثة.. لقد قضيت في سجني خمس ليال وأربعة أيام.. دون أن أرى أحداً غير هيرتون مرة كل صباح.

-28-

بعد ظهر اليوم الخامس، سمعت وقع خطوات مختلفة عن خطوات هيرتون تقترب من سجني. وفي هذه المرة كان القادم هي زيللا مدبرة البيت، التي هتفت قائلة: آه يا عزيزتي مسز دين! حسن.. إن الناس يتحدثون عنك في جيمرتون. وقد ظللت على اعتقادي بأنك قد غرقت في مستنقعات الجدار الأسود، وغرقت الآنسة معك، إلى أن أخبرني السيد بأنهم عثرو عليك، وأنه أتى بك إلى هنا.. فهل السيد هو الذي أنقذك يا مسز دين؟

أجبتها: أن سيدك وغد عريق ولكنه سوف يدفع الثمن غالياً.. إنه لم يكن في حاجة لاختلاق هذه الرواية.. فلن يلبث الناس أن يعرفوا كذبه.

فتساءلت زيللا: ماذا تعنين؟ إنها ليست رواية، ولكنها حديث الناس في القرية.. فهم يقولون إنك فقدت في المستنقع.. وعندما عدت من إجازتي، ذهبت إلى إيرنشو، وقلت له: لقد وقعت أشياء غريبة منذ ذهابي يا مستر هيرتون، وأنه لمن المحزن أن تلقى تلك الفتاة الصغيرة ونيللي دين هذا المصير.. فراح يحملق في وجهي، وعندئذ أخبرته بما ترددده الشائعة. وكان السيد يستمع إلي، فما لبث أن ابتسم قائلاً: إذا كانت قد سقطتا في المستنقع يا زيللا، فإنها الآن خارجه.. إن نيللي دين تقيم في غرفتك في هذه اللحظة وفي وسعك أن تطلبي إليها الرحيل عندما تصعدين إليها. إليك المفتاح.. لقد امتلأ رأسها بماء المستنقع، وأرادت أن تعود إلى بيتها، وقد أصابها البله. ولكن أبقيتها هنا حتى تستعيد حواسها الضائعة، ويمكنك الآن أن تطلبي إليها الذهاب إلى الجرانج فوراً، وأن تبغلهم هناك رسالة مني، فحواها أن السيدة الشابة سوف تلحق بها في الوقت المناسب لحضور جنازة مستر لينتون؟

فهتفت قائلة: آه زيللا!.. زيللا.. إن مستر إدجار لم يمت.. أليس كذلك؟

أجابت: كلا.. كلا. إنه لم يمت.. وإن كان دكتور كينيث يرى أنه قد يعيش يوماً آخر.

فأسرعت أهبط الدرج. وكان الطريق خاليًا. وعندما دخلت البيت، رحت أتطلع حولي باحثة عن أي شخص أسأله عن كاترين، وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه، ولكني لم أرَ أحدًا هناك. ثم استرعى انتباهي سعال خفيف ينبعث من لينتون الذي كان راقدًا فوق الأريكة، فسألته: أين مس كاترين؟ هل رحلت؟

أجابني: كلا. إنها في الطابق العلوي. ولن ترحل من هنا.. لن ندعها ترحل.

فصحت فيه: لن تسمح لها بالرحيل أيها الأبله الصغير.. أرشدني إلى غرفتها في الحال، وإلا جعلتك تصرخ عاليًا.

فأجابني: إن أبي هو الذي سيجعلك تصرخين إذا حاولت الذهاب إلى هناك. وهو يقول إنني يجب ألا أكون رقيقًا مع كاترين، فهي زوجتي ومن العار أن ترغب في هجري. وهو يقول أيضًا أنها تكرهني، وتتمنى أن أموت حتى ترث أموالي، ولكنها لن تنال شيئًا ولن تعود إلى بيتها! لن تعود أبدًا.. وفي وسعها أن تبكي وأن تمرض ما شاء لها البكاء والمرض.

قلت له: هل نسيت يا سيد هيثكليف الحنان الذي كانت تسبغه كاترين عليك في الشتاء الماضي، عندما كانت تأتي -أكثر من مرة- وسط العواصف والثلوج لتراك؟ والآن، أنت تصدق الأكاذيب التي يرددها والدك.. فهل ترى أنها حضرت إلى مرتفعات وذرنج لأنها تكرهك؟ ثم إنك تقول إنها مريضة ومع ذلك فأنت تتركها وحدها. لقد كان في مقدورك أن ترثي آلامك ومتاعبك، أما الآن فأنت لا تأخذك الشفقة على آلامها ومتاعبها!..

فأجاب ساخطًا: إنني لا أستطيع البقاء معها.. إنها تبكي على الدوام، وأنا لا أستطيع احتمال ذلك.

فسألته: هل مستر هيثكليف خارج البيت؟

أجاب: أنه في الفناء يتحدث إلى الدكتور كينيث الذي أعلن أن خالي يعاني سكرات الموت.. وإنني سعيد لأنني سوف أصبح سيد الجرانج من بعده، لقد كانت كاترين تتحدث عنه دائمًا كأنه بيتها. كلا.. إنه ليس ملكها، وإنما ملكي أنا. إن أبي يقول إن كل شيء يخصها قد أصبح من ممتلكاتي..

حتى كتبها اللطيفة أصبحت ملكي. لقد عرضت علي أن تهبني كتبها ومهرها، إذا أحضرت لها مفتاح الغرفة، وتركتها تغادر البيت. ولكني أخبرتها أنه لم يعد لديها ما تمنحه، لأن كل ما لها أصبح ملكي. وعندئذ أخذت تبكي، وأصبحت أكثر شحوبًا، وزادت ضراوتها حتى أنني أصبحت أخاف منها وأخشاها..

قلت: وهل في وسعك أن تحصل على مفتاح الغرفة إذا أردت ذلك؟

أجاب: نعم.. ولكني لن أخبرك أنت بمكانه.

وقد فضلت أن أرحل دون رؤية مستر هيثكليف، على أن أحضر نجدة من الجرانج0 لإنقاذ سيدتي الصغيرة. وعندما وصلت إلى هناك، استقبلني زملائي الخدم في دهشة وفرحة بالغتين. وكانت سعادة عظيمة أن سيدتهم الصغيرة في أمان. وأبلغت هذه الأنباء بنفسي إلى مستر إدجار وقد ارتعت للحالة التي أصبح عليها فقد كان يرقد في انتظار الموت. وهمست قائلة:

- كاترين قادمة إليك أيها السيد العزيز. إنها ما زالت على قيد الحياة، وهي في حالة طيبة. وأرجو أن تكون هنا الليلة.

ورويت له قصة زيارتنا الإجبارية للمرتفعات، وسجننا هناك.. ثم أوفدت أربعة رجال مدججين بالسلاح ليطلبوا سيدتي الصغيرة من سجانها. ولكن الرجال الأربعة عادوا قائلين إن كاترين مريضة.. وقد اشتد عليها المرض إلى درجة لا تسمح لها بالخروج. وأن مستر هيثكليف لم يسمح لهم برؤيتها.. وانهلت لومًا وتقريعًا لهؤلاء الحمقى الذين صدقوا هذه الرواية الكاذبة.. وقررت أن اصطحب جمعًا من الرجال عند الفجر، وأذهب إلى المرتفعات. وأقوم بالهجوم عليها ما لم تسلم لنا الأسيرة في هدوء.. وقد أقسمت أن أباها يجب أن يراها قبل أن يموت.

ومن حسن الحظ أن حدث ما جنبني مشقة الرحيل ومواجهة المتاعب فقد نزلت إلى الطابق الأرضي في الساعة الثالثة لأحضر أبريقًا من الماء. وعند ذاك سمعت طرقة قوية على الباب الأمامي، دفعني إلى الإسراع بفتحه.. وكان أن وجدت أمامي سيدتي الصغيرة المحبوبة، التي اندفعت تحيط عنقي بذراعيها، وهي تنتحب قائلة: إيلين.. إيلين.. هل ما زال أبي على قيد الحياة؟

فصحت قائلة: نعم.. نعم.. يا ملاكي.. إنه ما زال حيًا.. حمدًا لله إذ عدت إلينا سليمة.

فأخبرتني أن شدة حزنها ولوعتها دفعت لينتون إلى المجازفة بإخلاء سبيلها..

ثم هرعت إلى الطابق العلوي حيث توجد غرفة مستر لينتون. ولم يكن في مقدوري احتمال رؤية مشهد اللقاء بينهما، ولذلك وقفت خارج باب الغرفة مدة ربع ساعة، ثم دخلت.. وكان الصمت يخيم على الغرفة.

كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة، يا مستر لوكوود، في هدوء وسلام بعد أن قبل وجنتيها، وغمغم قائلاً لها: إنني ذاهب إليها.. وسوف تأتين إلينا أنت الأخرى يا طفلتي العزيزة. ولم يتحرك أو ينطق بعد ذلك!

-29-

كنت جالسة مع السيدة الصغيرة في غرفة المكتبة، مساء يوم تشييع الجنازة، عندما اندفع أحد الخدم نحونا، قائلاً: الشيطان «هيثكليف» يعبر فناء البيت.

ولم يهتم «هيثكليف» بالشكليات مثل الطرق على الباب، لأنه كان يرى أنه سيد البيت. ولذلك فإنه تمتع بمزايا السيد الذي يحق له أن يدخل دون استئذان.. وعندما رأته كاترين، نهضت واقفة وهمت بالخروج، ولكنه قال لها: قفي!.. لا فرار لك بعد الآن! لقد أتيت لأخذك إلى البيت، وأرجو أن تكوني ابنة مطيعة، ولا تشجعي ابني على مزيد من العصيان. وسوف ترين من شكله أنه قد نال ما يستحق من عقاب.ز لقد أخبرني «هيرتون» أنه يصرخ طوال الليل، وينادي عليك لحمايته مني. وسواء كنت تحبين زوجك أم لا تحبينه، فإنه لابد لك من الحضور إلى البيت، فهو الآن من اختصاصك.

وتوسلت إليه قائلة: لماذا لا تدع «كاترين» تبقى هنا، وترسل السيد «لينتون» ليعيش معها ما دمت تكرههما؟

أجاب: إنني أبحث عن مستأجر للجرانج، ثم إنني أريد أولادي من حولي. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الفتاة مدينة لي بخدمتها لقاء طعامها.. هيا أسرعي بالاستعداد للرحيل معي.

فقالت كاترين: سوف أذهب، لأن لينتون هو كل من يجب أن أحبه في هذا العالم، ورغم إنك بذلت كل ما في وسعك ليكرهني، وفعلت معي ذلك لكي أكرهه، فإنك لا تقدر على أن تجعل أحدنا يكره الآخر.

وانسحبت كاترين بطريقة تدل على الازدراء. وأخذت أتوسل إليه أن يمنحني مكان زيللا في المرتفعات، على أن أتنازل عن مركزي هنا، ولكنه أمرني بالصمت. وبعد ذلك ولأول مرة سمح لنفسه أن يلقي بنظرة خاطفة على الغرفة، وتطلع إلى الصور المعلقة، وبعد أن تأمل صورة مسز لينتون،

قال: سوف أخبرك بما فعلته بالأمس.. لقد جعلت اللحاد الذي كان يحفر قبر لينتون، يزيل التراب عن غطاء تابوتها، ثم فتحته، ورأيت وجهها مرة أخرى، وهو لا يزال على حاله حتى الآن، ولكن اللحاد قال: إن هبوب الرياح سوف يؤثر فيه، فيعرضه للفساد. وعندئذ نزعت المسامير من أحد جانبي التابوت، ثم أعدت الغطاء فوقه.. ولم يكن ذلك من الجانب القريب من لينتون، لعنة الله عليه. ثم رشوت اللحاد موصيًا إياه أن يزيح تابوتها جانبًا عندما أدفن هناك، ليكون مكاني بينها وبين لينتون. وسوف أعمل على تنفيذ ذلك، حتى إذا أتى شبح لينتون، كان عاجزًا عن التفرقة بين تابوتي وتابوتها.

فصحت قائلة: أنت إنسان شرير يا مستر هيثكليف. ألم تخجل من إزعاج الموتى؟

أجاب: إنني لم أزعج أحدًا يا نيللي. تقولين إنني أزعجتها هي؟ كلا، وإنما هي التي كانت تزعجني ليل نهار طوال ثمانية عشر عامًا وحتى ليلة الأمس.. في الليلة الماضية فقط استمتعت بالهدوء والسلام. وتخيلت أنني أنام نومتي الأخيرة بجوار هذه الراقدة.. وقد كف قلبي عن الخفقان وتجمدت وجنتاي. أنت تعلمين أنني كدت أجن بعد موتها، وكنت أبتهل إليها أن تعيد إليّ روحها، فإنني أؤمن إيمانًا قويًا بالأشباح وبأنها موجودة بيننا.. لقد حدث في اليوم الذي وقفت فيه كاترين أن ذهبت إلى فناء الكنيسة مساء. وكنت وحدي، وأنا أعلم تمامًا أن ستة أقدام من التراب الرخو هي الحاجز الوحيد الذي يفصل بيني وبينها.. وقلت لنفسي: سوف أضمها بين ذراعي مرة أخرى وإذا وجدت جسدها باردًا، فسوف أعزو ذلك إلى فعل الريح الشمالية، أما إذا وجدتها ساكنة، فسوف أزعم أنها نائمة.

وأحضرت جاروفًا من المخزن، وبدأت أحفر، إلى أن أرتطم الجاروف بالصندوق فألقيت به. وأخذت أحفر بأصابعي. وعندما أوشكت أن أبلغ غايتي، خيل إلي أنني سمعت تنهدة تنبعث من شخص يقف فوق رأسي عند حافة القبر، وكنت أعلم أنه لا يوجد أي مخلوق يقف إلى جانبي، ولكني شعرت شعورًا قويًا بأن كاتي هناك.. إنها ليست في التابوت تحتي، ولكنها فوق الأرض معي. وعندئذ انبعث من قلبي شعور بالراحة، وأخذ هذا الشعور يسري

في أوصالي، لقد كنت أشعر بوجودها، وظل هذا الشعور ملازماً لي طوال الفترة التي كنت أعيد فيها ردم المقبرة، بل إنه كان يقود خطواتي إلى البيت. كنت واثقًا بأنها معي، فلم أملك إلا أن أتحدث إليها. وعندما بلغت المرتفعات، اندفعت بقوة نحو الباب، فوجدته موصداً. فقد كان هندلي إيرنشو وزوجتي قد أغلقاه من الداخل، ومنعاني من الدخول. ولكني استطعت اقتحام الباب. وأذكر أنني توقفت قليلاً لكي أشبع هندلي ركلاً حتى تقطعت أنفاسه. ثم أسرعت إلى الطابق العلوي.. إلى غرفتي وغرفتها، وأخذت أتطلع حولي في لهفة، وشعرت أنها بجواري، حتى لقد كدت أراها، وإن كنت لم أستطع أن أراها!

ولابد أن مسام جسمي قد تفصدت دمًا بدلاً من العرق، من لوعة حنين إلى أن تجود علي بنظرة، ولكنها ضنت علي بهذه النظرة كما ضنت علي بنفسها وهي على قيد الحياة. ومنذ ذلك الحين أصبحت ضحية هذا العذاب الرهيب. وعندما كنت أجلس في البيت، كان يخيل إلي إنني سوف أتلقي بها لو خرجت. وعندما كنت أسير في البراري، كان يتراءى لي أنني سألقاها وهي عائدة إلى البيت.. وكنت كلما غادرت البيت تعجلت أوبتي لأنني كنت على يقين من أنها لابد أن تكون في مكان ما في المرتفعات. وعندما نمت في غرفتها، لم يهجع لي مرقد لأنني في اللحظة التي كنت أغمض فيها عيني، كنت أشعر بها إما واقفة خارج النافذة، أو تزيح حواجز خزانة الفراش، أو داخلة إلى الغرفة. وكنت أفتح عيني لأراها. وهكذا رحت أفتح عيني وأغمضها مائة مرة كل ليلة وكان نصيبي دائماً خيبة الأمل.. أما الآن فقد استرحت قليلاً بعد أن رأيتها.

كانت وسيلة غريبة لقتلي. لم تحاول القضاء علي دفعة واحدة، إنما لجأت إلى أسلوب القتل البطيء، فظلت تلوح لي بسراب الأمل خلال ثمانية عشر عاماً..

وسكت هيثكليف عندما دخلت كاترين، وأعلنت أنها على استعداد للرحيل. وهمست سيدتي الصغيرة قائلة: وداعًا يا إيلين..

وقبلتني، فشعرت أن شفتيها باردتان كالثلج، ثم استطردت قائلة: لا تنسي أن تأتي لزيارتي يا إيلين..

فقال والدها الجديد: إياك أن تفعلي شيئًا من هذا يا مسز دين.. وعندما أريد أن أتحدث إليك، فإنني سوف أحضر إلى هنا..

رحت أرقبها من وراء النافذة، وهما يعبران الحديقة.. ورأيت هيثكليف يجذبها لتلاحق خطواته السريعة!

-30-

قمت بزيارة المرتفعات لأني لم أكن قد رأيت سيدتي منذ رحيلها، ولكن جوزيف أمسك الباب بيده، وأبى أن يدعني أدخل، وقال إن مسز لينتون في صحة طيبة، وأن السيد ليس في البيت..

وكان قد دار بيني وبين زيللا حديث طويل منذ نحو ستة أسابيع، قبل مقدمك، وذلك عندما التقينا ذات يوم في البراري. وإليك ما أخبرتني به. قالت:

كان أول ما فعلته مسز لينتون عند وصولها إلى المرتفعات، أن حبست نفسها في غرفة لينتون، وظلت بها حتى الصباح. وفي ذلك الوقت وبينما كان السيد وايرنشو يتناولان طعام الإفطار، دخلت عليهما غرفة الجلوس، وسألت إن كان من الممكن استدعاء الطبيب، لأن ابن عمتها قد اشتدت عليه وطأة المرض، فأجاب هيثكليف: إننا نعرف ذلك، ولكن حياته لا تساوي شروري نقير، ولن أنفق عليه مليماً واحداً..

قالت: ولكن لم ألق مساعدة من أحد، فإنه سيموت!

فصاح السيد: لا تدعيني أسمع كلمة أخرى عنه. إن أحداً هنا لا يبالي بما يصيبه، فإذا كنت مهتمة به، فتولي تمريضه. أما إذا كان لا يعنيك أمره فأغلقي عليه باب غرفته واتركيه لشأنه!..

ثم جاءت إلى غرفتي ذات ليلة. وقالت لي: أخبري مستر هيثكليف أن ابنه يحتضر. إنني على ثقة بذلك انهضي حالاً وأخبريه بذلك..

وعندما أبلغته رسالة كاترين، أخذ يسب ويلعن وهو متوجه إلى غرفتهما وأنا في أعقابه، وكانت مسز هيثكليف تجلس إلى جانب الفراش. واقترب نحوها، ورفع الشمعة أمام وجه لينتون وتطلع إليه، وتحسسه، ثم استدار نحوها قائلاً: بماذا تشعرين الآن يا كاترين؟

أجابت: لقد أصبح بمنجاة منك.. وتحررت أنا.

وأشرق الصباح وكاتي تعاني من المرض. وقد ظلت معتكفة في غرفتها أسبوعين كما روت لي زيللا. وذات مرة صعد إليها هيثكليف لطحلعها على وصية لينتون وقد أوصى فيها بكل ما كان يملكه وما كانت تملكه هي من أموال منقولة إلى أبيه. وقد أرغم ذلك المخلوق المسكين على ذلك خلال الفترة التي غابت فيها عن البيت عند وفاة أبيها، كذلك فقد طالب مستر هيثكليف بإثبات إرثه وإرث زوج ابنه في ترشكروس جرانج وكيف كان الأمر، فإن كاترين لم تكن تملك القدرة على التعرض له في حيازته لممتلكاته، إذ كانت محرومة من الأصدقاء والمال.

ومضت زيللا قائلة: لم يكن أحد يقترب من باب غرفتها سواي، وذلك عدا تلك المرأة التي صعد إليها فيها مستر هيثكليف. وكذلك لم يكن هناك من يسأله عنها البتة. وكانت المرة الأولى التي نزلت فيها إلى غرفة الجلوس، بعد ظهر ذات يوم أحد، عندما أخبرتها أن السيد ينوي الذهاب إلى ترشكروس جرانج، وأن جوزيف قد ذهب إلى الكنيسة. وقد أفهمت هيرتون ان ابنة عمه قد تأتي للجلوس معنا، وعندما سمع هذا النبأ، تورد وجهه، وراح ينظر إلى يديه وثيابه، ففهمت أنه ينوي مشاركتها في مجلسها وحدست من ملكه أنه يريد أن يكون لطيفاً، حسن المظهر.. ولذلك عرضت عليه أن أساعده في إصلاح مظهره.

وقد سمح هيرتون لزيللا بمساعدته، وعندما أتت كاترين كان يبدو أنه قد نسي إهاناتها السابقة، وحاول أن يبدو لطيفاً معها، كما روت مدبرة المنزل، إذ قالت: دخلت السيدة الصغيرة شامخة كأنها إحدى الأميرات. وقد أحضرت لنفسها مقعداً، ووضعته بعيداً عنا وجلست عليه. وظلت ساكنة حتى سرى الدفء في كيانها، ثم بدأت في التطلع حولها. وقد اكتشفت وجود عدد من الكتب فوق الرف، فحاولت أن تصل إليها، ولكنها كانت بعيدة عن متناول يدها. وأخيراً استجمع ابن خالها شجاعته. ونهض لمساعدتها.

ومع أنها لم توجه إليه كلمة شكر، إلا أنه كان يشعر بالسعادة لمجرد قبولها مساعدته لها. وقد واتته الشجاعة لكي يقف وراءها وهي تقلب في الكتب، وأن يدلي بما يلهمه به خياله من تعليقات على الصور التي تتضمنها

هذه الكتب. وقد واصلت هي القراءة، بينما بدأ اهتمامه يتركز تدريجياً على شعرها الحريري الغزير. وكان أشبه بالطفل الذي يجتذبه لهب الشمعة. فقد مد يده وربت على إحدى غدائرها برفق كأنه يداعب عصفوراً، فما كان منها إلا أن استدارت إليه ثائرة كأنما قد طعنت بسكين في عنقها، وصاحت: أخرج من هنا حالاً.. كيف تجرؤ على لمسي؟ سوف أعود إلى غرفتي ثانية إذا اقتربت مني بعد ذلك.

فتراجع مستر هيرتون، وقد اكتسى وجهه بمظاهر البلاهة، وجلس على المقعد في سكون بالغ، بينما استمرت هي في القراءة لمدة نصف ساعة.. وأخيراً، نهض إيرنشو، وعبر الغرفة، ودنا مني ليهمس في أذني قائلاً:

- اسأليها أن تقرأ لنا يا زيللا.

فقلت في الحال: أن مستر هيرتون يود أن تقرئي علينا يا سيدتي.

فقطبت حاجبيها، ثم رفعت رأسها، وقالت: أن مستر هيرتون وسائر أفراد الأسرة يحسنون صنعاً لو أدركوا أنني أرفض أي محاولة مزعومة منهم بالعطف علي. إنني أحتقركم، ولن يكون لدي أبداً ما أقوله لأي منكم. فعندما كنت على استعداد لأن أهب حياتي لقاء كلمة عطف واحدة، ظللتم جميعاً بعيدين عني!.. إن الذي دفعني إلى النزول إلى هنا هو البرد، وليس الرغبة في تسليتكم أو الاستمتاع بصحبتكم.

وهنا قال إيرنشو: ما الذي كان في وسعي أن أفعله؟ وكيف يمكن أن يوجه إلي اللوم؟ .. لقد سألت مستر هيثكليف أكثر من مرة أن يسمح لي بأن أرعى لينتون.. لأنك.

فقاطعته سيدتي قائلة: أخرس! سوف أذهب إلى أي مكان، فهو أفضل لي من أن أسمع صوتك الكريه.

فغمغم هيرتون بما يعني أنه يرى أن تذهب إلى الجحيم.. لقد أصبح جمودها في مثل كبريائها.. والحقيقة أنها لا تجد صديقاً بيننا، لأنها لا تستحق صداقة أي منا.. أنني أقول بصراحة أن أقل كلمة يحدثها بها أحدنا، تجعلها تزدريه، بل أنها تثور في وجه السيد نفسه، فتدفعه إلى أن ينهال عليها لطماً. وكلما تزايد إيذاؤه لها، ازداد حقدها.

وعندما نقلت إلى زيللا هذا الحديث، صممت في بادئ الأمر أن أقيم في كوخ، وأدعو كاترين لتعيش معي فيه، لو لا أنني كنت على يقين من أن هيثكليف لن يسمح بذلك. ولست أري علاجاً لحالتها في الوقت الحاضر، إلا أن تتزوج مرة ثانية.

وإلى هنا انتهت قصة مسز دين.

أما أنا، فقد كنت قد بدأت في استعادة قوتي وعافيتي سريعاً، ولذلك عزمت على أن أمتطي صهوة جوادي، وأذهب إلى مرتفعات وذرنج، لأخبر المالك بأنني سأمضي الشهور الستة القادمة في لندن. وعليه إذا شاء أن يبحث عن مستأجر آخر للجرانج بعد شهر أكتوبر.. لأنني لن أقضي شتاء آخر في هذه المنطقة.

-31-

ذهبت البارحة إلى المرتفعات كما استقر عزمي من قبل. وقد حملتني مسز دين مدبرة المنزل رسالة صغيرة إلى سيدتها الصغيرة. ورأيت إيرنشو في الحديقة، فسألته عما إذا كان مستر هيثكليف موجوداً في البيت، فأجابني: كلا.. ولكنه سيحضر في موعد الغداء.

ودخلنا غرفة الجلوس سوياً. وكانت كاترين موجودة هناك، وهي تبدو أكثر تجهماً وأقل بشاشة عما كانت تبدو عليه عندما رأيتها أول مرة. ولم تكلف نفسها عناء النظر إلي. كما أنها لم ترد تحية الصباح التي ألقيتها عليها.

وتطرق إلى خاطري إنها ليست لطيفة كما حاولت مسز دين أن تقنعني. حقاً، إنها جميلة. ولكنها ليست ملاكاً.

واقتربت منها، وأسقطت رسالة مسز دين فوق ركبتيها في غفلة من هيرتون، ولكنها ألقت بها بعيداً، وهي تسألني بصوت عال: ما هذا؟

فأجبت، وقد ساءني منها أنها فضحت حسن صنيعي: أنها رسالة من مدبرة البيت في الجرانج.

وما كادت تسمع ذلك، حتى همت بالتقاط الرسالة ثانية وقد غمرتها الفرحة. ولكن هيرتون كان أسبق منها إليها، فأخذها ووضعها في جيبه وهو يقول أن مستر هيثكليف يجب أن يراها أولاً. وعند ذاك أشاحت بوجهها عنا في صمت، ثم انسالت دموعها على خديها. أما ابن خالها، فإنه بعد أن حاول مناضلة مشاعره الرقيقة فترة، أخرج الرسالة من جيبه، وألقى بها على الأرض إلى جانبها.. والتقطت كاترين الرسالة، وأخذت تقرأها في شغف، ثم قالت:

- يجب أن تخبر إيلين أنني كنت أود الرد على رسالتها، لولا إنني لا أملك شيئًا من وسائل الكتابة. وليس عندي مفكرة أستطيع أن أنزع منها ورقة لكي أكتب عليها.

فصحت قائلاً: أليس عندك كتب؟ كيف تطيقين للعيش هنا بدونها؟

فقالت كاترين: عندما كانت عندي كتب، كنت اقرأ فيها دائمًا. ولكن مستر هيثكليف لا يقرأ شيئًا، ولذلك فقد مزق كل كتبي. وهكذا انقضت أسابيع عديدة دون أن ألقي نظرة على كتاب.. إلا مرة واحدة يا هيرتون، عندما وقعت على مكتبة خفية في غرفتك.. إن كل هذه الكتب أصدقاء قدامى لي، وقد أتيت بهم أنت إلى هنا، وكنت تخفيهم لمجرد حبك للسرقة، بينما هي عديمة الجدوى بالنسبة لك. أو لعلك كنت تخفيها لاعتقادك بأنك ما دمت عاجزًا عن الاستمتاع بها، فلا يجوز أن يستمتع بها غيرك.

وعندما تورد وجه إيرنشو. وأخذ يتمتم بكلمات حانقة ينكر بها اتهاماتها له، فقلت محاولاً نجدته: أن مستر هيرتون شديد الرغبة في زيادة حصيلته من المعرفة. ولسوف يغدو طالبًا نابهًا خلال سنوات قليلة.

فقالت كاترين: نعم. لقد سمعته يحاول الهجاء والمطالعة وحده. وكم من أخطاء تردى فيها.

فقلت: ولكننا جميعًا يا مسز هيثكليف بدأنا مثل هذه البداية.

أجابت: أوه، إنني لا أريد أن أنال من قدرته على التحصيل، ولكنني أرى أنه ليس من حقه الاستيلاء على ما أملكه.. ثم أنه يبدو سخيفًا في نظري بأخطائه القبيحة وسوء مخارجه الفظيع.

وغادر هيرتون الغرفة، ولكنه ما لبث أن عاد بعد قليل وهو يحمل بين يديه عددًا من المجلدات، ثم ألقى بها في حجر كاترين، وهو يصيح:

- خذيها. فإنني لا أريد أن أسمع عنها أو أقرأها أو أفكر فيها بعد الآن!.

أجابت: ولكني لن آخذها في وقتنا هذا.. ذلك أنها سوف تكون مقرونة لدي بك، فأكرهها!..

ومع ذلك تناولت كتاباً منها، وراحت تقرأ منه فقرة بطريقة متعثرة كمبتدئ يتعلم الهجاء، انفجرت ضاحكة، وطوحت بالكتاب بعيداً عنها..

وعند هذا الحد، لم يعد هيرتون قادراً على تحمل مزيد من العذاب فأخذ يجمع الكتب. ويقذف بها في قلب النار. وقد قرأت على أساريره مدى ما يقاسيه من عذاب وهو يقدم هذه الضحية على مذبح الغضب. وخيل إلي أنني أدركت سبب محاولات الدراسة التي يقوم بها سراً.. لقد كان قانعاً بعمله اليومي، ومتعه الحيوانية الخشنة، إلى أن اعترضت كاترين طريقه، وكان خجله من ازدرائها له، وأمله في أرضائها هما باعثاه في بادئ الأمر على الإقبال على التعليم، ولكن محاولاته للسمو بنفسه لم تحقق له إلا مزيداً من الازدراء.

وقالت كاترين: نعم.. فهذا هو كل ما يستطيع صعلوك مثلك أن يجنيه منها من فائدة.

فأجابها في عنف: يحسن بك أن تمسكي لسانك الآن.

وأسرع يغادر الغرفة، ولكنه قبل أن يبلغ المدخل، التقى بمستر هيثكليف. وانتهت مهمتي مع المالك سريعاً..

وبينما كنت منطلقاً في طريق العودة إلى البيت، أخذت أقول لنفسي: يا لها من حياة كئيبة تلك التي تخيم على هذا البيت.. ولذلك فإنها سوف تكون أروع قصة في حياة مسز لينتون هيثكليف –تفوق نسج القصص الخيالية- فيما لوعقدت أواصر المحبة بيننا، ثم رحنا معاً إلى جو المدينة النابض بالحياة..

-32-

دعيت لزيارة صديق يقيم في الشمال في شهر سبتمبر 1802م، وبينما كنت في طريقي إلى بيته، وجدت نفسي على غير توقع على مسيرة خمسة عشر ميلاً من قرية جيمرتون، فتملكتني رغبة مفاجئة في زيارة ترشكروس جرانج. وفكرت في إمكانية قضاء الليلة تحت سقف بيتي كما لو كنت سأقضيها في فندق. وفضلاً عن ذلك ففي وسعي أن أنفق يوماً بسهولة، أرتب فيه أموري مع المالك، وبذلك أوفر على نفسي مشقة الحضور إلى تلك الأنحاء مرة أخرى.

وبلغت الجرانج قبيل الغروب. ورأيت عند باب المطبخ امرأة عجوز تجلس على الدرج، فسألتها: هل مسز دين في الداخل؟

أجابت: مسز دين؟ كلا. إنها لا تقيم هنا، بل تقيم هناك في المرتفعات.

فسألتها: هل أنت مدبرة البيت إذن؟

أجابت: نعم.. أنني التي أتولى رعايته الآن.

- حسن.. وأنا مستر لوكوود.. السيد. إنني أريد قضاء الليلة هنا.

فصاحت في دهشة: السيد! ماذا؟ من الذي كان يعرف بقدومك.. كان يجب أن تبعث برسالة.

وطلبت منها أن تهدأ قليلاً. وأخبرتها إنني سوف أخرج للنزهة، وعليها خلال هذه الفترة أن تعد غرفة لأنام فيها. وكان هدف نزهتي المزمعة هو المرتفعات. وقد سألت المرأة قبل أن أتركها: هل كلهم بخير في المرتفعات؟

فأجابت وهي تهرول بعيداً عني: نعم.. حسبما أعرف.

وكنت أود أن أسالها عن سبب رحيل مسز دين عن الجرانج، ولكن كان من المستحيل أن أعوقها عن عملها وهي في غمرة هذه المفاجأة التي لم تتوقعها.

وعندما بلغت بيت مستر هيثكليف وجدت بوابة الحديقة مفتوحة وقلت في نفسي أن هذا تطوراً جميلاً.. وكانت الأبواب والنوافذ مفتوحة أيضاً. وقبل أن أدخل، استطعت أن ألمح شخصين يتناجيان بالقرب من إحدى النوافذ. وسمعت صوتاً رخيماً كأجراس الفضة يقول: على العكس.. إنني لن أقولها لك مرة أخرى.. انتبه جيداً.. وإلا جذبتك من شعرك.

فأجابها صوت آخر في نبرات عميقة تفيض عذوبة: على العكس.. إذن. والآن قبليني إذا أحسنت النطق.

- كلا.. اقرأ القطعة قراءة صحيحة أولاً، دون أن تقع في خطأ واحد.

وبدأ الرجل المتحدث يقرأ.. وكان شاباً، يرتدي ثياباً أنيقة. ويجلس إلى منضدة وأمامه كتاب مفتوح. وكانت أساريره الجذابة تتألق سروراً، وعيناه لا تكفان عن الشرود في صبر نافذ في صفحة الكتاب إلى يد صغيرة بيضاء موضوعة فوق كتفه. وكانت صاحبة اليد تقف خلفه. وكان سعيداً أنه لا يرى وجهها في جلسته هذه، وإلا لما استطاع أن يظل ثابتاً مستقراً في مقعده.

وانتهى الدرس دون أن يخلو من أخطاء أخرى، ولكن التلميذ طالب بجائزته «وكان أن نال خمس قبلات على الأقل» ردها في سخاء وحرارة. وبعد ذلك سارا في اتجاه الباب، فأدركت أنهما ينويان الخروج في نزهة بين البراري، وخشيت أن يرياني، فأسرعت إلى المطبخ ألوذ الاختفاء هناك.

وعند باب المطبخ، وجدت صديقتي القديمة «نيللي دين» جالسة وهي مشغولة بالحياكة. وعندما رأتني، قفزت واقفة وهي تهتف: من أرى بحق السماء.. أنت يا مستر «لوكوود». كيف خطر لك أن تعود بهذه الطريقة. إن كل شيء مغلق في «ترشكروس جرانج»، وكان يجب أن تنذرنا بمجيئك.

أجبت: لقد رتبت أمر راحتي هناك. وسوف أرحل ثانية غداً. ولكن كيف انتقلت إلى هنا يا مسز دين؟ خبريني.

قالت: لقد تركت زيللا الخدمة، فطلب إلي مستر «هيثكليف» الحضور عقب رحيلك إلى لندن، على أن أبقى هنا حتى تعود. ولكن أرجو أن تتفضل بالدخول. هل أتيت من «جيمرتون»؟

أجبت: بل من «الجرانج».. فقد أردت أن أنهي أعمالي مع سيدك، لأنني لا أظن أنني سوف أجد فرصة أخرى قريباً..

قالت نيللي: أي عمل يا سيدي؟ لقد خرج الآن..

قلت: فيما يتعلق بالإيجار.

قالت: آه! إذن عليك أن تسوي الأمر مع مسز «هيثكليف» أو بالأحرى معي. فهي لم تتعلم بعد كيف تدير شئونها، وأنا التي أتولى عنها ذلك.

فبدت الدهشة على وجهي، بينما أردفت هي قائلة: آه.. أرى أنك لم تسمع بموت هيثكليف..

فهتفت مشدوهاً: هل مات هيثكليف؟ منذ متى؟

منذ ثلاثة أشهر. ولكن أجلس أولاً. وسوف أخبرك بكل شيء عن هذا الأمر.

إنني ما تصورت موته قط.. دعيني أسمع كيف حدث ذلك. لقد قلت إنك لا تتوقعين عودتهما سريعاً.. فهل تعنين بذلك الفتى والفتاة؟

- لا أتوقع عودتهما سريعاً.. فإنهما يقومان كل ليلة بجولة حتى ساعة متأخرة.

وأخبرتني بالبقية الباقية من قصة هيثكليف، فقد كانت نهايته غريبة على حد تعبيرها.

قالت مسز دين:

استدعيت إلى مرتفعات وذرنج بعد أسبوعين من رحيلك عنا، فلبيت مسرورة من أجل كاترين. وقال مستر هيثكليف أنه ضاق برؤية كاترين، وإنني يجب أن أتخذ من البهو الصغير غرفة لجلوسي على أن تكون معي. ويكفيه أن يضطر إلى رؤيتها أثناء تناول وجبات الغداء. وكنت قد أحضرت

معي عدداً كبيراً من الكتب من الجرانج. وكانت كاترين تبدو راضية في بادئ الأمر، ولكنها لم تلبث قليلاً حتى أصبحت سريعة الغضب شديدة القلق.. فقد كانت من ناحية ممنوعة من الخروج إلى الحديقة، ومن الانطلاق في البيت من ناحية أخرى. وكان كثيراً ما يرغمني على تركنها، ولذلك كانت تشكو من الوحدة. وكانت تفضل الشجار مع جوزيف في المطبخ، على البقاء ساكنة في عزلتها. وكان هيرتون كثيراً ما يضطر للالتجاء إلى المطبخ أيضاً.. ولكنها بعد فترة غيرت من مسلكها نحوه، وأصبحت لا تستطيع أن تتركه وشأنه، فكانت تتحدث إليه، وتعلق على غبائه وكسله، وتعبر عن دهشتها من إحتماله لتلك الحياة التي يحياها، وكيف يستطيع قضاء أمسية كاملة وهو جالس يحملق في نار المدفأة، ثم يستغرق في سبات عميق. وقالت ذات مرة:

- إنه أشبه بالكلب.. أليس كذلك يا إيلين؟ إنه مثل الحصان.. يقوم بعمله.. ويتناول طعامه. وينام. لابد أن يكون عقله خاوياً موحشاً.

وفي مناسبة أخرى صاحت قائلة: إنني أعرف لماذا لا يتكلم هيرتون عندما أكون في المطبخ.. إنه يخشى أن أضحك منه. لقد حدث ذات مرة أن بدأ يعلم نفسه القراءة، ولأنني ضحكت منه فقد أحرق الكتب. ألم يكن هذا تصرف أحمق؟

فسألتها: ألم تكوني أنت شقية؟ أجيبي عن سؤالي.

قالت: ربما كنت كذلك.. اسمع يا هيرتون، لو أعطيتك الآن كتاباً، فهل تأخذه؟ سأجرب.

ووضعت كتاباً بين يديه، ولكنه قذف به بعيداً، وهو يغمغم بما يعني أنه سوف يدق عنقها.

فقالت: حسن.. سوف أضعه هنا. أما أنا فسوف أذهب لأنام.

ولكنه لم يقترب من الكتاب.. ورأيتها حزينة لأنها دفعته إلى القنوط من محاولة إصلاح نفسه، وإن كانت قد حاولت معالجة ما أفسدته بأن كانت تعمد إلى إحضار أحد كتبها البهيجة، وتقرأ فيه بصوت مرتفع. وعندما يكون هيرتون موجوداً، فإنهما كانت تتعمد الوقوف عند نقطة مشوقة، ثم تترك

الكتاب موضوعاً فوق المنضدة.. ولكنه كان عنيداً، وكان يبذل كل جهده للتظاهر بعدم الاكتراث.

وكان مستر هيثكليف يزداد يوماً بعد يوم عزوفًا عن مخالطة أحد، حتى أنه أبعد إيرنشو نهائيًا عن غرفة الجلوس. وذات يوم أصيب هيرتون بجرح في ذراعه، ونزف دماً كثيراً، ولذلك قضى عليه أن يجلس في المطبخ بجوار المدفأة بضعة أيام. وفي يوم الاثنين الذي يوافق عيد الفصح، ذهب جوزيف إلى جيمرتون يقود قطيعاً من الماشية، وكنت مشغولة بعد ظهر ذلك اليوم. وكان إيرنشو جالساً في صمت كعادته عند ركن المدفأة، بينما كانت سيدتي ترسم بعض الصور. ولكني سمعتها تبدأ حديثًا قائلة: لقد تبينت يا هيرتون إنني أريد.. إنه يسرني.. إنني أود أن تكون ابن خالي في وقتنا هذا، ولكنك غدوت دائم العبوس في وجهي، خشنًا في معاملتي.

ولم يجبها هيرتون بكلمة، فاستطردت قائلة: هيرتون.. هيرتون.. هيرتون! هل تسمعني؟

فزمجر قائلاً: اغربي عن وجهي!

قالت: انتظر!.. يجب أن تنصت إلي.

فصاح في حدة: هل لك أن تذهبي إلى الشيطان، وتدعيني لحالي.

فقالت في إلحاح: لن أذهب إلى الشيطان، ولن أدعك لحالك. إنني لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله حتى أجعلك تقبل الحديث معي. إنك مصر على ألا تفهمني.. إنني عندما أصفك بالغباء، فلست أعني بذلك أنني أحتقرك.. اهدأ يا هيرتون.. فأنت ابن خالي..ويجب أن تهتم بي وترعاني.

أجاب: لن يكون لي شأن بك ولا بغطرستك ولا بأفعالك اللعينة.. سوف أذهب إلى الجحيم، روحاً وجسداً، قبل أن أنظر إليك مرة أخرى.. أغربي عن وجهي.. فوراً.

فقاطعته قائلة: يجب أن تكون صديقًا لابنة عمتك يا مستر هيرتون.. ما دامت قد استشعرت الندم على عبثها بك. إنك سوف تلقى خيراً كثيراً إذا اتخذت منها رفيقًا.

فصاح قائلاً: رفيقًا؟ هذا بينما هي تكرهني، ولا ترى إنني أهل حتى لكي أمسح حذاءها؟

فقالت كاتي وهي تنتحب: لست أنا التي أكرهك، وإنما أنت الذي تكرهني. إنك تكرهني أكثر من كراهية مستر هيثكليف لي.

قال إيرنشو: إنك كاذبة لعينة.. لماذا إذن كان يثور غاضبًا أكثر من مائة مرة، عندما كان يجدني متحيزًا لك ومدافعًا عنك؟.. هذا بينما كنت أنت تسخرين مني وتحتقرينني.

فأجابت وهي تجفف دموعها: لم أكن أعرف أنك تقف إلى جواري وتدافع عني.. ثم إنني كنت شقية، وأشعر بالمرارة من الناس جميعًا.. ولكني الآن أشكرك، وأرجو أن تصفح عني..

ومدت إليه يدها. أما هو فقد احتقن وجهه، وظل يضغط على قبضتيه في عصبية، وقد تعلقت عيناه بالأرض..

ولابد أن كاترين قد حدست بغريزتها أن ما دفعه إلى اتخاذ هذا المسلك إنما هو العناد والاعتزاز بالنفس وليس الكراهية، وكان إن طبعت على خده قبلة رقيقة. وعندما هززت رأسي، تورد وجهها وهمست لي قائلة: حسن.. ماذا كان ينبغي أن أفعل يا إيلين؟ لقد رفض أن يصافحني ورفض أن ينظر إلي، وكان لابد لي من أن أعبر له بطريقة ما، عن ميلي إليه، ورغبتي في أن نكون صديقين.

ولست أدري إن كانت القبلة قد أقنعت هيرتون أم لا، ولكنه حرص على أخفاء وجهه لفترة من الوقت. وعندما رفع رأسه بعد ذلك، لم يكن يعرف إلى أين يتجه بنظراته.

وشغلت كاترين نفسها بتغليف كتاب أنيق بورق أبيض نظيف، ثم كتبت عليه إلى مستر هيرتون إيرنشو. وأبدت لي رغبتها في أن أحمل الهدية إلى ابن خالها، وقالت لي.. وأخبريه أنه إذا قبل الكتاب، فإنني سوف أحضر إليه وأعلمه كيف يقرأه قراءة صحيحة.. أما إذا رفض قبوله، فإنني سوف أصعد إلى غرفتي، ولن أضايقه بعد ذلك..

وحملت إليه الكتاب، وأعدت على مسامعه مضمون الرسالة، بينما كانت مخدومتي ترقبني في لهفة. ولكن هيرتون لم يفرد أصابعه المنقبضة ولذلك وضعت الكتاب فوق ركبته..على أنه لم يقذف به إلى الأرض كذلك!.. وعدت إلى عملي، أما هي فقد مالت برأسها في اتجاه المائدة. وكذلك حتى سمعت حفيف ورق الغلاف وهو ينزع برفق، وعندئذ ذهبت وجلست في هدوء إلى جانب ابن خالها. ورأيته يرتعد وقد اتقد وجهه وفارقته خشونته.

وقالت له: قل إنك صفحت عني يا هيرتون.. قلها!

فغمغم بكلمات غير مفهومة..

وأضافت كاترين قائلة: وهل ستصبح صديقي؟

أجاب: كلا.. فسوف تشعرين بالخجل مني في كل يوم من أيام حياتك.. وهذا أمر لا أستطيع احتماله.

فقالت، وقد علت وجهها ابتسامة أشهى من الشهد. وأخذت تزحف لتلتصق به: إذن فلن تكون صديقي؟

وعندما تطلعت إليها مرة أخرى، رأيت وجهين يشع منهما الضياء وقد انحنيا فوق إحدى صفحات الهدية المقبولة، بحيث لم يعد لدي أدنى شك في أن العدوين قد أصبحا الآن حليفين متحابين..

وهكذا بدأت بينهما الألفة، ونمت سريعًا.. فلم يكن إيرنشو بالشخص الذي يقبل على الثقافة عن رغبة.. كما أن سيدتي الصغيرة لم تكن دائماً مثال الصبر.. ولكن تفكيرهما كان يتجه إلى هدف واحد.. هو الهدف الذي حاولا في النهاية أن يبلغاه معًا..

-33-

في صباح اليوم التالي، سبقت كاترين بمغادرة البيت، وأسرعت إلى الحديقة، حيث وجدت ابن خالها يؤدي عملاً بسيطًا هناك، فأغرته بتنظيف قطعة كبيرة من الأرض من أشجار العنب النباتي، وكانا منهمكين في غرس حديقة للأزهار. وقد تملكني الفزع من ذلك الدمار الذي أصاب أشجار العنب النباتي، لأنها كانت تخص جوزيف.

وصحت قائلة: أن جوزيف سوف يدعو السيد لرؤية هذا الدمار.. فورا اكتشافه لأمر. ثم ما هو التبرير الذي يمكن أن تقدماه لهذه الحرية المطلقة في تغير الحديقة؟

فأجاب إيرنشو وقد بدت الحيرة على ملامحه: لقد نسيت أنها أشجار جوزيف ولكني سأخبره إنني الذي اقتلعتها.

وكنا نتناول طعامنا برفقة مستر هيثكليف. وعندما أوشكنا على الانتهاء منه، ظهر جوزيف على الباب، وقد بدا في ارتعاشة شفتيه وتوهج عينيه أن العدوان الذي وقع على أشجاره الثمينة قد انكشف أمره فصاح قائلاً: والآن.. لقد أخذ مني الحديقة، وهذا شيء لا أقوى على احتماله أيها السيد..

فتساءل مستر هيثكليف: هل هذا الأبله ثمل؟ أهو أنت الذي يشكو منه يا هيرتون؟

فأجاب الفتى: لقد خلصت شجرتين أو ثلاث شجرات، ولكن سوف أعيدها له.

قال السيد: ولماذا خلفتها؟

أجابت كاترين: لقد أردنا أن نزرع بعد الأزهار هناك، وأن الشخص الوحيد الذي يجب أن يوجه إليه اللوم.. لأنني التي طلبت إليه أن يفعل ذلك.

فسألها حموها في دهشة: من الذي أذن لك أن تلمسي شيئًا في هذا المكان؟

قالت: لا ينبغي أن تحقد علينا من أجل بضع ياردات، بعد أن استوليت على كل أرضي!

فقال هيثكليف: أرضك؟ لم تكن لك أرض في يوم من الأيام!

فاستطردت قائلة، وهي توجه نظراتها النارية بثبات: ومالي؟

فصاح: أخرسي.. أخرجي من هنا.

فتابعت حديثها بغير اكتراث قائلة: وأرض هيرتون وثروته؟ لقد أصبحت أنا وهيرتون صديقين الآن، وسوف أخبره بكل شيء عنك.

فازداد وجه السيد امتقاعًا وشحوبًا. وما لبث أن نهض وعلى وجهه تعابير الحقد المميت، فقالت له: إذا ضربتني، فسوف يرد لك هيرتون الصاع صاعين.

فزمجر هيثكليف قائلاً: إذا لم يخرجك هيرتون من الغرفة الآن، فإنني سوف انهال عليه ضربًا حتى يقضي نحبه.. أيتها الساحرة اللعينة! هل تجرؤين على إثارته ضدي؟ أخرجها من هنا.. هل تسمع؟ أقذف بها إلى المطبخ! سوف أقتلها يا إيلين دين إذا تركت عيني تقع عليها ثانية.

وحاول هيرتون أن يقنعها بالخروج.. فصاح به هيثكليف في وحشية: جرها إلى الخارج!

فقالت كاثرين: إنه لن يطيعك بعد الآن أيها الرجل الشرير.. وهو سوف يكرهك عاجلًا مثلما أكرهك.

فغمغم الشاب مؤنبًا: صه.. صه! إنني لا أقبل أن أسمعك تخاطبينه على هذا النحو.. هيا بنا!

فصاحت قائلة: ولكنك لن تدعه يضربني؟

فهمس في لهفة: تعالي إذن!

ولكن الأوان كان قد فات، فقد أمسك بها هيثكليف، وقال لها: أيتها الساحرة اللعينة!.. لقد أثرتني هذه المرة، وأنا لا أستطيع احتمال هذه الإثارة.. وسوف أجعلك تندمين على ذلك طيلة حياتك.

وكانت عينا هيثكليف السوداوان تومضان بالشرر. وقد بدا عليه أنه يهم بتمزيق كاترين إرباً إرباً، ولكن لم يلبث أن تراخت أصابعه فجأة. وأخذ يحدق في وجهها بإمعان.. ثم وضع يده فوق عينيه، ووقف لحظة كأنه يستجمع أشتات نفسه. وقال في هدوء مفتعل: يجب أن تعلمي كيف تتحاشين إثارة انفعالي، وإلا قتلتك حقاً في يوم من الأيام. أما هيرتون إيرنشو، فلو رأيته يصغي إليك، فإنني سوف أطرده.. إن حبك سوف يجعل منه متسولاً. والآن، خذيها يا نيللي، واتركوني جميعاً.. دعوني وحدي.

وبقي مستر هيثكليف وحده في الغرفة حتى موعد الغداء. وكنت قد نصحت كاترين بأن تتناول غداءها في الطابق العلوي، ولكنه لم يكد يرى مقعدها خالياً، حتى أرسلني لاستدعائها. ولم يخاطب أحداً منا بكلمة، ثم انصرف خارجاً عقب الغداء مباشرة.

وقد أقام الصديقان في غرفة الجلوس أثناء غيبته. وقد سمعت هيرتون يصد ابنة عمته عندما حاولت كشف مسلك حميها نحو أبيه، وسألها كيف يكون شعورها إذا سمعته ينطق سوءاً في حق والدها.. وعندئذ أدركت أن إيرنشو كان مرتبطاً بهيثكليف بصلات أقوى من أن يستطيع العقل تحطيمها، وبحيث يكون من القسوة أن يحاول الخلاص منها. ولا اعتقد أنها همست بحرف واحد في أذن هيرتون ضد مضطهدها بعد ذلك.

وعندما انتهى هذا الخلاف البسيط بينهما، عادا صديقين مرة ثانية. وانخرطا بعد ذلك في مشاغلهما العديدة كتلميذ ومدرسته، وأنت تعلم يا مستر لوكوود إنهما يعتبران بمثابة ولدي، وقد ظللت طويلاً أفخر بأحدهما، وأعتقد أن الثاني سوف ينال نفس المكانة، لأنني رأيت الآن طبيعته الأمينة المتوثبة الذكية وقد نفضت عنها سريعاً ضباب الجهل الذي نشأ فيه، وأصبح تألقه الذهني يضيء ملامح وجهه.

وعاد السيد مع اقتراب الغسق. وكان قدومه غير متوقع بالنسبة لهما. وقد ألقى عليهما نظرة شاملة. ورفعا أعينهما معاً لتلتقي بنظرات مستر

هيثكليف. وكانت عيونهما متشابهة تماماً، وهي نفس عينا كاترين إيرنشو وكان التشابه في تلك اللحظة بصفة خاصة بالنسبة لهيرتون مذهلاً للغاية، لأن ملكاته العقلية كانت قد استيقظت من نشاط غير عادي، ويخيل إلي أن هذا التشابه قد سلب هيثكليف جميع أسلحته، إذ سار إلى المدفأة في انفعال واضح، ثم أشار إلى كاترين وهيرتون بالانصراف وأمرني أن أبقى في مكاني. ثم قال:

- إنها نهاية تافهة أليس كذلك؟ أليست خاتمة سخيفة لكل ما بذلت من جهوده مضنية وعنيفة؟ لقد كنت قد نويت أن أقوم بتدمير هذين البيتين، وعندما أصبح كل شيء جاهزاً وفي قبضة يدي، إذا بالرغبة تتلاشى. إن أعدائي القدامى لم يهزموني، وقد يكون الآن هي اللحظة المناسبة لكي أثأر لنفسي من ذريتهم، وفي وسعي أن أفعل ذلك، بل إنه ما من أحد يستطيع أن يقف دون ذلك. ولكن ما الفائدة من ذلك، بل أنه ما من أحد يستطيع أن يقف دون ذلك. ولكن ما الفائدة من ذلك؟ ليس في مقدوري أن أجشم نفسي مشقة رفع يدي. لقد فقدت القدرة على الاستمتاع بتدميرها، وأصبحت أضيق بنفسي على التدمير بلا نتيجة.

إن هناك تغييراً غريباً في الطريق إلي يا نيللي وأنا الآن أجتاز ظله لقد فقدت كل اهتمام بحياتي اليومية، بحيث أصبحت لا أكاد أذكر طعامي وشرابي.. إن هذين الاثنين اللذين غادرا الغرفة الآن هما وحدهما اللذان يحتفظان بمظهر حي أمام عيني.. وهذا المظهر يسبب لي ألماً يتزايد حتى يبلغ مبلغ العذاب.. أما هي، فلست أريد أن أتكلم عنها، ولا أرغب في التفكير فيها.. ولكن أود أن تختفي من أمام عيني، لأن وجودها يثير في نفسي مشاعر تبعث على الجنون.. أما هو، فإنه يحرك في نفسي مشاعر مختلفة. ومع ذلك فلو كان الأمر بيدي، لما رأيته بعد ذلك أبداً، لأنه يثير آلاف الصور من ذكريات الماضي.. فإن شبهه المروع بكاترين يقرنه بها إلى حد مخيف.. وإلا فأي شيء حولي لا يقترن بها؟ وأي شيء حولي لا يذكرني بها؟.. إنني لا أستطيع أن أنظر إلى أرض هذه الغرفة دون أن أرى ملامحها منقوشة فوق كل مربع منها. إنني أراها في كل سحابة، وفي كل شجرة، وملء نسمات الليل.. فدائماً تحيط بي صورتها أن الدنيا بأسرها عبارة عن مجموعة مخيفة من الذكريات التي تثبت لي أنها ما زالت موجودة، وإنني قد فقدتها!..

فسألته: ولكن ما الذي تعنيه بأن تغييراً ما سوف يحل بك يا مستر هيثكليف؟ هل تشعر بأغراض مرض؟

أجاب: كلا يا نيللي، ليس بي شيء من ذلك.

فاستطردت قائلة: إذن.. فأنت لا تخاف من الموت؟

أجاب: أخاف من الموت؟ كلا.. ولماذا ينبغي أن أخاف؟ ومع ذلك فإنني لا أستطيع الاستمرار على هذه الحالة. إن علي الآن أن أذكر نفسي بأن علي أن تنفس. إن لدي رغبة واحدة يتهلف كياني كله على بلوغها. وإنني أتوق إليها كثيراً وبإصرار بالغ، لأنني أصبحت مقتنعاً بأنني سوف أبلغها، وفي أقرب وقت، بعد أن ابتلعت وجودي.. آه يا إلهي.. لقد طال الصراع، فليته يبلغ نهايته!..

-34-

ظل مستر هيثكليف عدة أيام، بعد تلك الأمسية، يتجنب لقاءنا في مواعيد الطعام. وكان يبدو أنه يكتفي بوجبة واحدة طوال الأربع والعشرين ساعة يقيم بها أوده.

وذات ليلة، وبعد أن أوى كل فرد من الأسرة إلى فراشه، سمعته يهبط الدرج، ثم يغادر البيت من الباب الأمامي، واكتشفت في الصباح أنه ما زال في الخارج. وبعد أن فرغنا من تناول طعام الإفطار، جاءت كاترين مسرعة من الحديقة، وأعلمتنا بأن مستر هيثكليف قد عاد وأضافت قائلة: ولكنه يبدو في مظهر يختلف تماماً عن مظهره المعتاد.

فسأل هيرتون: كيف؟

أجابت: يبدو مشرقًا، مرحًا، فياض المشاعر، يطفح وجهه بشراً وسروراً.

وانتابتني دهشة لا تقل عن دهشتها. فإن رؤية السيد في حال من المرح والسرور ليست من المشاهد العادية التي يراها الإنسان كل يوم. ودخل هيثكليف.. كان شاحب الوجه، مرتعد البدن، ومع ذلك فقد كان من المؤكد أن عينيه تشعان ببريق غريب ينبئ عن فيض من السرور.

وقلت له: ألا تريد أن تتناول طعام الإفطار؟

فأجاب: كلا.. إنني لست جائعًا.

قلت: أظن أنه ليس من الصواب أن تقضي الليل متجولاً في الخارج، بدلاً من أن تقضيه في الفراش.. فإنك بهذا سوف تصاب بنزلة برد شديدة أو حمى، إن هناك ما يشغل بالك الآن.

أجاب: ليس بي إلا ما أطيق احتماله.. فقط، اتركيني وشأني.

ولاحظت أن أنفاسه سريعة متلاحقة كأنفاس القطط، فقلت في نفسي، يقيناً أنه سوف يتعرض لنوبة من المرض.

وفي موعد الغداء، جلس معنا على المائدة، وقال: ليس بي برد أو حمى يا نيللي. وإنني على استعداد لالتهام كل ما تقدمين لي من طعام.

وتناول سكينته وشوكته. وفجأة تطلع نحو النافذة في لهفة، ثم ما لبث أن نهض وانطلق إلى الخارج. ورأيناه يذرع الحديقة جيئة وذهاباً، وعندئذ قال إيرنشو أنه سوف يذهب ليسأله عن سبب عزوفه عن تناول الطعام، فقد ظن أننا تسببنا في كدره بطريقة ما..

وعندما عاد ابن خالها، وصاحت كاترين تسأله: حسن.. هل هو قادم؟

فأجاب: كلا.. إنه ليس غاضباً، بل إنه يبدو مسروراً سروراً غير عادي.. غير أنه ضاق بي ذرعاً عندما حاولت مخاطبته مرتين، وطلب مني أن أدعه وشأنه، واذهب لصحبتك.. وقد أبدى دهشته من أن في إمكاني أن أنشد صحبة أي إنسان غيرك.

وبعد ساعة أو ساعتين، عاد إلى الغرفة. وكان يبدو عليه الهدوء، وقد ارتسمت على وجهه نفس ملامح البشر والسرور غير المألوفة. وكان بدنه يرتجف، ولكن ليس ارتجافة البرد أو الضعف، وإنما ارتجافة الوتر المشدود إلى أقصى درجات احتماله.

وفكرت في أن أسأله عما ألم به، فقلت له: هل تواترت إليك أنباء سارة يا مستر هيثكليف.. فإنك تبدو منتعشاً إلى حد غير مألوف؟

قال: ومن أين تأتيني الأنباء السارة؟ أرجوك يا نيللي أن تنذري هيرتون والأخرى بأن يبتعدا عن طريقي.. إنني لا أريد أن يزعجني أحد، وأود أن يكون هذا المكان لي وحدي.

فسألته: هل جد من الأسباب ما يدعو إلى هذه العزلة؟ خبرني لماذا تبدو غريباً إلى هذا الحد يا مستر هيثكليف؟ وأين كنت الليلة الماضية؟

قال: الليلة الماضية!.. لقد كنت على أعتاب الجحيم. أما اليوم فإن جنتي على مرمى البصر مني!.. لقد ركزت عيني عليها، ولم يعد يبعدني عنها

أكثر من ثلاثة أقدام. والآن، يحسن بك أن تنصرفي!..

وفي الساعة الثامنة، سمعنا وقع خطواته وهو يصعد الدرج، ولكنه لم يذهب إلى غرفته المعتادة، وإنما اتجه إلى تلك الغرفة الأخرى التي يوجد فيها الفراش ذو الخزانة الخشبية. وكانت نافذتها عريضة بحيث تسمح بمرور أي شخص منها، ولذلك طرأ على فكري أنه يدبر رحلة أخرى من رحلات منتصف الليل، وهو لا يريد أن نعرف عنها شيئًا.

وعند الفجر استيقظت، وخرجت إلى الحديقة لأتحقق مما إذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته، ولكنني لم أجد أي أثر.. فقلت لنفسي: لقد بقي في البيت.. وسوف يكون بخير اليوم.

وعندما عدت إلى داخل البيت، وجدت مستر هيثكليف في الطابق الأرضي. وكان يصدر لجوزيف أوامر واضحة تتعلق ببعض شئون الزراعة، ولكنه كان يتحدث في سرعة يدير رأسه جانبًا باستمرار، وقد ارتسم على وجهه نفس الانفعال الذي بدا عليه أخيرًا. وعندما غادر جوزيف الغرفة، وضعت أمامه قدحًا من القهوة، وكانت نظراته متجهة إلى الجدار المقابل كما توقعت.. وكان يبدو في عينيه ذلك القلق المتلألئ، وقد استحوذ عليه اهتمام بالغ لدرجة أنه كف عن التنفس أكثر من نصف دقيقة.

فصحت قائلة: هيا أشرب قهوتك وهي ساخنة..

ولكنه لم ينتبه لعبارتي.. ومنع ذلك كان يبتسم.. فصحت به: مستر هيثكليف! سيدي! لا تحملق هكذا بحق السماء، وكأنك ترى مشهدًا خارقًا للطبيعة..

فأجاب: وبحق السماء.. لا تصرخي هكذا عاليًا. انظري حولك، وخبريني هل نحن وحدنا؟

قلت: طبعًا.. وحدنا طبعًا!

فمال إلى الأمام ليستطيع أن ينعم النظر بطريقة أكثر سهولة. وفي هذه اللحظة تبين لي أنه لم يكن ينظر إلى الجدار، ولكن كان يحدق في شيء يبعد عنه بنحو ياردتين. ومهما يكن من أمر هذا الشيء، فإنه كما يبدو كان

يحمل إليه السرور والألم معاً. ولم يكن ذلك الشيء الذي يتخيله ثابتاً، فقد كانت عيناه تتابعانه ولا تتحولان عنه حتى في أثناء حديثه لي. وحاولت عبثاً أن أذكره بتناول شيء من الطعام. وكان إذا استجاب لرجائي، ومد يده لتناول قطعة من الخبز، فسرعان ما كانت أصابعه تنقبض قبل أن تصل إليها، وتظل يده مستلقية فوق المائدة، غافلة عن هدفها.

وضللت جالسة وأنا أحاول أن أثير انتباهه، حتى ضاق بي ذرعاً، فنهض وغادر البيت واختفى عن الأنظار.

ومضت بي الساعات وأنا في شدة القلق.. وحلت ليلة أخرى. ولم أذهب إلى غرفتي للراحة الآن وقت متآخر. ولكني لم أستطع النوم.. وأخيراً عاد بعد منتصف الليل. ولكنه بدلاً من أن يتجه إلى غرفته، أوصد على نفسه باب الغرفة السفلى، فأخذت أرهف السمع وأنا أتقلب في فراشي. وأخيراً نهضت وارتديت ثيابي، وهبطت إلى الطابق الأرضي. وتبينت خطوات مستر هيثكليف وهو يذرع الغرفة. وكان كثيراً ما يمزق الصمت بتمتمة بعض الكلمات التي لم أستطع تبينها، ولكن الكلمة الوحيدة التي استطاعت أذناي التقاطها كانت اسم كاترين، وكان ينطق بها كأنه يخاطب شخصاً أمامه. ولم أجد في نفسي الشجاعة الكافية على اقتحام الغرفة مباشرة، ولذلك ذهبت إلى المطبخ، وقمت بتقليب نار المدفأة بصوت مسموع، وكان إن جذب انتباهه، ففتح الباب في الحال، وقال: تعالي هنا يا إيلين.. ها نحن في الصباح الآن؟ تعالي واشعلي لي ناراً..

ثم أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو في حالة قريبة من الجنون، ثم قال: عندما يبزغ الفجر، سوف أبعث في طلب المحامي. فإنني أريد أن استوضحه في بعض الأمور القانونية، حتى أستطيع التصرف في هدوء، إنني لم أكتب وصيتي بعد، ولم أقرر حتى الآن كيف أتصرف في ثروتي.

قلت: إنني أرى غير رأيك يا مستر هيثكليف. دع أمر وصيتك فترة أخرى، فما زال أمامك الوقت متسعاً للتكفير عن مظالمك الكثيرة. إن الطريقة التي قضيت بها الأيام الثلاثة الأخيرة خليقة بأن تصرع العمالقة فهلا تناولت بعض الطعام ونالت قسطاً من الراحة؟ إنك الآن أشبه بشخص يوشك على الموت جوعاً، ويكاد يفقد بصره من طول السهاد.

فأجاب: إنه ليس ذنبي إنني لا أستطيع أن أتناول الطعام أو أن أنعم بالراحة. وإنني سوف آكل واستريح عندما أجد ذلك في مقدوري.. ولكنك كمن يأمر رجلاً يصارع الأمواج بأن يستريح وهو على قيد ذراع من الشاطئ. يجب أن أبلغ الشاطئ أولاً، ثم استريح بعد ذلك، حسن.. دعينا الآن من المحامي. أما بالنسبة للتكفير عن مظالمي، فإنني لم أقترف ظلماً، وليس هناك ما أندم عليه.. إنني سعيد غاية السعادة، ومع ذلك فإنني لست مسروراً إلى الحد الذي يكفيني..

فصحت قائلة: سعيد يا سيدي؟ ما أغربها من سعادة! ولكن إذا قبلت أن تستمع إليّ في غير غضب، فربما استطعت أن أسدي إليك نصيحة تجعلك أعظم سعادة.

فسأل: ما هي؟ إليّ بها..

قلت: أنت خائف يا مستر هيثكليف.. فمنذ كنت في الثالثة عشرة من عمرك وأنت تعيش حياة كلها أنانية ولا تعترف بتعاليم الدين، فهل يضيرك أن تبعث في طلب قسيس ليريك إلى أي حد نقضت تعاليم الكتاب، وكيف أصبحت غير جدير بعالم السماء. ما لم يحدث تغيير في موقفك قبل أن تموت؟

فقال: بل يجب أن أشكرك يا نيللي، وليس لي أن أغضب منك.. فقد ذكرتني بالطريقة التي أرغب أن أدفن بها. أريد أن يحمل جثماني إلى القبر في المساء. ويمكنك أنت وهيرتون أن ترافقا جثماني إلى هناك. وعليك أن تتذكري، بصفة خاصة، أن الحفار قد نفذ تعليماتي بأن اتخذ مكاني بين التابوتين. وليست بي حاجة لحضور أحد رجال الدين، لأنني أوشكت على بلوغ جنتي.. ولذلك فإنني لا أقيم وزناً لجنة الآخرين، ولا اشتهيها.

وما كاد يسمع دبيب حركة أفراد الأسرة الآخرين في البيت، حتى أسرع إلي غرفته.. وعندئذ تنفست الصعداء.. ولكنه أتى إلى المطبخ ثانية بعد الظهر، وفي نظرات وحشية طلب إلي أن أذهب وأشاركه مجلسه في غرفة الجلوس.. كان يريد أن يجلس إلى أي شخص. ولكني أبيت وأفهمته صراحة أن حديثه ومسلكه الغريبين قد سببا لي فزعاً.

فقال وهو يطلق ضحكته الرهيبة: أحسبك تظنينني شيطاناً؟

ثم التفت إلى «كاترين»، وقال لها: هل لك أن تأتي معي؟ إنني لن أؤذيك في شيء. كلا.. لقد جعلت نفسي في نظرك أسوأ من الشيطان. حسن.. هناك واحدة لن تنفر من صحبتي. يا إلهي.. إنها لا تشعر بالرحمة نحوي. آه.. يا للعنة. إن هذا فوق طاقة احتمال إنسان.. من لحم ودم.. حتى أنا؟

وعند الغسق، أوى إلى غرفته. وكنا نسمعه طوال الليل وحتى ساعات الصباح وهو يئن ويحدث نفسه. وكان «هيرتون» راغباً في الدخول إلى غرفته، ولكني طلبت إليه أن يذهب لاستدعاء الدكتور «كينيث». وعندما جاء الطبيب، سألته أن يأذن لنا بالدخول. وحاولت أن أفتح الباب، ولكني وجدته موصداً. وعندئذ بدأ «هيثكليف» يصب اللعنات على رؤوسنا، وهو يقول أن أحسن حالاً.. ويريد منا أن نتركه وشأنه وكان إن رحل الطبيب ثانية.

وكانت الليلة التالية غزيرة الأمطار. وفي الحقيقة أن المطر ظل ينهمر حتى مطلع الفجر. وعندما كنت أقوم بجولتي الصباحية حول البيت، لاحظت أن نافذة غرفة سيدي مفتوحة، والهواء يقرع مصراعيها. والمطر يتدفق إلى الداخل. وخطر لي أنه لا يمكن أن يكون في فراشه، لأن هذه السيول لابد أن تغرقه، وعلى ذلك فإنه لابد أن يكون قد استيقظ من نومه أو غادر البيت. ولم أشأ أن أثير مزيداً من الضجة، ولذلك قررت أن أذهب بكل جرأة لأقف على الحقيقة بنفسي.

ونجحت في الدخول إلى الغرفة باستخدام مفتاح آخر. ثم أسرعت بإزاحة الألواح الخشبية لخزانة الفراش، لأن الغرفة كانت خالية.. وعندما دفعتها جانباً بسرعة، واختلست نظرة إلى داخلها، وجدت مستر هيثكليف هناك.. كان راقداً على ظهره.. والتقت عيناه بعيني، فوجدت فيهما نظرة حادة بغيضة.. فارتعدت.. وعندئذ بدا وكأنه يبتسم.

ولم يتطرق إلي الشك في أنه ربما يكون قد مات. ولكن المطر كان يغمر وجهه وعنقه. وكانت أغطية الفراش تقطر ماء. وكان هو ساكناً تماماً. وكان مصراع النافذة يصفق هنا وهناك.. وقد أصيبت يده –التي

كانت مستقرة على قاعدة النافذة- بكدمات. ولكنني لم أرَ أثراً للدماء حول الجلد الممزق. وعندما لمسته بأصبعي، لم يعد ثمة مجال للشك.. فقد كان ميتًا بارداً.

وقد قمنا بدفنه حسب مشيئته. ولم يحضر مراسم الدفن إلا أنا وإيرنشو والحفار، وستة من الرجال كان يحملون النعش.. وقد مضى الرجال الستة لحال سبيلهم بعد أن أنزلوا التابوت في القبر. وبقينا حتى أهيل عليه التراب، وقمنا بغرس بعض الأعشاب فوق مقرته، وقد ظلت حتى الآن خضراء يانعة كتلك التي تغطي القبرين الآخرين.. وأرجو أن ينعم ساكنوها بالنوم العميق.

وإذا سالت أهل الريف، فإنهم سوف يقسمون لك أنه ما زال يسير على قدميه. وهناك من بينهم من يتحدثون عن لقائهم به بالقرب من الكنيسة، وفي البراري، وحتى في هذا البيت. وستقول أنها خرافة، وكذلك أقول أنا.. ومع ذلك فإن جوزيف يؤكد أنه يرى الاثنين معاً يتطلعان من نافذة غرفته في كل ليلة ممطرة منذ وفاته.. ولقد وقع لي حادث غريب منذ شهر تقريباً، فقد كنت ذاهبة إلى «الجرانج» ذات مساء. وعندما بلغت المرتفعات التقيت بصبي صغير معه شاة وحملان. وكان يبكي في رعب، فسألته: ما خطبك أيها الرجل الصغير؟

فقال من خلال دموعه: أن هيثكليف هناك ومعه امرأة. ولا أجرؤ على المرور أمامهما.

ونظرت، فلم أرَ شيئًا. ولكنه رفض أن يتحرك من مكانه، وكذلك أبت الخراف، فأمرته بأن يسلك طريقًا آخر أسفل ذلك الطريق. والأرجح أنه كان يتخيل وجود الأشباح من كثرة تفكيره فيها وهو بقطع البراري وحيداً، ومن كثرة سماعه لذلك الهراء الذي كان يردده والداه.. ومع ذلك فإنني الآن لا أحب الخروج ليلاً، ولا أقبل أن أترك وحدي في هذا البيت الكئيب، بل إنني لا أستطيع احتمال ذلك.. وسأشعر بمنتهى السعادة لو تركا هذا البيت الكئيب، وذهبا للإقامة في الجرانج.

قلت: هل ينويات الذهاب إلى الجرانج إذن؟

فأجابت مسز دين: نعم.. بمجرد زواجهما.

- ومن الذي سيقيم هنا إذن؟

- سيبقى جوزيف لرعاية شؤون البيت.. وربما بقي معه غلام ليكون رقيقًا له.. وسوف يعيشان في المطبخ، وتوصد باقي غرف البيت.

فقلت: إنه خير مكان تختاره الأشباح للإقامة فيه.

ولكن إيلين هزت رأسها قائلة: كلا يا مستر لوكوود!.. إنني أعتقد أن الموتى يرقدون في سلام، وليس من الصواب أن يتحدث عنهم الإنسان باستخفاف.

وفي تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة.. فقد عاد الفتى والفتاة من جولتهما. وبينما كانا يخطوان نحو المدخل، ويتمهلان ليليقيا نظرة أخيرة على القمر، أو بالأحرى لكي يتطلع كل منهما إلى الآخر على ضوء القمر شعرت بدافع يستحثني ثانية على تجنب لقائمهما، فدست هدية للذكرى في يد مسز دين، وانسللت خارجًا من المطبخ بينما كان الفتى والفتاة يهمان بفتح باب البيت..

وامتدت مسيرتي نحو البيت، بعد أن عرجت نحو الطريق إلى الكنيسة. وعندما وصلت إلى هناك، عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر الملاصق للبراري. وكان الشاهد الأوسط رمادي اللون يكاد العشب يغطيه كله. أما شاهد قبر إدجار لينتون، فإن الحشائش كانت تزحف عند أعتابه.. أما شاهد قبر هيثكليف، فقد كان ما زال عاريًا..

تجولت حول القبور، تحت تلك السماء الصافية ورحت أصغي إلى أنفاس الريح الرقيقة وهي تهمس بين العشب. وأعجب كيف يستطيع أحد أن يتصور النومة القلقة لأولئك الراقدين في هذه الأرض الهادئة.

تمت

جدول المحتويات

-1 -
-2 -
-3-
-4-
-5-
-6-
-7-
-8-
-9-
-10-
-11-
-12-
-14-
-15-
-17-
-18-
-19-
-20-
-21-
-22-
-23-
-24-
-25-
-26-
-27-
-28-

-29-
-30-
-31-
-32-
-33-
-34-